

رسالة المستشرقين

للحارث المحاسبي

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري

توفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ

رحمه الله تعالى

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

عبد الفيتاح أبو غدة

الطبعة الثانية مزیلة من التحقيق والتعليق

الناشر

مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب

باب الحديد - مكتبة النهضة - ت ٣٥٢٩١

دار الشريعة

للطباعة والنشر والتوزيع

حلب - ص ب ١٨٩٣ - هاتف ١٧٧٦٤

الطبعة الأولى حلب ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م
الطبعة الثانية بيروت ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م
الطبعة الثالثة بيروت ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م
الطبعة الرابعة القاهرة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م
الطبعة الخامسة القاهرة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ولي كل حمدٍ وثناء ، والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء ، وعلى آله وصحبه وأتباعه نجوم الاهتداء والافتداء .

أما بعد فهذه الطبعة الثانية من « رسالة المسترشدين » للإمام أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى ، بعد أن نفذت الطبعة الأولى ، ولاقت الرضا والقبول والحمد لله على فضله وتوفيقه . وجاءت هذه الطبعة أوفى تحقيقاً ، وأكثر تعليقاً ، فقد أكرتُ فيها من الشواهد والوقائع والحكايات عن السلف ، تأييداً لما تضمنته « الرسالة » من الإرشاد والتوجيه ، أو النهي والتحذير ، ليكون ذلك أرجى قبولاً في النفوس ، وأدفع إلى العمل والامثال ، وأطيب على القلب والفكر ، من الأمر أو النهي الصريح المباشر ، وقد حسن القرآن الكريم هذه الطريقة وقررها فقال : ﴿ ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مُزْدَجَر ﴾ .

قال بعض العلماء : الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى ، يُثَبِّتُ الله بها قلوب أوليائه ، قال : وشاهدُه قوله تعالى : ﴿ وكلاًّ نَقُصُّ عليك من أنباء الرُّسُلِ ما نثبتُ به فؤادَكَ ﴾ . وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى : الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليّ من كثير من الفقه ، لأنها آدابُ

القوم . وشاهدُه قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هَدَى اللهُ فبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى : عند ذكر الصالحين تنزلُ الرحمة^(١) . ومن أجل هذا التزمتُ غالباً عزَّو الأقوال والوقائع إلى أهلها استئزلاً للرحمة بذكرهم ، كما التزمتُ غالباً لإنشاء الترحُّم والترضي عليهم ، لكریم سیرهم وطیب عطرهم ، فقد قال الإمام أبو محمد التميمي : يَقْبَحُ بكم أن تستفيدوا منا ، ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا^(٢) . وقد كان كبارُ الأئمة من السلف ، إذا ذكروا الصالحون في مجلسهم تأدَّبوا في هيئة جلوسهم ، رعايةً لمقام الصالحين ولو كانوا غائبين . فلا أقلَّ من أن نترحمَ عليهم - نحن الخلف - إن فاتنا التأدُّبُ عند ذكرهم .

قال الإمام ابن مفلح الحنبلي في كتابه « الفروع » ١ : ١٩٥ والحافظ ابن

(١) نقل جل تلك الكلمات القاضي عياض في « ترتيب المدارك » ١ : ٢٣ .

(٢) من مقال (كتب برامج العلماء في الأندلس) للدكتور عبد العزيز الأهواني ، في « مجلة معهد المخطوطات العربية » في المجلد الأول .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في مقدمة شرحه لكتاب « صحيح مسلم » ١ : ٣٩ « فصل : يستحب لكاتب الحديث إذا مر بذكر الله عز وجل أن يكتب (عز وجل) أو (تعالى) أو (سبحانه وتعالى) أو (تبارك وتعالى) أو (جل ذكره) أو (تبارك اسمه) أو (جلّت عظمته) أو ما أشبه ذلك .

وكذلك يكتب عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم : (صلى الله عليه وسلم) بكما هما ، لا رامزاً إليهما ولا مقتصراً على أحدهما .

وكذلك يقول في الصحابي : (رضي الله عنه) ، فإن كان صحابياً ابن صحابي قال : (رضي الله عنهما) . وكذلك يترضى ويترحم على سائر العلماء والأعيان - أي يستحب ذلك أيضاً - ويكتب كل هذا وإن لم يكن مكتوباً في الأصل الذي ينقل منه ، فإن هذا ليس رواية وإنما هو دعاء .

وينبغي أن يقرأ كل ما ذكرناه وإن لم يكن مذكوراً في الأصل الذي يقرأ منه ، ولا يسأم من تكرار ذلك ، ومن أغفل هذا حرم خيراً عظيماً ، وفوت فضلاً جسيماً .

حجر في « تهذيب التهذيب » ١ : ١٣٠ « قال أبو زرعة الرازي : سمعتُ أحمد ابن حنبل - وذكر عنده إبراهيم بن طهمان ، وكان أحمد متكئاً من علة ، فاستوى جالساً وقال - : لا ينبغي أن يُذكر الصالحون فتنكي . وذكر أبو الوفاء بن عقيل في « الفنون » أنه كان مستنداً ، فأزال ظهره وقال : لا ينبغي أن يجري ذكرُ الصالحين ونحن مستندون » .

وقد جُبِلَت القلوب على حُبِّ تقليدِ الصالحين والسيرِ على منوالهم ، وعلى الرغبةِ في التأسي بهم والافتداء بأفعالهم وأقوالهم ، فلذا تراني أوردتُ في تعليقاتي من أقوال وقائع العلماء والصالحين ، والعابدين والمجاهدين ، والزهاد والصابرين : ما يدفع بالموثّق الموصول بإيمانه إلى أن يتأسّى بهم ، ويتشبه بسيرتهم ، ويعمل بعملهم ، وأن يزداد قوةً وشكّمةً في دينه وجهاده وصبره وبلائه ، وأن يكون خيراً خلف لخير سلف ، وكما قيل :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التشبه بالكرام فلاحُ

ومجالسةُ الصالحين ، أو سماعُ أخبارهم ، أو قراءةُ وقائعهم وسيرهم : من أهمِّ مقاصد الحياة عند العقلاء الصلحاء ، فما تُحبِّبُ الدنيا للعاقل إلا لتكميلِ صفاته ، وتكثيرِ حسناته ، وتزويده منها لآخرته ، وفي هذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أُحِبَّتُ البقاء فيها : ١ - لولا أن أحملَ أو أُجهزَ جيشاً في سبيل الله . ٢ - ولولا مُكابدةُ الليل . يعني قيامَ الليل والعبادة فيه لتحصيل ما فيه من جزيل الثواب . ٣ - ولولا مجالسةُ أقوامٍ ينتقون أطيبَ الكلام كما يُنتقى أطيبُ الثمر . انتهى .

وقد حرصتُ أن تتضمن تلك الوقائع والشواهد والأخبار ، كثيراً من الأمور الهادفة التي يحتاجها شبابنا وبناتنا في البيت والمجتمع ، من التوجيهات الغالية ، والأفكار الهادية ، والأخلاق الواعية ، لتكون لهم عوناً في حضّهم ، وزاداً معهم في سفرهم ، فما أحوج الطالب الشابَّ الأعزل الغريب ، المُحاربَ بالمغريات من كل جانب ، مع دفع تيار المجتمع الذي يعيش فيه إلى الانسياق

والانحراط في كل شيء ا

ما أحوجه أن تُغذّي فيه العقيدة المؤمنة ، ويُذكّي فيه الخلق المسلم ،
ويُشَبِّه فيه العملُ الصالح في الجوّ الفاسد ، ويُذكّر بسيرة السلف الأبرار ،
ليحفظ نفسه بتقدير الله تعالى مما يُحيط به . فما أشدّ حاجة الشابّ المؤمن
في غربته ، إلى مثل هذا الزاد الروحي السليم ، ليتغذّي به كلّ يوم غدوةً أو
عشيّاً ، فيبقى محافظاً على شخصيته المؤمنة من أن تُذيّبها بهرجة الحضارة
الفاتنة الخلافة ، ويسلم من الردّي في مساوئ أخلاق أهلها ، التي تبدو
زيّتها ، وتُخفي ميّحتها ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

والله الكريم أسأل أن ينفع بها ، ويكتب لها القبول ، ويجعلها في كفة
الحسنات عنده ﴿ يوم لا يُخزي الله النبيّ والذين آمنوا معه ، نُورُهم يسعى
بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربّنا أتمم لنا نُورنا ، واغفر لنا ، إنك على
كل شيء قدير . يوم تَرى المؤمنين والمؤمنات يسعون نُورُهم بين أيديهم
وبأيمانهم ، بُشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ،
ذلك هو الفوز العظيم ﴾ . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وكتبه

عبد الفتاح أبو غدة

غفر الله له

١٩ / من جمادى الأولى سنة ١٣٩١

بيروت

تقريب الكتاب للطبعة الأولى من إمام من أئمة العصر العلامة
المحقق الكبير سماحة مفتي الديار المصرية السابق الشيخ
حسين محمد مخلوف ، حفظه الله تعالى ورعاه وأمتع به .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أخي وصديقي الأستاذ العلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة أدام
الله توفيقه .

وبعد فقد وصل كتابكم المبارك ، يتحمل أسمى المعاني الكريمة الصادقة ،
فجزاكم الله خيراً ولا حرمني من هذه المودة السابعة .

أما « رسالة المسترشدين » فكلما قرأتها أجدُ فيها لذةً واستمتاعاً ، وكلما
قرأتُ تعليقكم عليها أجدُهُ من الضرورة بمكان ، لكمال النفع بـ « الرسالة » ،
فلله الحمد على ما وفق وأتاح .

ومع هذا كلمةٌ جرى بها القلم ، أضعُها بين يدي « الرسالة » لتطلعوا
عليها ، فان شئتم نشرها فلكم ذلك ...

نصُ الكلمة المشار إليها :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فلإني أحمد الله تعالى إليكم ،
إذ وفقكم لنشر « رسالة المسترشدين » للإمام أبي عبد الله الحارث بن أسد
المحاسبي ، بتحقيقكم القيم الذي ألتئم فيه بما ينبيء عن غزير علمكم ودقيق

بحسبكم ، وازدانت به « الرسالة » رؤاءً وجمالاً ، وازدادت به نفعاً وكمالاً ، فجزاكم الله خير الجزاء عن العلم وأهله ، وعن هذا الإمام الجليل الذي وصفه حجة الإسلام الغزالي بأنه حَبَرُ الأُمَّة في علم المعاملة ، وله السبقُ على جميع الباحثين عن عيوب النفوس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات .

كان الإمام المحاسبي من الرعيل الأول من الصوفية الصادقين ، وكان إماماً في الحديث والفقه والكلام ، وله في علومها عِدَّةُ كتبٍ ومصنّفات ، وأكثرُها في التصوف وتهذيب النفس والزهد وآداب السلوك .

والتصوفُ الإسلامي تربيةٌ علميةٌ وعمَليةٌ للنفوس ، وعلاجٌ لأمراض القلوب ، وغَرْسٌ للفضائل ، واقتلاعٌ للذائل ، وقمعٌ للشهوات ، وتدريبٌ على الصبر والرضا والطاعات .

وهو مجاهدة للنفوس ومكابدة لتزعاتها ، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها وتُروكها ، وحفظٌ للقلوب عن طوارق الغفلات وهواجس الخطرات ، وانقطاعٌ عما يعوق السالك في سبيله إلى الله ، وزهادةٌ في كل ما يُلْهي عن ذكر الله ويعلّقُ بالقلوب سواه .

وهو معرفة لله ويقين ، وتوحيد لله وتمجيد ، وتوجهٌ إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه ، وعكوف على عبادته وطاعته ، ووقوف عند حدوده ، وتعبُدٌ بشريعته ، وتعرضٌ لنفحاته وهباته التي يَخْصُ بها أوليائه وأحبابه فضلاً منه وكرماً .

وجملةُ القول فيه قبلَ تدوينه كفنٌ إسلامي وبعده : أنه عِلْمٌ وحكمة ، وتبصرة وهداية ، وتربية وتهذيب ، وعلاج ووقاية ، وتقوى واستقامة ، وصبر وجهاد ، وفِرارٌ من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد .

وقد أشار إلى طَرَفٍ من ذلك أبو محمد الجَرِيرِي بقوله في وصفه :

إنه الدخولُ في كل خُلُقٍ سَنِيٍّ ، والخروجُ من كل خُلُقٍ دَنِيٍّ . وقوله :
التصوفُ مراقبةُ الأحوال ولزومُ الأدب .

والأدبُ — كما أشار إليه القُشَيْرِيُّ في « الرسالة » — : جِماعُ خصال
الخير . وحاصلُها : التفقه في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله عزَّ
وجلَّ من حقوق .

وعن أبي نصر السَّرَّاج : الناسُ في الأدب على ثلاث طبقات :

أما أهلُ الدنيا فأكثرُ آدابهم الفصاحة والبلاغة ، وحفظُ العلوم والمنظوم .
وأما أهلُ الدين فأكثرُ آدابهم في رياضة النفوس ، وتأديبِ الجوارح ،
وحفظِ الحدود ، وتركِ الشهوات .

وأما أهلُ الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب ،
ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود (التي بين العبد وربِّه) ، وحفظِ الوقت ،
وقلة الالتفات إلى الخواطر ، وحُسنِ الأدب في مواقف الطلبِ وأوقاتِ
الحضور ومقاماتِ القُرب . انتهى .

فالتصوفُ كما ترى : لبُّ الشريعة ورُوحُها ، وثمرتُها وحكمتُها .
وقد قال سيد الطائفة الجُنَيْد : عَلِمْنَا هذا مَقِيدٌ بالكتاب والسنة ، ومن لم
يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديثَ لا يُقْتَدَى به في هذا الأمر ، والطَّرُقُ
كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثرَ الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد اختَصَّ هذا النوعُ من العلم الشرعي في عصر التدوين — كما أشار
إليه ابن خلدون في « مقدمته » — باسم (التصوف أو عِلْمِ الحقيقة) ، كما
اختَصَّ النوعُ الآخرُ منه الخاصُّ بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات
باسم (الفِقْه أو عِلْمِ الشريعة) .

وقال بعض الصوفية في بيان ترابط هذين العِلْمين وتعاونهما في تكوين

شخصية المسلم الكامل ظاهراً وباطناً ، حَسَناً ومعنى ، مَادَّةً ورُوحاً : « حقيقة » بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة . فهما للمسلم كجناحي الطائر ، لا يَسْتَقِلُّ بأحدهما دون الآخر .

ذلك هو التصوُّفُ النقيُّ من الشوائب ، الذي لم يخالطه زَيِّغٌ ولا شطط ، ولا جهل ولا ابتداع . وهو تصوُّفُ العلماء والنُّسَّاكِ العارفين بالله ، القائمين على حدوده ، المتمسكين بشريعته ، أمثال أبي سعيد الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ ، وأبي إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخي المتوفى سنة ١١٦ ، وأبي سليمان داود بن نُصَيْرِ الطائي المتوفى سنة ١٦٥ ، وأبي علي الفضيل بن عياض الخراساني المتوفى بمكة سنة ١٨٧ ، وأبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي المتوفى ببغداد سنة ٢٠١ .

وأمثال أبي نصر بَشَرِ بن الحارث الحافي المَرْوَزِي ، ثم البغدادي المتوفى سنة ٢٢٧ ، وأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري ، صاحب هذه الرسالة « رسالة المسترشدين » ، المتوفى سنة ٢٤٣ ، وأبي الفيض ذي النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ، وأبي الحسن سَرِي بن المُغَلِّس السَّقَطِي المتوفى سنة ٢٥٧ ، وأبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ ، المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨ ، وأبي سعيد أحمد بن عيسى الحرَّاز البغدادي ، المتوفى سنة ٢٧٧ ، وأبي محمد سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي ، المتوفى سنة ٢٨٣ ، وأبي القاسم الجُنَيْد البغدادي شيخ الطائفة المقدِّم ، المتوفى سنة ٢٩٧ .

وأمثال أبي محمد رُوَيْم بن أحمد البغدادي ، المتوفى سنة ٣٠٣ ، وأبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء المتوفى سنة ٣٠٩ ، وأبي محمد أحمد بن محمد الجَرِيرِي ، المتوفى سنة ٣١١ ، وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشَيْرِي صاحب « الرسالة » المشهورة ، المتوفى سنة ٤٦٥ ، وحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، صاحب « الإحياء » المتوفى سنة ٥٠٥ .

وأمثال أبي محمد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ ، وأبي حفص

عمر بن محمد السُّهْرَوْرْدِي ، صاحب « عوارف المعارف » المتوفى سنة ٦٣٢ ،
والإمام أبي الحسن الشافلي علي بن عبد الله ، المتوفى سنة ٦٥٦ ، وأبي العباس
أحمد بن عمر المرُسي ، المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦ ، وأبي الفضل
أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندري ، المتوفى سنة ٧٠٩ ، والإمام ابن
القيِّم المتوفى سنة ٧٥١ .

وأمثال السيد عبد الله بن علوي الحدَّاد الحضرمي ، المتوفى بمضرموت
سنة ١١٣٢ ، وشمس الدين الإمام محمد بن سالم الحِمْيَري ، المتوفى بمصر
سنة ١١٨١ ، وأبي البركات أحمد الدَّرْدِيرِي العدوي المالكي المتوفى بمصر
سنة ١٢٠١ ، وغيرهم ممن لا يُحْصِيهِمُ الْعَدَّةُ ، من المتقدمين والمتأخرين من
أعلام أئمة التصوف العارفين ، في مختلف العصور رضي الله عنهم أجمعين .
وهؤلاء الأئمة وأضرابهم كلام جيد رصين ، وحِكَم شافية ، ومؤلفات
قيِّمة في الأصول والفروع ، والأعمال النفسية وأحوال القلوب وخطراتها ،
وأخطارها وعلاجها ، وفي الآداب والأذواق والمواجيد ، والأحوال النفسية
والمجاهدات ، على تشدُّد من بعضهم في السلوك وتفاوت حسب تفاوت
أقدارهم في العلم والنوق والعرفان .

وجميعهم إنما يَصْدُرُون في ذلك عن كتاب الله وهدْي النبوة ، وما
رُوي عن العارفين من أئمة الإسلام من أقوال وأعمال وأحوال .

هذا هو التصوف الصادق الذي ملأ سَمْعَ الدنيا وأَعْيُنَهَا قَبْلَ عَصْرِ
التلوين وبعده ، وهؤلاء وأمثالهم هم الصوفية حقاً ، الصادقون قولاً
وفِعْلاً ، ومنهم المحاسبي رضي الله عنه .

التصوفُ المتَّحل :

وهناك تصوف زائف انتحله قديماً فِثَامٌ من الناس ، أَشْرَبُوا تَعَالِيمَ
الباطنية الحُلُولِيَّة ، وتدنَّروا بدثار الصوفية ، اجتذاباً للعامة ، وتغريب
وخِدَاعاً وتليساً ، ودَسَّوْا في التصوف إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة في الدين

إضلالاً للمسلمين ، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء ، ويُنكرهم كل الإنكار أولئك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابهم ، ويحسبونهم أدياء في نسبهِ مُزوّرين ، وزنادقة مُلحدين .

وقد كشفَ خبيثهم ، وفندَ مزاعمهم ، وأبطلَ تصوفهم كثيرٌ من الأئمة ، ومنهم شيخ الإسلام ابنُ تيمية والإمامُ ابنُ القيم رضي الله عنهما . وهناك آخرون انتسبوا إلى الصوفية زوراً ، واتخذوها سمةً وحرقةً ، وتوارثوا فيما بينهم بدعاً وشعاراتٍ زائفة ، وتقاليد منكرة ، يَبْرأ منها التصوفُ وأعلامه من أولي العلم واليقين .

وهؤلاء كذلك أدياءُ في التصوف ، دُخلاء في الصوفية ، مبتدعون آثمون .

وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للصادقين : يجب أن لا يُحمَلوا أوزارَ أولئك الأدياء المبطلين ، وأن لا يُطلقَ القول في ذمِّ التصوف والصوفية ، بل يُعطى كلُّ فريق حقه من المدح أو الذم ، ومن التَّغْيِيب أو التحذير ، دون تعصبٍ أو تحيُّف .

وإنما أفضنا في هذا البيان لِيَتَعَرَّفَ القارىء أن الإمام المحاسبي صاحب « الرسالة » وأمثاله من الصوفية : إنما هم من أولئك الصوفية الصادقين في نهجهم وأقوالهم وعلومهم .

وفي « رسالة المحاسبي » : دليل على ما ذكرنا ، وفيها : تربية للنفوس ، وتهذيب للطباع ، وعلم صحيح لمن يطالعونها بدقة وعناية ، مع تعليقات الأستاذ المحقق ، الذي له الفضلُ في نشرِ هذا التراث العظيم وشرِّحه ، ففَعَّ الله بهما ، وأجزَلَ مثوبتهما آمين .

كتبه

القاهرة في ٣ / جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩

حسين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة الأولى :

الحمد لله وليّ كل خيرٍ وهداية ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي إلى أفضل طريقٍ وغاية ، ورضي الله عن أصحابه مصابيح الهدى والدين ، وتابعيهم السالكين نهجهم القويم بإحسان .

أما بعد : فمن أشدّ ما يحتاجه الناسُ في هذا العصر : العناية بالروح ، والفهم للدين ، والعملُ به ، وقد نهيّا هذا للسلف الصالح على الوجه الأوفى ، فطاب مجتمعهم ، وصلّح سلوكهم ، وكثر خيرهم ، وقلّ شرهم ، وكسبوا لأنفسهم في دنياهم وأخراهم خيراً .

وقد ترك أولئك السلفُ الصالحون آثارَ خيرٍ وعلمٍ تُرشدُ التائبين ، وترُدُّهم إلى الجادة إذا ضلُّوا الطريق ، فألّفوا الكتب والرسائل في فضائل الأعمال وتركيتها ، وفي إصلاح النفس وتنقيتها ، ترغيباً وترهيباً ، حتى قيل فيهم لكثرة ما قاموا به من تأليف وتصنيف ، وتحذيرٍ وتعريف : « ما ترك الأولُ للآخر » .

ومن أطيب ما تركَ الأولُ للآخر آثارُ الإمام الشيخ أبي عبد الله الحارث ابن أسد المحاسب الزاهد ، الواعظ الفقيه ، المحدث المتكلم ، الناصح الأمين ، الداعي إلى الله بقلبه وقالبه ، ولسانه وقلمه .

ولقد أوتي أبو عبد الله إخلاصاً ناصعاً ، وقلباً مُشرقاً ، وبياناً ناطقاً ، مع التقوى والخوف من الله تعالى . وهاتان الكلمتان جزلتان في النطق والسمع ، ولكنهما كانتا في قلب أبي عبد الله أوسع من الدنيا وأيقظ من الحياة ، وقد فرغ قلبُ أبي عبد الله من الدنيا فراغاً من أيقن أن ليس بينه وبين القبر إلا ساعة ، فلذلك قام يُذكّرُ الناسَ بلسانه وبيانه ، كأنه يرى الجنة ونعيمها ،

والنارَ وجحيمها ، حتى كان كما قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : « لو وجدتُ أعواناً لفرقتُهم ينادون في سائر الدنيا كلها : يا أيها الناس النارَ ! النارَ ! » .

وقد سلك أبو عبد الله - أجزل الله مثوبته - في بعض كتبه مسلك الإطناب والإسهاب حتى لم يدع زيادةً لمستزيد ، وسلك في بعضها مسلك الجزالة والإيجاز ، مكتفياً بقصير الكلام عن طويله ، وبقليله عن كثيره ، اعتماداً منه على توجهِ نفْسِ المسترشِدِ المستوصِفِ ، المستهدي المتلهِفِ .

فألّف هذه الرسالة التي سمّاها : « رسالة المسترشدين » ، وأودعها غاليّ النصح ، وأطيب الإرشاد ، وأوفى الموعدة ، وأجلى التنبيه والإيقاظ ، وأخلص القول والبيان والتوجيه ، في جُمْلٍ مكنوزة بالعلم والمعاني ، تُفهم سريعاً ، وتُقرأ سريعاً ، ولكن لا يستفيد منها قارئها تمام الفائدة إلا إذا قرأها في أناة وتدبّر تام ، جملةً جملة ، كالذي يكرّر الشيء ويتأنّى به ليحفظه ويستظهره ويتدبّره .

هذه الرسالة كانت « مخطوطة » عندي ، تيسّر لي اقتناؤها من سنوات بعيدة ، فلما قرأتها من قريب رأيتها حاويةً جامعة ، وافيةً بارشاد السالك للخير والباحث عنه . فألزمت نفسي نشرها ، وإخراجها للناس ، إشاعةً للنفع بها والاستفادة من إخلاص مؤلّفها وصلاحه ، وبالغ ورعه وعلمه ، وصديق تذكيره بالله تعالى ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

والمخطوطة التي عندي منها واضحة الخطّ ، بيّنة الكلمات ، يندُرُ فيها الغلطُ جدّاً ، وعليها آثارُ المقابلة والتصحيح في غير موطن ، تبلغ صفحاتها ٣٣ صفحة من القطع الصغير ، ولا تاريخ لكتابتها ، وقد كُتبت في زمن متأخر ، أقدر أنها كُتبت بعد الألف من الهجرة ، ولم يُذكرَ منها اسم كاتبها ، إلا أنه جاء في الصفحة الثالثة منها بخط منقوط برأس القلم نُقِطاً صغيرةً متتابعة ، تألّف منها الجملةُ التالية : « كتبها أحمد ابن الحاج إسماعيل » .

وعلمتُ أنَّ في « معهد المخطوطات العربية » بالقاهرة نسخةً مخطوطة من هذه الرسالة ، مصوّرة عن نسخة في مكتبة البلدية في الإسكندرية ورقمها فيها : (٣٠٢٤ / ١٣ . ج) ، فصوّرتها ، فإذا هي نسخة مغربية الخط ، تقع في ١٤ صفحة من القطع الصغير الناعم الكلمات المتراسة ، مضبوطة بالشكل في كثير من كلماتها ، غير أنها كنسختي لا تاريخ عليها لكتابتها ، ولا ذكرَ لاسم كاتبها أيضاً ، وقد جاء في « فهرس المخطوطات المصوّرة » لمعهد إحياء المخطوطات العربية ١ : ١٦٤ أنها « كتبت في القرن الثاني عشر » .

فقابلتُ بينها وبين نسختي بمعاونة ابن أخي الشابّ الناهض المجدّد النابه الأستاذ الشيخ عبد الستار أبو غدة ، أدام الله عليه توفيقه ، وزاده في العلم بسطة وقوة . واستفدتُ منها كثيراً في استكمال بعض الجُمْل وتصويبها ، وأشرتُ في بعض المواطن إلى المخالفات الواقعة بين النسختين في الحاشية ، وهذه النسخة عند الإشارة إليها أسميتها : النسخة المغربية . كما أسميتُ نسختي : الأصل . وإذا اتفقتا قلتُ : في الأصلين .

واستكمالاً للإفادة منها علّقتُ عليها ما يزيدُها بياناً ونفعاً ، ووضوحاً وفهماً ، وعزوتُ الآيات الكريمة إلى سورِها وموقعِها منها ، وخرّجتُ الأحاديث الشريفة ، وترجمتُ للمؤلف ترجمةً مستوفاة ، تُعرّفُ بمكانة الإمام المحاسبي الذي غُمِطَ حقّه من التعريف عند طبع كتابه : « التوهم » و « الرعاية » ، وقدّمْتُها بالإهداء إلى رُوح ابن أخي الشابّ النقي عبد الهادي أبو غدة الذي أدركه أجلُّه في ريعان شبابه وما تمَّ له عشرون ربيعاً .

اللهم عوّضْهُ من شبابه في الجنة ، واختمْ لنا وله بالحسنى وزيادة ، وتقبّلْ عملي هذا ، واجعله خالصاً لوجهك ، محفوظاً عندك ، أنفعُ به يومَ القلوم عليك ، ﴿ يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

حلب ١ / من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ وكتبه
عبد الفتاح أبو غدة

ترجمة المؤلف

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المُحاسبي ، البصري المولد ، البغدادي المنزل والوفاة ، الإمام العارف الناطق بالحكمة ، عديمُ النظر في زمانه ورعاً وعلماً ومعاملةً وحالا ، أحدُ الزهاد المتكلمين في العبادة والزهد والمواظ . وعُرف بالمُحاسبي لكثرة مُحاسبتِهِ لنفسه ، ولم يُعرف تاريخُ ولادته ، وكانت وفاته ببغداد سنة ٢٤٣ رحمه الله تعالى .

روى الحديث عن يزيد بن هارون وطبقته ، وأخذَ عن الإمام الشافعي ، كما ذكره أبو منصور البغدادي في « أصول الدين » ص ٣٠٨ . وروى عنه أبو العباس بن مسروق ، وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي ، والشيخ الإمام الجنيد ، وله معه حكايات مشهورة ، وإسماعيل بن إسحاق السراج ، وأبو علي الحسين بن خير ، وأحمد بن القاسم بن نصر ، وأحمد بن عبد الله ابن ميمون وغيرهم .

كان رحمه الله تعالى ناسكاً عابداً ، وصوفياً زاهداً ، وفقهياً ومتكلماً ، وواعظاً مُبكيّاً ، ومحدثاً راوياً ، أوتي فصاحةً لسان ، وبراعةً بيان ، ونصاعةً جنان ، حتى إذا حدثك عن الشيء ترغياً أو ترهيباً جعلك كأنك تراه رأيَ العين ، وتُحسُّ به إحساسَ المباشر له ، ولا يَنفَصِمُ عنك حديثُهُ إلا

وقد أفتنك بالحُجَّة ، وألبَسَكَ اليقينَ بما يقول ، وما يقول أبو عبد الله إلا خيراً ونُصحاً .

تَشْهَدُهُ فيما يكتبُ مستوفياً الخطرات والخلجات ، وقائماً بالندارة قيامَ صدقٍ ويقينٍ ومشاهدة ، وكثيراً ما أبْكَاك فيما ناجاك ، يتبدَّى لك إشفاقه عليك من النارِ وأهوالِها ، فيما يُؤَلِّقُكَ من نُصْحٍ ويُخْلِصُكَ من موعظة . وربما يُطِيلُ إليك النَّفْسَ في الإقناع بما يدعوك إلى فعله أو تركه ، إطالة الأب الرحيم الخائفِ الوجيلِ على ولده من شديدِ العذاب ^(١) .

ولقد كان أبو عبد الله - رحمه الله - يَسْتَنْفِدُ كُلَّ وقته في الخير ، إما تذكيراً ، وإما تأليفاً ، وإما عبادةً بين يدي الله عزَّ وجل ، حتى لا يفوت نَفْسٌ من أنفاسه إلا وقد أدَّى وظيفته من الخير والطاعة التي يرجو ثوابها عند الله تعالى .

ولذلك كَثُرَتْ تصانيفُهُ وكتبه ، نقل الشيخ تاج الدين ابن السُّبْكِي في ترجمته في « طبقات الشافعية الكبرى » ٢ : ٣٧ عن بعضهم « أنها تبلغ مائتي مصنف » . وأغلبُها في الزهد والسلوك والتصوف ، وكثيرٌ منها في أصول الدين والردَّ على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم من المخالفين ، وبعضُها في الفقه والأحكام . وكتبه - على كثرتها - كثيرة الفوائد جمَّةُ المنافع ، وخاصةً كتبه في علوم التصوف وتزكية النفس والروح تُعدُّ أصولاً لكلِّ من صنَّف فيها بعده حتى الإمام أبي حامدٍ الغزالي رضي الله عنه .

قال شيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى : لقد كان أثرُ الإمام المحاسبي على الإمام الغزالي كبيراً ، لقد تَبَطَّنَ الغزاليُّ كتابَ « الرعاية » في كتابه : « الإحياء » .

(١) تجد مصداق هذا في كتابيه : « الرعاية » و « التوهم » ، فعليك بقراءتهما ليلين قلبك وتدمع عينك ، وتدرِّك من أحوال نفسك وآخرتك ما لم تكن تعلم .

وقال العلامة المُنَاوي في ترجمة المحاسبي في « الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية » ١ : ٢١٨ : « قال التميمي : هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام . وقال غيره : له المصنّفات النافعة الجمة بحيث تبلغ نحو مائتي مؤلّف ، وناهيك بكتابه : « الرعاية » ، وكتبه في هذه العلوم أصول لمن صنّف فيها . قال في « الإحياء » : المحاسبي حَبْرُ الأُمَّة في علم المعاملة ، وله السَّبْقُ على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جديرٌ بأن يُحكى على وجهه »^(١) . وقال الحافظ ابن حجر في « نكتته على ابن الصلاح » : « والمحاسبي من أئمة الحديث والكلام » . وكان له في تدوين علمه وإنشاء تأليفه طريقة غريبة ، حكّاها الحافظ أبو نُعَيْم في ترجمته في « الحلية » ١٠ : ٧٤ فقال : « قال الجُنَيْد : كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا ويقول : اخرجُ معنا نُصْحِرِ - أي إلى الصحراء - فأقول له : تُخرجني من عُزْلتي وأُمتني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟! . فيقول : اخرجُ معي ولا خوف عليك ، فأخرج معه فكأنَّ الطريق فارغ من كل شيء ؟ لا نرى شيئاً نكرهه ، فإذا حَصَلْتُ في المكان الذي يَجْلِسُ فيه قال لي : سَلِّني . فأقول له : ما عندي سؤال أسألك ، فيقول لي : سَلِّني عما يقع في نفسك ، فتثال على السُّؤالات فأسأله عنها ، فيجيبني عنها للوقت ، ثم يمضي إلى منزله فيَعْمَلُها كتباً » .

نهض الشيخ المحاسبي في تدوين أحوال النفس وتركيتها وبيان عيوبها في وقت مبكّر : في ختام القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة ، وكان هذا العهد يزخر بالاشتغال بالحديث روايةً وحفظاً وكتابةً وارتحالاً في طلبه وتحصيله . وكان لأولئك المحدثين والرواة نظرةً ناقدةً حادةً ، لكلّ من تحوّل عن طريقتهُم . وسلك مسلکاً آخر في العلم ، فقيهاً كان أو مذكراً أو متكلماً .

(١) نقل كلام الإمام الغزالي وثناؤه على المحاسبي : الشيخ ابن عباد النفزي في « شرح الحكم » لابن عطاء الله الإسكندري ، ص ٣٢ عند قوله : « أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس » .

ولهذا لقي الشيخ أبو عبد الله المحاسبي انتقاداً شديداً من معاصريه الرواة والمحدثين ، الذين يرون العلم كل العلم رواية الحديث سنداً ومتناً لا بحثاً وفقها ، ويرون إعمال الرأي في فهم الأثر خروجاً عليه ، فاذا بلغهم عن عالم أنه تكلم في مسألة باحثاً مجتهداً ، أو متكلماً قال في صفة من صفات الله قولاً ، أو مذكراً تحدث عن حال النفس كاشفاً منقياً : ثارت لذلك حفيظتهم ، ونقموا عليه ما صنع ، وقالوا فيه ما يرونه مُلاقياً للجرح الذي اتصف به في نظرهم ^(١) ، وفي كتب الجرح والتعديل وقائع غير قليلة من هذا النمط ^(٢) .

ولذا قال الحافظ الذهبي في ترجمة المحاسبي في « ميزان الاعتدال » ١ : ١٩٩ - ٢٠٠ : « والمحاسبي العارف صاحب التواليف : صدوق في نفسه ، وقد نعموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه » . انتهى .

فلا غرابة أن نجد الحافظ أبا زرعة الرازي رحمه الله تعالى ينتقد الشيخ المحاسبي وكتبه وطريقته أشد انتقاد ، تمشياً منه مع بيئته الحديثية التي يحياها وتموج من حوله موجاً ، روى الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٨ : ٢١٥ بسنده إلى سعيد بن عمرو البرذعي قال : « شهدت أبا زرعة - وقد سُئِلَ عن الحارث المحاسبي وكتبه - فقال للسائل : إياك وهذه الكتب ! هذه

(١) في « معجم الأدباء » لياقوت في ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه ١٧ : ٢٩٩ « عن مصعب الزبيري قال : كان أبي والشافعي يتناشدان ، فأثنى الشافعي على شعر هذيل حفظاً ، وقال : لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث ، فإنهم لا يحتملون هذا ! » .

وقال التاج السبكي في « قاعدة في الجرح والتعديل » ص ٢٤ « وما ينبغي تفقده عند الجرح : الخلاف الواقع بين كثير من الصوفية وأصحاب الحديث ، فقد أوجب كلام بعضهم في بعض ، كما تكلم بعضهم في حق الحارث المحاسبي وغيره » . أي وكلام من تكلم فيه مردود لأنه بباعث المنافرة الواقعة بين المحدثين والصوفية .

(٢) انظر شواهد ذلك وأمثله في رسالتي : « مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل » .

كتبُ بدعٍ وضلالات !! عليك بالآثر ، فانك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب .

قيل له : في هذه الكتب عبرة ، قال : من لم يكن له في كتاب الله عبرةٌ ، فليس له في هذه الكتب عبرة ، بلغكم أن مالك بن أنس : وسفيان الثوري . والأوزاعي ، والأئمة المتقدمين : صنّفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء ؟ هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم — أي أهل الحديث — ، يأتونا مرةً بالحارث المحاسبي ، ومرةً بعبد الرحيم الديلمي ، ومرةً بجاتم الأصم . ومرةً بشقيق ! ثم قال : ما أسرعَ الناسَ إلى البدع ؟! . انتهى .

ويُعَلِّلُ الحافظ ابن رجب الحنبلي نهْيَ أبي زرعة وأحمد وغيرهما عن مسلك الحارث المحاسبي تعليلاً آخر غير الذي أسلفتهُ ، فيقول رحمه الله تعالى في كتابه : « جامع العلوم والحكم » ص ٢٢٣ عند حديث « استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون » : « وإنما ذمَّ أحمدُ وغيره المتكلمين على الوساوس والخطرات من الصوفية ، حيث كان كلامهم في ذلك لا يستندُ إلى دليل شرعي ، بل إلى مجرد رأي وذوق ، كما كان يُنكِرُ الكلامَ في مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأي من غير دليل شرعي » . انتهى .

وقال الحافظ ابن رجب في « المناقب » : ومن البدع التي أنكرها أحمد في القرآن : قولُ من قال : إن الله تكلم بغير صوت ، فأنكر هذا القولَ وبدعَ قائله . وقد قيل : إن الحارث المحاسبي إنما هجره أحمد لأجل ذلك ، انتهى . قال أبو العباس ابن تيمية : وهذا سببُ تحذير أحمد من الحارث المحاسبي ، فذكروا أن الحارث المحاسبي تاب من ذلك ، واشتهر علماً وفضلاً ، وحقائقاً وزهداً . انتهى من كتاب « شرح الكوكب المنير » في أصول الفقه الحنبلي ، لتقي الدين الفتوحي ، من ضميمته المتمة له ص ١٩٦ .

قال عبد الفتاح : وهذا يفيد أن انتقاد الإمام أحمد للمحاسبي ، إنما كان بسبب دخوله في مسائل من (علم الكلام) فحسب ، ويشهد لذلك ويعززه

ما قاله الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى في « تاريخ بغداد » ٨ : ٢١٤ :
« وكان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظرُهُ في (الكلام) وتصانيفه الكتب
فيه ، ويصدُّ الناس عنه » .

وما قاله الشيخ تاج الدين ابن السبكي رحمه الله تعالى في « طبقات الشافعية »
٢ : ٣٩ : « اعلم أن الإمام أحمد رضي الله عنه كان شديد النكير على من
يتكلم في علم الكلام ، خوفاً أن يجرُّ ذلك إلى ما لا ينبغي ، ولا شك أن
السكوت عنه ما لم تدعُ إليه الحاجة أولى . والكلامُ فيه عند فقْد الحاجة
بدعة ^(١) ، وكان الحارث المحاسبي قد تكلم في شيء من مسائل الكلام .
قال أبو القاسم النصر آبادي : بلغني أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب » .

قلتُ : وهذا قد يقع بين العلماء في كلِّ عصرٍ ومصر ، اجتهداً منهم في
تصحيح ما يراه أحدُهم خطأ من صاحبه ، وله بذلك أجر أو أجران . أما ما
رواه الخطيب وغيره من أن الحارث المحاسبي تكلم في شيء من علم الكلام
فهجره الإمام أحمد بسببه ، فاخفى الحارث — لتعصب العامة للإمام أحمد —
في دار ببغداد ومات فيها ، ولم يُصلَّ عليه إلا أربعة نقرٍ : فمستبعدُ ثبوته
وصحَّته ، وقد أشار إلى ذلك الحافظُ الذهبي في « الميزان » ١ : ١٩٩ فقال :
« هذه حكاية منقطعة » .

على أن التاج ابن السبكي قد قال كلمةً من أطيب الكلمات وأعدلها
حين تعرَّض لما قيل فيما جرى بين الإمام المحاسبي والإمام أحمد ، حتى لقد
جعلها الإمام عبد الحي اللكنوي قاعدةً من قواعد الجرح والتعديل ، وختَمَ
بها كتابه : « الرفع والتكميل في الجرح والتعديل » .

(١) قال المناوي في « فيض القدير » ٤ : ٤٣١ : « قال ابن عربي : علم الكلام مع شرفه لا يحتاج
إليه أكثر الناس ، بل رجل واحد يكفي منه في البلد ، بخلاف العلماء بفروع الدين فإن الناس
يحتاجون إلى الكثرة من علماء الشريعة ، ولو مات الإنسان وهو لا يعلم اصطلاح القائلين بعلم
النظر كالجواهر والعرض والجسم والجسماني والروح والروحاني : لم يسأله الله عن ذلك ، فإمّا
يسأل الناس عما وجب عليهم من التكليف بالفروع ونحوها » .

وتلك الكلمةُ قولُهُ رحمه الله تعالى في كتابه « طبقات الشافعية » ٢ : ٣٩ .
في ترجمة (المحاسبي) بعد أن ذكر التنافر بين أحمد والمحاسبي : « ينبغي لك
أيها المسترشد أن تسلك سبيلَ الأدب مع الأئمة الماضين ، وأن لا تنظرَ إلى
كلام بعضهم في بعض ، إلا إذا أتى ببرهان واضح ، ثم إن قدرتَ على
التأويل وتحسين الظن فدونك ، وإلا فاضربْ صفحاً عما جرى بينهم ،
فانك لم تخلُق لهذا ، فاشتغلْ بما يعينك ودعْ ما لا يعينك . ولا يزال طالبُ
العلم عندي نبيلاً حتى يخوضَ فيما جرى بين السلف الماضين ، ويقضيَ
لبعضهم على بعض .

فإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتَّفَقَ بين أبي حنيفة وسفيان الثوري ،
أو بين مالك وابن أبي ذئب ، أو بين أحمد بن صالح والنسائي ، أو بين
أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي ، وهلمَّ جرّاً إلى زمان الشيخ عز الدين
ابن عبد السلام والشيخ تقي الدين ابن الصلاح ، فانك إن اشتغلتَ بذلك
خشيتُ عليك الهلاك ، فالقومُ أئمةٌ أعلام ، ولأقوالهم محامِلُ ربما لم
يُفهم بعضهم ، فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوتُ عما جرى بينهم ،
كما يفعلُ فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم . انتهى .

وروى الخطيب أيضاً ٨ : ٢١٤ بسنده إلى إسماعيل بن إسحاق السراج
قال : « قال لي أحمد بن حنبل يوماً : يبلغني أن الحارث - يعني المحاسبي -
يكثرُ الكونَ عندك ، فلو أحضرته منزلك ، وأجلستني من حيث لا يراني
فأسمع كلامه ؟ فقلتُ : السمعُ والطاعة لك يا أبا عبد الله ، وسرّني هذا
الابتداءُ من أبي عبد الله ، فقصدتُ الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة ،
فقلتُ : وتساءلُ أصحابك أن يحضروا معك ، فقال : يا إسماعيل فيهم كثرة ،
فلا تزدِهم على الكُسْب - عَصَاةِ الدُّهْن - والتمر ، وأكثرِ منهما ما
استطعت ، ففعلتُ ما أمرَني به .

وانصرفْتُ إلى أبي عبد الله فأخبرته ، فحضر بعد المغرب ، وصعدَ

غرفة في الدار ، فاجتهد في ورده إلى أن فرغ ، وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا ، ثم قاموا للصلاة العتمة - العشاء - ولم يصلوا بعدها ، وقعدوا بين يدي الحارث وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل ، فابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة ، فأخذ في الكلام ، وأصحابه يستمعون كأن على رؤوسهم الطير ، فمنهم من يبكي ، ومنهم من يزعي ، وهو في كلامه .

فصعدتُ الغرفة لأتعرّف حال أبي عبد الله - أحمد بن حنبل - فوجدته قد بكى حتى غشي عليه ، فانصرفتُ إليهم ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا ، فقاموا وتفرقوا ، فصعدتُ إلى أبي عبد الله وهو متغيّرُ الحال ، فقلتُ : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما أعلمُ أنني رأيتُ مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعتُ في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، وعلى ما وقفتُ من أحوالهم فلاني لا أرى لك صحبتهم ، ثم قام وخرج . انتهى .

قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي في « طبقات الشافعية » ٢ : ٤٠ والحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٢ : ١٣٦ : « إنما ناه أحمد عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم ، فانهم في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد ، ويخاف على من يسلكه أن لا يوفيه حقه » . كذا قال ، وقد تابع ثانيهما الأول .

ونقل الإمام ابن مفلح الحنبلي في كتابه « الفروع » ٥ : ٣١٣ الجملة الأخيرة من هذا الخبر : (ما أعلمُ أنني رأيتُ مثلهم ...) ثم أتبعها ابن مفلح بقوله : « وقد نهي أحمد عن كتابة كلام منصور بن عمار ، والاستماع للقاص به ، قال أبو الحسين : لئلا يلهو أي يشغل به عن الكتاب والسنة » .

ويقول الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » في ترجمة الإمام أحمد ١٠ : ٣٣٠ بعد أن ذكر هذه الحكاية : « قال البيهقي : يُحتمل أن أحمد كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد وإن كان زاهداً فانه كان عنده شيء »

من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك . أو كرهَ أصحابهم من أجل أنه لا يطبق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع .

قلت - القائلُ ابنُ كثير - : بل إنما كرهَ ذلك لأن في كلامهم من التقشفِ وشدة السلوك التي لم يَرِد بها الشرع ، والتدقيقِ والمحاسبةِ الدقيقةِ البليغة : ما لم يأت بها أمر . ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بـ « الرعاية » قال : هذا بدعة . ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودعْ عنك هذا فإنه بدعة « انتهى .

قال عبد الفتاح : والذي أراه أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى إنما نهاه عن صحبتهم - مع أنه رآهم على خير - لأنه يرى سلوكَ طريقته التي هو عليها وأصحابه أمثلَ خيراً وأوفى هدايةً وحقاً .

هذا على فرضِ صحة هذه الحكاية ووقوعها ، إذ قد جاء فيها ما يُدْغِغ النفس شكاً في حدوثها ، ولهذا قال الحافظُ الذهبي رحمه الله عليه في « الميزان » بعد أن أوردها : « وهذه حكاية صحيحة السند ، منكراً ، لا تقع على قلبي ، أستبعد وقوعَ هذا من مثل أحمد » .

وقد تبين لك من كلام الذين أسلفتُ كلامهم ، وهم الأئمة ابن تيمية وابن رجب والخطيب البغدادي والتاج السبكي وابن كثير : أن نقد الإمام أحمد للمحاسبي إنما كان - على الصحيح من أجل تكلمه في مسائل من (علم الكلام) فقط . وأما مسلكه العبادي فلا شيء فيه ، بل قد أثنى عليه فيه الشيخ ابن تيمية وغيره من الأئمة رحمهم الله تعالى .

وعلى كل حال صحَّت الحكايةُ أو لم تصحَّ : إنها تُصوِّرُ الروح التي تَسُودُ نفوسَ أئمة ذلك العصر على من سلكَ مَسَلَكَ المحاسبي رحمه الله تعالى وإيانا .

نَعَمْ هُنَاكَ أَمْرٌ آخَرُ انْتَقِدَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمَحَاسِنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، مَكَّنَ فِيهِ نَاقِدِيهِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ إِيرَادُهُ الْأَحَادِيثَ الضَّعِيفَةَ وَبَعْضَ الْمَوْضُوعَةِ فِي كِتَابِهِ وَتَصَانِيفِهِ ، وَاعْتِمَادُهُ عَلَيْهَا وَجَعْلُهَا (أَصُولًا) يَبْنِي عَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ الْمَعَانِي وَالْأَحْكَامُ .

وَهَذَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ مَعَ إِجْلَالِهِ لَهُ ، وَاعْتِزَاظِهِ بِهِ ، وَثَنَائِهِ عَلَيْهِ أَطِيبَ الثَّنَاءِ : مَا وَسَعَهُ إِلَّا أَنْ يَنْقُدَ مِنْهُ هَذِهِ النَّاحِيَةَ حَيْثُ قَالَ فِي كِتَابِهِ : « عَارِضَةُ الْأَحْوَذِيِّ شَرَحَ سَنَنَ التِّرْمِذِيِّ » ٥ : ٢٠١ عِنْدَ شَرْحِ حَدِيثِ « الْحَلَالُ يُبَيِّنُ ، وَالْحَرَامُ يُبَيِّنُ ... » :

« وَأَجَلٌ مِنْ تَكَلَّمَ فِيهِ عَالِمُنَا وَكَبِيرُنَا : الْحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ . فَمِنْ الْأَصُولِ الَّتِي زَعَمَ : قَوْلُ عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَتْرُكَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مَا بِهِ بَأْسٌ » (١) ، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْأَخْبَارِ ، وَأَطَالَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ ، وَأَفَادَ فِيهَا أَعَادَ ، وَجَدَّدَ فِيهَا (أورد) ، لَوْلَا تَعَلُّقُهُ بِأَحَادِيثِ ضَعَافٍ وَبِنَاوَةِ الْأَصُولِ عَلَيْهَا . فَإِنْ وَقَفَ عَلَيْهَا عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ سَخِرُوا مِنْ ذَلِكَ وَهَزَتْوْا بِهِ ، مَعَ أَنَّهُ لَقِيَ أَحْبَارَ الدُّنْيَا فِي الْحَدِيثِ كَابِنَ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرِهِ .

وَالَّذِي عِنْدِي فِي ذَلِكَ — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — مَا رَوَيْنَاهُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ : يَسْتَجِيزُ لِبَيِّنِ الْحَدِيثِ فِي أَمْرِ الْوَرَعِ . وَرَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْبُخَارِيِّ الَّذِي لَمْ يَرَّ أَنْ يَتَعَلَّقَ الْقَلْبُ وَلَمْ يَرْتَبِطِ الدِّينُ إِلَّا بِالصَّحِيحِ ، وَبِهِ نَقُولُ . وَلَوْ مَلْنَا إِلَى مَذْهَبِ أَحْمَدَ فَلَا يَكُونُ التَّعَلُّقُ بِلَبَيِّنِ الْحَدِيثِ إِلَّا فِي الْمَوَاقِعِ الَّتِي تَرَقَّى الْقُلُوبُ ، فَأَمَّا فِي الْأَصُولِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ . انْتَهَى مُلَخَّصًا مُصَحَّحًا مَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفَاتٍ .

وَهَذَا الْمَأْخُذُ قَائِمٌ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ لَا يُمْكِنُ التَّفَصُّيُّ مِنْهُ ،

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي « سَنَنِ » ٥ : ٢٧٨ وَقَالَ : « حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ » .

فان هذه الرسالة « رسالة المسترشدين » على صغرها : جاء فيها طائفة من الحديث الضعيف ، وبعض الحديث الموضوع كما ستقف عليه في تخريجها .

وقد سرى تساهله هذا إلى الشيخ أبي طالب المكي في « قوت القلوب » ، وإلى الإمام أبي حامد الغزالي في « الإحياء » ، وإلى سواهما ممن ألف في التصوف وأحوال النفس .

وأما ما يورده من (الإسرائيليات) فأغلبه مما لم نؤمر بتصديقه ولا بتكذيبه ، وتجاوز حكايته للبرة والاتعاظ به .

هذا ، وللشيخ أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى نهج حسن طيب ، وهو أن تصوّفه الذي دوّنه في كتبه راعى فيه ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وأعمالهم بحسب علمه وفهمه ، وما نجد في كتبه - فيما وقفت عليه - شطحات أو شيئاً من التصوف الفلسفي ، إنما يقوم تصوّفه رحمه الله تعالى على الدعوة إلى تصحيح العلم والعمل ، ومراقبة الله تعالى ، وتركية النفس وتطهيرها من الأدراّن ، وتقريبها من رضوان الله عز وجل ، وبتعبير آخر : لم أر المحاسبي يكتب أو يتحدث إلا فيما تحته عمل ^(١) . وهذا منهج شرعي شريف ، يشكر عليه ويثاب به إن شاء الله تعالى .

أما بيان أبي عبد الله المحاسبي فهو من الطراز الأول فصاحة وسلاسة ، وجمال أداء وحسن استيفاء ، له قلم سيال وبيان أخاذ ، ولغة ناضرة في الذروة من الفصاحة والإشراق ، وله في كتابه هذا وفي كتابيه : « التوهم » و« الرعاية » جمل وقطع من الكلام ما يشبع من ترّد أدبها وسماعها ، لما حوت من دقة التصوير وجزالة اللفظ ، وأخذ القلب بمعناها والسمع بمبناها .

(١) قال الإمام مالك رضي الله عنه : « الكلام في الدين - يقصد علم الكلام وما إليه - كله أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهون القدر ورأي جهنم وكل ما أشبهه ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل ، فأما الكلام في الله فأحب إلي السكوت عن هذه الأشياء ، لأن أهل بلدنا ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل » . نقله القاضي عياض في « ترتيب المدارك » ٣ : ١٧١ من طبعة المغرب .

ولا غرابة في ذلك فقد كان أبو عبد الله في العصر الذهبي ، عاصِرَ
 الجاحظ وطبقته من فصحاء العربية وأدبائها ، كما عاصِرَ معروفًا الكرخي
 والسري السقطي وبشرًا الخافي من زهاد الأمة وصلحائها ، فلا يدعُ
 أن يكون صاحبَ قلمٍ وبَيَّانٍ ، ورُوحٍ وجَنَانٍ ، رحمة الله عليه .

طَرَفٌ من أحواله وأقواله :

من أحواله :

١ - حكى ابن ظَفَرِ المغربي في كتابه « أنباء نجباء الأبناء » ص ١٤٨
 أن الحارث المحاسبي - وهو صبي - مرَّ بصبيان يلعبون على باب رجل تَمَّارٍ ،
 فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم . وخرج صاحب الدار ومعه تَمَرَاتٌ ، فقال
 للحارث : كُلْ هذه التمرات ، قال الحارث : ما خبرك فيها ؟ قال : إني
 بعث الساعة تمرًا من رجل فسقطت من تمره ، فقال : أتعرفه ؟ قال : نعم ،
 فالتفت الحارث إلى الصبيان الذين يلعبون وقال : أهذا الشيخ مسلم ؟ قالوا
 نعم ، فمرَّ وتركه .

فتبعه التمار حتى قبضَ عليه ، فقال : والله ما تنفكتُ من يدي حتى
 تقول لي ما في نفسك مني ، فقال : يا شيخ إن كنتَ مسلمًا فاطلبُ صاحبَ
 التمرات حتى تتخلص من تباعته . كما تطلبُ الماءَ إذا كنتَ عطشانًا شديدًا
 العطش ، يا شيخ تُطعم أولادَ المسلمين السُّحْتِ - أي الحرام - وأنت مسلم ؟
 فقال الشيخ : والله لا اتجرتُ للدنيا أبدًا .

٢ - قال القُشَيْرِيُّ في « الرسالة » ص ١٥ وابنُ خَلِّكان في « الوفيات »
 ١ : ١٢٦ وابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٢ : ١٣٥ وغيرهم : قال
 الجُنَيْد : مات أبو الحارث المحاسبي يوم مات ، وإن الحارث لمحتاج إلى
 دانيقٍ فضةً ، وخلف أبوه سبعين ألفَ درهم ، فلم يأخذ منها شيئًا ، ولا

حَبَّةٌ واحدة ، لأن أباه كان يقول بالقَدَر ، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً .

٣ - حكى كلٌّ من الحافظ أبي نعيم والخطيب البغدادي والشيخ القشيري والتاج ابن السبكي وغيرهم أن الشيخ الجُنَيْد وهو تلميذُ الحارث المحاسبي قال : « كان الحارثُ كثيرَ الضَّر - سيءَ الحال شديدَ الفقر - واجتازَ بي يوماً وأنا جالسٌ على بابنا ، فرأيتُ على وجهه زيادةَ الضَّر من الجوع ! فقلتُ له : يا عمّ لو دخلتَ إلينا نِلتَ من شيءٍ عندنا ؟ قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم وتسُرُّني بذلك وتبُرُّني .

فدخلتُ بين يديه ودخل معي ، وعمدتُ إلى بيت عمي سريعاً - وكان أوسع من بيتنا ، لا يخلو من أطعمة فاخرة ، لا يكون مثلُها في بيتنا - فجئت بأنواعٍ كثيرةٍ من الطعام ، فوضعتُ بين يديه ، فمدَّ يدهُ وأخذَ لقمةً فرقعتها إلى فيه ، فرأيتُه يلوکها ولا يزدردُها - أي لا يستطيعُ بلعُها - فوثبَ وخرجَ وما كلمني !

فلما كان من الغد لقيتهُ فقلتُ : يا عمّ سررتني ثم نَعَصْتَ عليّ ! قال : يا بُنيّ أمّا الفاقةُ فكانت شديدةً ، وقد اجتهدتُ في أن أنالَ من الطعام الذي قدَّمته لي ، ولكن بيني وبين الله علامة : إذا لم يكن الطعام مَرَضِيّاً - بأن كان فيه شبهة - ارتفع إلى أنفي منه زفرةٌ فلم تقبله نفسي ، فقد رميتُ تلك اللقمة في دهليزكم وخرجتُ ! » .

زاد القشيري : « ثم قلتُ له : تدخل اليوم ؟ فقال : نعم ، فقدَّمْتُ إليه كِسْراً يابسةً كانت لنا ، فأكل وقال : « إذا قدَّمْتُ إلى فقيرٍ شيئاً فقدَّمْتُ إليه مثلَ هذا » .

٤ - حكى الشَّعْرَانِي في « الطبقات الكبرى » ١ : ٦٤ والمتناوي في « الكواكب الدُّرِيَّة » ١ : ٢١٩ عن الحارث المحاسبي نفسه قال : « عمِلْتُ كتاباً في (المعرفة) ، وأعجبتُ به ، فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسناً له ، إذ

دخل عليّ شابٌ عليه ثيابٌ رثة ، وسلّم عليّ وقال : يا أبا عبد الله هل المعرفة حقٌ للحقّ على الخلق ؟ أو حقٌ للخلق على الحق ؟ فقلتُ له : حقٌ للحق على الخلق . فقال : هو أولى أن يكشفها لمستحقها ! قلتُ : بل حق للخلق على الحق . قال : هو أعدل من أن يظلمهم ! ثم سلّم عليّ وخرج . قال الحارث : فأخذتُ الكتاب وغسلته . وقلتُ : لا أتكلّم في (المعرفة) بعدها أبداً ^(١) .

٥ - ذكر أبو نصر السراج الطوسي في كتابه : « اللّمع » ص ٤٩٥ : دخل أبو حمزة الصوفي دارَ الحارث المحاسبي . وكان للحارث دار حسنة وثياب نظاف ، وفي داره شاةٌ مرُغية . فصاحت الشاة مرُغية ، فشهِق أبو حمزة شهقةً وقال : لبيك يا سيدي ! فغضب الحارث وعمد إلى سيكّين . فقال : إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك .

٦ - حكى الأستاذ أبو القاسم القُشيري رحمه الله تعالى في ترجمة المحاسبي في « الرسالة » ص ١٥ : « قال الأستاذ أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلّموا إليهم أحوالهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجُنيد بن محمد . وأبو محمد رُويم . وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو ابن عثمان المكي . لأنهم جمّعوا بين العلم والحقائق » .

٧ - روى الخطيب في « تاريخ بغداد » ٨ : ٢١٥ وابن السبكي في « طبقات الشافعية » ٢ : ٣٨ « عن الحسين بن إسماعيل المجاملي القاضي ، قال : قال أبو بكر بن هارون المجدّر : سمعتُ جعفر بن أخي أبي ثور يقول : حضرت وفاةَ الحارث المحاسبي . فقال : إن رأيتُ ما أحبُّ تبسّمتُ إليكم ، وإن رأيتُ غيرَ ذلك تبسّمتُ في وجهي . قال : فتبسّمتُ ثم مات » . رحمه الله تعالى وأكرم مقامه .

(١) والظاهر أن هذا الكتاب قد نسخت منه نسخ قبل أن يتلف الشيخ نسخته منه ، فقد عده المترجمون له في جملة مؤلفاته ، وجاء في ترجمة بعض شيوخ محي الدين ابن العربي أنه قرأه ، كما ذكر ذلك الشيخ ابن العربي في كتابه « روح القدس في محاسبة النفس » المطبوع بدمشق سنة ١٣٨٤ ص ٧٢ . ويعرف كتاب المحاسبي هذا بـ (كتاب المعرفة) و بـ (كتاب شرح المعرفة) .

من أقواله :

- ١ - لكل شيءٍ جوهر ، وجوهرُ الإنسانُ عقله ، وجوهرُ العقل : التوفيق . وفي لفظٍ آخر : وجوهرُ العقل : الصبر .
- ٢ - خيارُ هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم .
- ٣ - حُسْنُ الخُلُقِ : احتمالُ الأذى ، وقلةُ الغضب ، وبَسْطُ الوجه ، وطيبُ الكلام .
- ٤ - من لم يشكر الله تعالى على النعمة ، فقد استدعى زوالها .
- ٥ - كلُّ زاهدٍ زُهدُه على قدر معرفته ، ومعرفةُ على قدر عقله ، وعقله على قدر قوة إيمانه .
- ٦ - الظالم نادم وإن مدحه الناس ، والمظلوم سالم وإن ذمه الناس ، والقانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك .
- ٧ - من صحَّح باطنه بالمراقبة والإخلاص ، زينَ الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة .
- ٨ - لا يصلح عبدٌ إلا أصلح الله بصلاحه سواء ، ولا يفسدُ عبدٌ إلا أفسد الله بفساده غيره .
- ٩ - صفة العبودية أن لا ترى لنفسك ملْكَ ، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً .
- ١٠ - الإخلاصُ إخراجُ الخلق من معاملة الله تعالى ، والنَّفْسُ أوَّلُ الخلق .
- ١١ - من اجتهد في باطنه ورَّثه الله حسنَ معاملة ظاهره ، ومن حسنَ معاملته في ظاهره مع جهد باطنه ورَّثه الله الهداية إليه ، لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

مؤلفاته :

للإمام المحاسبي مؤلفات كثيرة كما سبقت الإشارة إليها في ص ١٧ و ١٨ ،
والذي عُرف اسمه أو وجوده منها حتى الآن ما يلي :

- ١ - الرعاية لحقوق الله عز وجل . طبع في أوربا ثم بمصر دون تاريخ .
- ٢ - التوهم . طبع بمصر سنة ١٣٥٧ ، ثم بحلب من نحو ستين .
- ٣ - رسالة المسترشدين . وهي التي بين يديك تطبع للمرة الثانية . وقد ترجمها
عن طبعتي الأولى إلى اللغة التركية الأستاذ علي أرسلان الواعظ العام
في دائرة الإفتاء في إصطانبول ، وطُبعت هناك من سنوات قريبة .
- ٤ - رسالة الوصايا .
- ٥ - آداب النفوس .
- ٦ - شرح المعرفة .
- ٧ - بدء من أناب إلى الله تعالى .
- ٨ - المسائل في الزهد وغيره .
- ٩ - المسائل في أعمال القلوب والجوارح .
- ١٠ - المكاسب والورع والشبهة وبيان مباحها ومحظورها ، واختلاف الناس
في طلبها . والرد على الغالطين فيها .

- ١١ - ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه .
- وهذه الثمانية طبعت بالقاهرة حديثاً سنة ١٩٦٩ م وما قبلها بقليل .
- ١٢ - البعث والنشور .
- ١٣ - كتاب في الدماء .
- ١٤ - كتاب في التفكير والاعتبار .
- ١٥ - رسالة المراقبة .
- ١٦ - التنبيه على أعمال القلوب في الدلالة على وحدانية الله .
- ١٧ - كتاب العظمة .
- ١٨ - القصد والرجوع إلى الله تعالى .
- ١٩ - كتاب النصائح .
- ٢٠ - مختصر كتاب فهم الصلاة .
- ٢١ - كتاب الرضا . ذكره المحاسبي في « المسائل في أعمال القلوب » ص ١٤٧ .
- ٢٢ - فهم القرآن . نقل منه الشيخ ابن تيمية كما في « مجموع الفتاوى » له ٥ : ٥٥٧ .
- ٢٣ - فهم السنن . نقل منه السيوطي في « الإتيقان » في النوع الثامن عشر .

رحم الله المحاسبي وغفر له وأكرمهُ برضوانه الكريم

رسالة المسترشدين

للحارث المحاسب

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسب البصري

توفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ

رحمه الله تعالى

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

عبد الفيتاح أبو غدة

الطبعة الثانية مزیلة من التحقيق والتعليق

الناشر

مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب

باب الحديد - مكتبة النهضة - ت ٣٥٢٩١

دار الشريعة

للطباعة والنشر والتوزيع

حلب - ص ب ١٨٩٣ - هاتف ١٧٧٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الأولِ القديم ، الواحدِ الجليل ، الذي ليس له شبيهٌ ولا نظير ، أحمدهُ حمداً يُوافي نِعَمه وَيَبْلُغُ مَدَى نِعَمائه ^(١) .

وأشهدُ : أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، شهادةَ عالمٍ برُبوبيّته ، عارفٍ بَوحدانيّته . وأشهد : أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله ، اصطفاهُ لوحيهِ وخَتَمَ به أنبياءهُ ، وجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى جميعِ خلقِهِ ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ ^(٢) .

وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اجْتَبَى مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ : ذَوِي

(١) أي نعمته .

(٢) من سورة الأنفال : ٤٢ .

الألّباب العالمين به وبأمره ، فوصفهم بالوفاء والأخلاق
الفاضلة والخوف والخشية ، فقال عزّ وعلا : ﴿ إِنَّمَا
يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ
الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ (١) .

فمن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ ، وَوَصَلَ التَّصْدِيقُ إِلَى قَلْبِهِ ،
وَرَغِبَ فِي الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ : لَزِمَ مِنْهَا جُذُوعُ الْأَلْبَابِ بِرِعايَةِ
حُدُودِ الشَّرِيعَةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُهْتَدُونَ مِنَ الْأُئِمَّةِ .
وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ عِبَادُهُ فَقَالَ جَلَّ
وَعَزَّ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

(١) من سورة الرعد : ١٩ و ٢٠ و ٢١ . ووقع في الأصلين : (وما يذكر
إلا أولوا الألّباب ...) . وهو سهو من الناسخ .

(٢) من سورة الأنعام : ١٥٣ .

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ
الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ » (١) .

(١) هو جزء من حديث العِرْبَاضِ بن سارية السُّلَمي رضي الله عنه ،
رواه الإمام أحمد ٤ : ١٢٦ و ١٢٧ ، وأبو داود ٤ : ٢٠١ ، والترمذي ١٠ :
١٤٣ وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ١ : ١٥ ، وهو الحديث الثامن
والعشرون من « الأربعين النووية » .

وهذا نصُّ الحديث بتمامه تنويراً للمقام ، من رواية الإمام أحمد وتلميذه
الإمام أبي داود عنه :

قال العِرْبَاضُ بن سارية رضي الله عنه : صَلَّيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ الصَّبِيحَ ذَاتَ يَوْمٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونَ ،
وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ . فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مَوْدُعٍ
فَمَاذَا تَعْهَدُ لَنَا ؟

فقال : « أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ - أَيِ
وَلِنْ كَانَ الْأَمِيرُ عَبْدًا حَبَشِيًّا - . وَإِنَّهُ مِنْ يَعْشُرْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرِي اخْتِلَافًا
كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ، فَتَمَسَّكُوا بِهَا ،
وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ
بِدْعَةٌ ، وَكُلٌّ بِدْعَةٌ ضَلَالَةٌ » .

وَالنَّوَاجِدُ أَخْبَرُ الْأَضْرَاسِ . وَالْأَمْرُ بِالْعَضِّ عَلَى السُّنَّةِ بِالنَّوَاجِدِ : كِتَابَةٌ
عَنْ شِدَّةِ التَّمَسُّكِ بِهَا وَالْجِدِّ فِي لَزُومِهَا ، كَفِعْلِ مَنْ أَمْسَكَ الشَّيْءَ بِنَوَاجِدِهِ
وَعَضَّ عَلَيْهِ لَثًا يُنْزَعُ مِنْهُ .

واعلم أن فريضة كتاب الله : العمل بحُكمِهِ من الأمر والنهي ، والخوف والرجاء لوعده ووعيده ، والإيمان بمُتَشَابِهِهِ ، والاعتبارُ بِقِصَصِهِ وَأَمْثَالِهِ . فَإِذَا أَتَيْتَ بِذَلِكَ فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ ، وَمِنْ عَذَابِ الشَّكِّ إِلَى رَوْحِ الْيَقِينِ ^(١) ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ^(٢) .

(١) الرُّوحُ بفتح الراء : الراحة .

(٢) من سورة البقرة : ٢٥٧ . وهذا الكلام من الإمام أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى : يُفِيدُ أَنَّ أَمْرَ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَصَلَاحِ النَّفْسِ وَتَرْكِيبَتِهَا لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى التَّزَامِ (شيخ وبيعة) ، وَإِنَّمَا يَتَوَقَّفُ عَلَى التَّزَامِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَتَضَمَّنَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَسُلُوكُ سَلَفِ الْأُمَّةِ .

فَأَيُّ إِنْسَانٍ مُسْتَرَشِدٍ عَمِلَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَسِيرَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِينَ فَقَدْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى ، وَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى رَاشِدًا مُهْدِيًا ، إِذِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ فِي ذَاتِهِمَا هَادِيَانِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَزَكِيَانِ لِلرُّوحِ وَالنَّفْسِ أَيْمَا تَرْكِيبَةٍ . وَقَدْ جَاءَتْ بِذَلِكَ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ .

فَمِنْ الْآيَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ . وَتَرْكِيبَةُ الرُّسُولِ لِلنَّاسِ قَائِمَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى الْأَبَدِ : بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَأَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ صَلَوَاتُ

الله عليه وسلم هي الهادية المعلّمة من قبل ومن بعد، ولا تزال بحمد الله مدوّنة محفوظة .

ومن الأحاديث الشريفة قولُ الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ذكره المؤلف : « عليكم بسُنَّتِي وسُنَّةُ الخلفاء الراشدين من بعدي عَصُوا عليها بالتواجد » ، وقولُه صلى الله عليه وسلم : « تركتُ فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما : كتاب الله وسُنَّتِي » . وقولُه صلى الله عليه وسلم : « فمن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مني » . فقولُ بعضهم : « يخطيء من يظن أنه يستطيع بنفسه أن يعالج أمراضه القلبية بمجرد قراءة القرآن الكريم ، والاطلاع على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهذا لم يستطع أصحاب رسول الله أن يُطَبِّبُوا أنفسهم بمجرد قراءة القرآن ... » افتتاتٌ بحَثٍّ على الله ورسوله ، وتعطيلٌ وإلغاءٌ لكلام الله وكلام رسوله . نعوذ بالله من الحَوَرِ بعد الكَوَرِ ومن الزلل بعد الهدى .

وقد كَتَبَ الإمام الفقيه الأصولي المحدثُ النظَّارُ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي ، صاحبُ كتاب « الموافقات » و « الاعتصام » وغيرهما من الكتب النفيسة الباهرة ، المتوفى سنة ٧٩٠ ، من غرناطة قاعدة الأندلس ، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النَفْزِي خطيب جامع القَرَوِيِّين في مدينة فاس . المتوفى سنة ٧٩٢ رحمهما الله تعالى .

كَتَبَ إليه يسأله عن مسألة وقعت في غرناطة . واختلّفت فيها أنظارُ العلماء ، وكثُرَ فيها القيل والقال ، وهي : هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ - لزماً - شيخَ طريقةٍ وتربيةٍ يسلك على يديه ؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخُ طريقة ؟

فكتب إليه الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى كتاباً العالم المنصف المخلص ، فقال له ما خلاصته : كما في كتابه « الرسائل الصغرى » ص ١٠٦ وما بعدها =

=وص ١٢٥ وما بعدها « الشيخ المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين : شيخُ تعليم وتربية ، وشيخُ تعليم بلا تربية .

فشيخُ التربية ليس بضروري لكل سالك ، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادةُ ذهن واستعصاءُ نفس . وأما من كان وافرَ العقل منقادَ النفس ، فليس بـلازم في حقّه ، وتقيّدُه به من بابِ الأولى . وأما شيخُ التعليم فهو لازم لكل سالك . أما كونُ شيخُ التربية لازماً لمن ذكرناه من السالكين فظاهر ، لأن حُجُبَ أنفسهم كثيفة جداً ، ولا يَسْتَقِلُّ برفعها وإماطتها إلا الشيخُ المربي ، وهم بمنزلة من به عِلَلٌ مُزْمِنَةٌ ، وأدواءُ مُعْضِلَةٍ من مَرَضِ الأبدان ، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة .

وأما عدمُ لزوم الشيخ المربي لمن كان وافرَ العقل منقادَ النفس ، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يُغْنِيَانِهِ عَنْهُ ، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخُ التعليم ما لا يستقيم لغيره . وهو واصلٌ باذن الله تعالى ، ولا يُخَافُ عليه ضررٌ يقع له في طريق السلوك إذا قصدَه من وجهه ، وأتاه من بابه .

واعتمادُ شيخُ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية ، واعتمادُ شيخُ التعليم هو طريق الأوائل منهم . ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفّيهم ، كالحارث المحاسبي ، وأبي طالب المكي ، وغيرهما ، من قبيل أنهم لم ينصوا على شيخُ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين ، مع أنهم ذكروا أصولَ علوم القوم وفروعها ، وسوابقها ولواحقها ، لا سيما الشيخ أبو طالب ، فعَدَمُ ذكرهم له دليلٌ على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك .

وهذه هي الطريقة السابِلة - أي المسلوكة - التي انتهجها أكثرُ السالكين ، وهي أشبه بحال السَلَفِ الأقدمين ، إذ لم يُنْقَلْ عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية ، وتقيّدوا بهم ، والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين ، وإنما كان حالهم اقتباسَ العلوم ، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم =

وإنما يُمَيِّزُ ذلكَ وَيَرْغَبُ فيه أَهْلُ الْعَقْلِ عَنِ اللَّهِ ^(١) ،
الَّذِينَ عَمِلُوا فِي إِحْكَامِ الظَّاهِرِ ، وَتَنْزَهُوا عَنِ الشُّبْهِ ،
قال رسول الله ﷺ : « الْحَلَالُ بَيْنٌ ^(٢) ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ ، وَبَيْنَ

=لبعض . ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيدٌ عظيمٌ يجدون أثره في بواطنهم
وظواهرهم ، ولذلك جالوا في البلاد ، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعباد .

وأما كتبُ أهلِ التصوف فهي راجعة إلى شيخِ التعليم ، لأن الاستفادة
منها لا تصح إلا باعتقاد الناظر فيها أن مؤلفها من أهل العلم والمعرفة ، ومن
يصح الاقتداء به .

ولا يحصل هذا الاعتقاد إلا من قبل شيخٍ معتمد عليه عنده أو من طريق
يثق به ، فإن كان ما يستفیده منها يبيّن موافقاً لظاهر الشرع موافقةً بيّنةً اكتفى
بذلك ، وإلا فلا بد له من مراجعة شيخٍ - أي من شيوخ التعليم - يبينه له ،
فالشيخ لا يد منه . انتهى .

(١) أي أهلُ الفهم عن الله تعالى .

(٢) قال الإمام الغزالي : « يظنُّ الجاهل أنَّ الحلالَ مفقود ، وأنَّ السبيلَ للوصول
إليه مسدود ، حتى لم يبق من الطيب إلا الماء الفُرَات ، والحشيشُ النَّابِتُ في
المَوَات ، وما عداه فقد أُخْبِتَتْهُ الأيدي العاديّة ، وأفسدَتْهُ المعاملةُ الفاسدة !
وليس كذلك ، بل قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « الْحَلَالُ بَيْنٌ ،
وَالْحَرَامُ بَيْنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ » . ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات ،
كيفما تقلبت الحالات ، وإنما الذي فُقد : العلمُ بالحلال ، وبكيفية الوصول
إليه ! » . انتهى من « الإحياء » للغزالي ٥ : ٢٠ و « فيض القدير » للمناوي
٣ : ٤٢٤ - ٤٢٥ .

قلت : نعم ما تزال هذه الثلاثة موجودة ، ولكن يقل الحرام أو يكثر ،
وفي زماننا قد كثر الحرام لضعف الدين ، وقلة الفقه فيه ، ولانتشار الربا وغيره من
المعاملات المحرمة في غالب معاملات الناس ، فالله المستعان .

ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ^(١) . تَرَكُهَا خَيْرٌ مِنْ أَخْذِهَا .

(١) هو بعضُ حديثِ رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي وغيرهم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه . واللفظ المذكور عند الترمذي . وجملته « تَرَكُهَا خَيْرٌ مِنْ أَخْذِهَا » ظاهرُ سياق المؤلف أنها من تمام الحديث ، ولكني لم أقف عليها في شيء من طرق الحديث ورواياته على كثرة ما تتبعتها ، فلهذا جعلتها خارج الهلالين ، والله أعلم .

وتمامُ رواية الترمذي : « ... وَبَيَّنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، لَا يَدْرِي كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَمِنْ الْحَلَالِ هِيَ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ ، فَمَنْ تَرَكَهَا اسْتِبْرَاءً لِدِينِهِ وَعِزِّضَهُ فَقَدْ سَلِمَ ، وَمَنْ وَاقَعَ شَيْئاً مِنْهَا يُوشِكُ أَنْ يُوَاقَعَ الْحَرَامَ ، كَمَا أَنَّهُ مِنْ يَرْعَى حَوْلَ الْحَمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ . أَلَا وَإِنْ لِكُلِّ مَلِكٍ حَمَى ، أَلَا وَإِنْ حَمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ » . أى معاصيه . زاد البخاري ومسلم في روايتهما : « أَلَا وَإِنْ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » .

قال العلامة زين الدين ابنُ المُنِيرِ في شرحه على « صحيح البخاري » عند رواية البخاري : « وَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّبَهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ » : إِنَّ شَيْخَهُ الْقُدُوءَ الزَّاهِدَ الشَّيْخَ أَبَا الْقَاسِمِ بْنِ مَنْصُورِ الْقَبَّارِيِّ الإسْكَدَرَانِيَّ كَانَ يَقُولُ : الْمُبَاحُ : عَقَبَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْمَكْرُوهِ ، فَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنَ الْمُبَاحِ تَطَرَّقَ إِلَى الْمَكْرُوهِ ! وَالْمَكْرُوهُ عَقَبَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْحَرَامِ ، فَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنَ الْمَكْرُوهِ تَطَرَّقَ إِلَى الْحَرَامِ !

قال الحافظ ابن حجر بعد نقله في « فتح الباري » - ١ : ١١٨ : « وَهُوَ مَتَزَعٌ حَسَنٌ ، وَيُؤَيِّدُهُ رَوَايَةُ ابْنِ حَبَّانٍ مِنْ طَرِيقٍ ذَكَرَ مُسْلِمٌ إِسْنَادَهَا وَلَمْ يَسُقْ لَفْظَهَا ، فِيهَا مِنَ الزِّيَادَةِ : « اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ ، =

.

= من فَعَلَ ذلك استَبْرَأَ لعِرضه ودينه، ومن أَرْتَعَ فيه كان كالمُرتِع إلى جَنْبِ الحمى يوشك أن يقع فيه .

ثم قال الحافظُ ابن حجر : « ومعنى الحديث : أنَّ الحلال حيث يُخشى أن يؤول فعله مطلقاً إلى مكروه أو محرّم ينبغي اجتنابه ، كالإكثار مثلاً من الطيبات فإنه يُحَوِّج إلى كثرة الاكتساب الموقع في أخذ ما لا يستحق ، أو يُفْضِي إلى بَطْرِ النفس ، وأقلُّ ما فيه الاشتغالُ عن مواقف العبودية ، وهذا معلوم بالعادة مشاهد بالعيان . ويختلفُ ذلك باختلاف الناس :

فالعالمُ الفَظِينُ ، لا يَخْفَى عليه تمييزُ الحكم، فلا يقع له ذلك إلا في الاستكثار من المباح أو المكروه كما تقرر قبل .

ومن دُونه : تقع له الشبهة في جميع ما ذُكِرَ بحسب اختلاف الأحوال .

ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصيرُ فيه جرأة على ارتكاب المنهي عنه في الحملة ، أو يحتملُه اعتياده ارتكابَ المنهي عنه غير المحرّم على ارتكاب المنهي عنه المحرّم إذا كان من جنسه ، أو يكون ذلك لشبهة وهو أن من تعاطى ما ينهى عنه يصيرُ مُظْلِمَ القلب لفقدان نور الورع ! فيقع في الحرام ولو لم يختَر الوقوع فيه ! » .

وقال العلامة القسطلاني في « إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري » عند هذا الحديث ١ : ١٩١ : « بالله عليك ما لم تعلم حِلّه يقيناً : اتركه ، كتركه ﷺ تمرّة خشية أن تكون من تمر الصدقة ، وأعلى الورع تركُ الحلال مخافة الحرام ، كترك إبراهيم بن أدهم أجرته لشكه في وفاء عمله ، وطوى عن جوعٍ شديد .

وقالت أختُ بيشرٍ الحافي لأحمد بن حنبل : إنا نَغْزِلُ على سطوحنا فيَمُرُّ بنا مَشَاعِلُ الظاهرية-الحَرَس-ويقع الشَّعَاعُ علينا أفيجوز لنا =

.

= الغَزْلُ في شُعاعها ؟ فقال : مَنْ أَنْتَ عافاك الله ؟ قالت : أختُ بشر الحافي ، فبكى وقال : من بيتكم يَخْرُجُ الورعُ الصادق ، لا تغزلي في شُعاعها .

وأقامت السيدة بدیعة الإيجية من أهل عصرنا هذا - القرن العاشر - بمكة أكثر من ثلاثين سنة لم تأكل من اللحوم والثمار وغيرها المجلوبة من (بَجِيلَة) لما قيل : إنهم لا يُورثون البنات . وامتنع أبوها نور الدين من تناول ثمر المدينة لما ذُكِرَ أنهم لا يزكون . ومن ترخصَ ندم ، والأورعُ أسرعُ على الصراط يوم القيامة » انتهى .

وحكى الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٥ : ١٥ في ترجمة الحافظ ابن عُقْدَةَ أَنَّ « والده محمد بن سعيد المُلقَّب بعُقْدَةَ ، وكان ورعاً ناسكاً : سقطتُ منه دنائيرُ على باب دار أبي ذرَّ الخزَّاز ، فجاء بنخال ليطلبها ، قال عُقْدَةُ : فوجدتها ، ثم فكرتُ فقلت : ليس في الدنيا غيرُ دنائيرك ؟ ! فقلتُ للنخال : هي في ذمتك ، ومضيتُ وتركته » .

وحصلَ مثلُ هذا للإمام أبي إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في عصره صاحب « المَهْدَب في المذهب » ، وكان على خشونة شديدة من الفقر والإملاق ، وفي غاية من الورع والصلاح ، دخل المسجد يوماً ليأكل فيه شيئاً فنسي ديناراً ! فذكره في الطريق فرجع ، فلما وجدته تركه ولم يمسه ، وقال : ربما وقع من غيري ولا يكون دينار . ذكره النووي في « تهذيب الأسماء » ٢ : ١٧٣ .

وانظر باب الورع في « الرسالة القشيرية » تقف على العجائب المُشرقة المدهشة . وللإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : « كتاب الورع » ، وهو كتاب نفيس فيه الآيات البينات من ورع السلف ، يُخَيَّلُ لقارئه أن الإمام أحمد دخلَ الجنةَ ثم جعلَ يتحدثُ عن أخلاق أهلها . فعليك بمطالعتة فانك منتفع به ولا ريب .

فافحص عن النية ^(١) ، واعرف الإرادة ، فإن المجازاة :
 بالنية ^(٢) ، قال رسول الله ﷺ « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ،
 وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى » ^(٣) .

(١) النية : قصد القلب للشيء وعزمه على فعله أو تركه . قال الشيخ
 ابن القيم رحمه الله تعالى في « إعلام الموقعين » ٤ : ١٩٩ : « هي رأس الأمر
 وعموده ، وأساسه وأصله الذي يُبنى عليه ، فانها روح العمل ، وقائده
 وسائقه ، والعمل تابع لها يُبنى عليها ، يصح بصحتها ، ويفسد بفسادها ،
 وبها يُستجلب التوفيق ، وبعدمها يحصل الخذلان ، وبحسبها تتفاوت الدرجات
 في الدنيا والآخرة » .

(٢) قلت : وهذا من أكبر نعم الله تعالى على العبد المسلم ، فانه - إذا
 يُجازى بنيته - يستطيع أن يكثر من نيات الخير الذي يرضي الله تعالى ،
 ويدخر بذلك ثواباً حسناً على عملٍ صالحٍ لم يعمله ، ولكن نواه وكان يعتزم
 تنفيذه لو تمكن منه . ولهذا قال أبو صفوان - أحد السلف - : « ما ضعف
 بدن قط عن نية » . كما في « الحلية » لأبي نعيم ٧ : ٥٤ . وقال إبراهيم النخعي :
 لم يكن عبد الرحمن بن يزيد النخعي - هو أحد التابعين - يعمل شيئاً إلا بنية ،
 حتى إنه كان يشرب الماء بنية . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١ : ٧٣ .
 وكذلك النية السيئة : يُحاسبُ ناوئها بها ، ويُعاقبُ على همِّه
 بتنفيذها ولو لم يفعل ما عزم عليه من سوء ، إذا كان قد تركها لغير الله تعالى :
 لنحو عجزٍ أو حياءٍ أو رهبةٍ من الناس أو فقدانِهِ الوسيلةِ إليها .

فأجلِصَّ لله تعالى النية ، وأحسن الطوية ، وتلقَّ ثوابَ ربِّ البرية .

(٣) رواه البخاري ومسلم في « صحيحهما » من حديث عمر بن الخطاب
 رضي الله عنه . ولفظُ (إنما) ساقطٌ من الأصل في الجملة الثانية . كما سقط من =

والزم تقوى الله ، فَإِنَّ « الْمُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالْمُؤْمِنَ مَنْ أَمِنَ النَّاسُ بِوَأَثِقِهِ » (١) . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اتَّقِ اللَّهَ بطاعته ، وَأَطِعِ اللَّهَ بتقواه ، وَلَتَخَفُ يَدَاكَ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَطْنُكَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَلِسَانُكَ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ .
وَحَاسِبْ نَفْسَكَ فِي كُلِّ خَطَرَةٍ (٢) .

= الجملتين في النسخة المغربية .

وللسلف في فحص النية وتخليصها من الشوائب أقوال كثيرة ، قال يوسف بن أسباط : تخليصُ النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد . وقال سفيان الثوري : ما عالجْتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نيتي ! لأنها تنقلبُ عليَّ ! وقيل لنافع بن جبير : ألا تشهدُ الجنازة ؟ قال : كما أنتَ حتى أنوي ، ففكَّرَ هُنَيْهَةً ثم قال : امض . نقله الحافظ ابن رجب في « جامع العلوم والحكم » ص ٩ عن « كتاب الإخلاص والنية » لابن أبي الدنيا .

(١) البوائق جمعُ بائقة ، وهي الشرُّ والمصيبة . والكلام المذكور : حديث شريف رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ ، ولفظُ الحديث عند الإمام أحمد والنسائي والترمذي والحاكم في « المستدرک » وابن حبان في « صحيحه » : « المسلمُ : مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويَدِهِ ، والمؤمنُ : مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ على دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » ، كما في « الجامع الصغير » . وقال شارحه المناوي في « فيض القدير » ٦ : ٢٧٠ : « جاء في رواية الحاكم زيادةٌ وهي : والمجاهدُ : مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، والمهاجرُ : مَنْ هَجَرَ الخطايا والذنوب » .

(٢) للشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلامٌ في الخطرة والفكرة وما =

.

=إليهما في غاية الدقة والنفاسة، ما أصدقَه وما أحقَه؟! كأنه خرج من مشكاة النبوة، وأنا ناقله لك - على طوله - راجياً منك أن تتدبره ففيه الخير لك في دينك ودنياك. قال رحمه الله تعالى في كتابه: «الفوائد» ص ٣١ و ١٧٣ - ١٧٤ من الطبعة المطبوعة بمصر سنة ١٣٤٤:

«دافع الخطرة، فان لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فان لم تفعل صارت عزيمة وهمية، فان لم تدافعها صارت فعلاً، فان لم تتداركه بضده صار عادة! فيصعبُ عليك الانتقالُ عنها!!

واعلم أن مبدأ كل علم اختياري هو الخواطر والأفكار، فانها تُوجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل. وكثرة تكراره تُعطي العادة. فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها.

فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبةً لوليها وإلهها، صاعدةً إليه، دائرة على مرّضاته ومحابته، فانه سبحانه به كلُّ صلاح، ومِنْ عنده كلُّ هدى، ومِنْ توفيقه كلُّ رشد، ومِنْ تولّيه لعبده كلُّ حفظ. ومِنْ تولّي العبدِ وإعراضه عنه كلُّ ضلالٍ وشقاء!

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادةً. فردّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوّتها وتمامها.

ومعلوم أن الإنسان لم يُعط إمامة الخواطر، ولا القوّة على قطعها، فانها تهجمُ عليه هجوم النفس، إلا أن قوّة الإيمان والعقل تُعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومُسَاكنته له، وعلى دَفْعِ أقبحها وكرامته له =

وراقب الله في كل نفسٍ . قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا
أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ،
وتزينوا للعرض الأكبر^(١) يوم لا تخفى منكم خافية^(٢) .

= ونفرتة منه .

وقد خلق الله سبحانه النفسَ شبيهةً بالرحى الدائرة التي لا تسكنُ
ولا بدَّ لها من شيء تطحنه . فان وُضِعَ فيها حب طحنته ، وإن وضع
فيها ترابٌ أو حصي طحنته !

فالأفكارُ والخواطرُ التي تجولُ في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضعُ
في الرحى ، ولا تبقى تلك الرحى مُعطلةً قط ، بل لا بدَّ لها من شيء
يوضعُ فيها ، فمن الناس من تطحنُ رحاهُ حباً يخرجُ دقيقاً ينفعُ
به نفسه وغيره ، وأكثرهم يطحنُ رملاً وحصيً وتبيناً ونحو ذلك !
فاذا جاء وقتُ العجنِ والخبزِ تبينَ له حقيقة طحينه !! .

(١) أي استعدوا وتمهثوا .

(٢) علق الترمذي في « سننه » ٩ : ٢٨٢ في أبواب صفة القيامة كلمةَ
عمر هذه بلفظ : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتزينوا للعرضِ
الأكبر ، وإنما يخفُ الحسابُ يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا » .
ثم قال الترمذي : « ويروى عن ميمون بن مهران قال : لا يكون العبدُ تقياً
حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه ؟ » .

وقال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه : — كما في « الحلية » لأبي نعيم
٢ : ١٥٧ و « البداية والنهاية » لابن كثير ٩ : ٢٧٢ — « إن المؤمن قوام على
نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل . وإنما خف الحسابُ يوم القيامة على =

وَحَفِيَ اللَّهُ فِي دِينِكَ ، وَأَرْجُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ،
وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَا تَخَفْ
إِلَّا ذَنْبَكَ ، وَلَا تَرْجُ إِلَّا رَبَّكَ ، وَلَا يَسْتَحْيِ الَّذِي لَا
يَعْلَمُ أَنْ يَسْأَلَ حَتَّى يَعْلَمَ ، وَلَا يَسْتَحْيِ مَنْ يُسْأَلُ عَمَّا لَا
يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ : لَا أَعْلَمُ .^(١)

= قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم
أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

إن المؤمن يفجأه الشيء يعجبه ، فيقول : والله إني لأشتهيك ، وإنك لمن
حاجتي ، ولكن والله ما من صلة إليك - يعني لا يتناولها لشك منه في حله -
هيات حيلَ بيني وبينك . ويفرط منه الشيء - أي يقع منه ما لا يحبُّ
وقوعه - فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردتُ إلى هذا ! ما لي ولهذا ؟ ! والله ما لي
عذر بها ! والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله . إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى
في فكاك رقبتَه ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه
في سمعه وبصره ولسانه ، وفي جوارحه كلها .

وقال المناوي في « فيض القدير » ٥ : ٦٧ : « قال الشيخ ابن عربي
كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ، ويُقيّدونه في
دفتر ، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسهم ، وأحضروا دفتريهم ، ونظروا فيما
صدرَ منهم من قول وعمل ، وقابلوا كُلاً بما يستحقه ، إن استحقَّ استغفاراً
استغفروا ، أو التوبةَ تابوا ، أو شكراً شكروا ثم ينامون ، فزدنا عليهم في هذا
الباب : الخواطر ، فكنا نُقيّد ما نُحدث به نفوسنا ونهملُ به ، ونُحاسبُها عليه . »

(١) روى ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » ٥٥ : ٢ عن بعض =

وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ^(١) ، فَإِذَا قُطِعَ الرَّأْسُ ذَهَبَ الْجَسَدُ . وَإِذَا سَمِعْتَ كَلِمَةً تُغْضِبُكَ فِي عِرْضِكَ فَاعْفُ وَاصْفَحْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِزِّ الْأُمُورِ . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ خَافَ اللَّهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظُهُ ، وَمَنْ اتَّقَاهُ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ ، وَلَوْلَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرَ مَا تَرَوْنَ .

وَرَأَى هَمَّكَ ، وَاشْتَغَلَ بِإِضْلَاحِ نَفْسِكَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِكَ ^(٢) ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : كَفَى بِالْمَرْءِ عَيْباً أَنْ يَسْتَبِينَ لَهُ

= أهل العلم قال « تعلم : لا أدري ، ولا تعلم أدري ، فانك إن قلت : لا أدري ، علموك حتى تدري ، وإن قلت : أدري سألوكم حتى لا تدري ! » . وذكره ابن القيم في « إعلام الموقعين » ٤ : ٢١٨ .

(١) يروى من حديث أنس عن النبي ﷺ وهو حديث ضعيف ، ويروى من كلام سيدنا علي موقوفاً عليه ، كما في « الجامع الصغير » للسيوطي . وفيه من تمة قول سيدنا علي : « فإذا قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الْجَسَدُ » .

(٢) قال سفيان بن حسين الواسطي : ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية المزني قاضي البصرة ، - وهو تابعي يضرب المثلُ بذكائه - فنظر في وجهي وقال : أغزوت الروم ؟ قلت : لا ! قال : السند والهند والترك ؟ قلت : لا ! قال : أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ، ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ قال سفيان : فلم أعد بعد ها - يعني إلى عيب أحد من الناس أو غيبته - . نقله الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » في ترجمة (إياس) =

من النَّاسِ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ ^(١) ، أَوْ يَمُوتَ النَّاسُ
فِيمَا يَأْتِي مِثْلَهُ ، أَوْ يُؤْذِي جَلِيسَهُ ، أَوْ يَقُولَ فِي النَّاسِ مَا
لَا يَعْنيه .

وَاسْتَعْمِلْ لِلَّهِ عَقْلَكَ بِتَرْكِ التَّدْبِيرِ ^(٢) ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ
عَلَى صَرْفِ الْمَقَادِيرِ . قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا ابْنَ آدَمَ !
لَا تَفْرَحْ بِالْغِنَى ، وَلَا تَقْنَطْ بِالْفَقْرِ ، وَلَا تَحْزَنْ بِالْبَلَاءِ ^(٣) ،

= ٣٣٦ : ٩ .

وجاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض رحمه الله تعالى . في ترجمة
(الإمام ابن وهب) : عبد الله بن وهب القرشي المصري . الإمام المحدث الفقيه
العابد الزاهد . صاحب الإمام مالك والليث والثوري وغيرهم . المتوفى بمصر سنة
١٩٧ رحمه الله تعالى ، جاء فيه ٣ : ٢٤٠ « قال ابن وهب : جعلتُ على
نفسي كلما اغتبتُ إنساناً صيامَ يوم . فهان عليَّ . فجعلتُ عليها كلما
اغتبتُ إنساناً صدقةَ درهم ، فثقلتُ عليَّ وتركْتُ الغيبة » .

(١) يَسْتَبِينُ لَهُ أَي يَظْهَرُ .

(٢) أَي لَا تَعْتَمِدْ عَلَى تَدْبِيرِ عَقْلِكَ كُلِّ اعْتِمَادٍ . فَلِلْعَقْلِ حَدُودٌ يَنْتَهِي
بَصَرُ الْعَقْلِ عِنْدَهَا ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ التَّسْلِيمُ لِلَّهِ فِي تَدْبِيرِهِ مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي
أَمَرَكَ بِهَا ، ثُمَّ تَفَوِّضُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي عَاقِبَةِ مَا يَقْدَرُهُ لَكَ مِنْ عَطَاءٍ أَوْ
حِرْمَانٍ . فَإِنَّهُ أَرْحَمُ بِكَ مِنْ نَفْسِكَ . وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ وَيَضُرُّكَ . وَقَدْ قَالَ
فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

(٣) قَالَ سَيِّدُنَا عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا أَبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ ، =

وَلَا تَفْرَحْ بِالرِّخَاءِ ، فَإِنَّ الذَّهَبَ يُجَرَّبُ بِالنَّارِ^(١) ، وَإِنَّ
العَبْدَ الصَّالِحَ يُجَرَّبُ بِالْبَلَاءِ^(٢) ، وَإِنَّكَ لَا تَنَالُ مَا تُرِيدُ

=أعلى ما أحبُّ أم على ما أكره ؟ ذلك لأنني لا أدري الخيرَ فيما أحبُّ أو فيما أكره . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١ : ١٤٩ . ووقع في الأصلين من « رسالة المسترشدين » : (ولا تحزن في البلاد) . وهو تحريف .

(١) قال العلامة الفيروز آبادي صاحب « القاموس » في كتابه « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ٢ : ٢٧٤ « اختبارُ الله تعالى لعباده تارةً بالمسارِّ ليشكروا ، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا ، فصارت المنحةُ والمحنةُ جميعاً بلاءً . فالمنحةُ مقتضيةٌ للصبر ، والمنحةُ مقتضيةٌ للشكر ، والقيامُ بحقوق الصبر أيسرُ من القيامِ بحقوقِ الشكر ، فصارت المنحةُ أعظمَ البلاءين ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه : بُلِينَا بِالضَّرَاءِ فَصَبَرْنَا ، وَبُلِينَا بِالسَّرَّاءِ فَلَمْ نَصْبِر . وقال علي رضي الله عنه : مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي دُنْيَاهُ فَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ مُكْرَبَ بِهِ فَهُوَ مُخْدَوِعٌ عَنْ عَقْلِهِ . وقال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

(٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إِنْ اللَّهُ لَيُجَرَّبُ أَحَدُكُمْ بِالْبَلَاءِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ ، كَمَا يُجَرَّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ ، فَذَلِكَ الَّذِي نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ دُونَ ذَلِكَ ، فَذَلِكَ الَّذِي يَشْكُ بَعْضُ الشُّكِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْأَسْوَدِ ، فَذَلِكَ الَّذِي قَدْ افْتَنَّ . رواه الحاكم في « المستدرک » ٤ : ٣١٤ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وأقره الذهبي على صحته فقال : صحيح .

قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى في « الفوائد » ص ٣٢ : « من خلقه =

إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهِي ، وَلَنْ تَبْلُغَ مَا تُؤْمَلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ ، وَابْذُلْ جُهِدَكَ لِرِعَايَةِ مَا افْتَرَضَ عَلَيْكَ .

وَارْضَ بِمَا أَرَادَكَ اللَّهُ بِهِ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ ، وَاجْتَنِبْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ تَكُنْ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ ، وَأَدِّ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ تَكُنْ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ ^(١) .

=الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره، ومن خلقه الله للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات « .

(١) قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى في « إعلام الموقعين » ٢ : ١٥٧ - ١٥٨ : « لله سبحانه على كل أحد عبوديةٌ بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التي سوى بين عبادته فيها :

فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ﷺ ما ليس على الجاهل ، وعليه عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره .

وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي .

وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير .

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز فيهما .

.

= وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقالت له امرأة : هذا واجب قد وُضِعَ عنا - تعني : معشر النساء - فقال : هَبْبي أنه قد وُضِعَ عنكنَّ سلاحُ اليد واللسان ، فلم يُوَضَّعْ عنكنَّ سلاحُ القلب ، فقالت : صدقتَ جزاك الله خيراً .

وقد غرَّ إبليسُ كثيراً من الخلق بأنَّ حَسَنَ لهم القيامَ بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ! وعطلوا هذه العبوديات فلم يُحَدِّثُوا قلوبَهُم بالقيام بها ، وهؤلاء عند وَرَثَةِ الأنبياء - أي العلماء الصادقين - ممن لا غِنَاءَ فيهم للدين ! فإنَّ الدين هو القيامُ لله بما أَمَرَ به . فتاركُ حقوقِ الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكبِ المعاصي .

ومن له خبرةٌ بما بَعَثَ الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه : رأى أن أكثر من يُشارُ إليهم بالدين - أي من أولئك المتزهدين المنقطعين هم أقلُّ الناس نصرةً لدين الله ، والله المستعان .

وأيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يَرى محارمَ الله تُنتَهَك ، وحدوده تُضَاع ، ودينه يُتْرَك ، وسُنَّةَ رسوله ﷺ يُرْغَبُ عنها ، وهو باردُ القلب ساكتُ اللسان شيطانٌ أخرس !؟

وهل بليَّةُ الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سَلِمَتْ لهم مآكلُهُم ورياستُهُم فلا مبالاة لهم بما جَرَى على الدين ! وخيارُهُم المتَحَرِّضُ المتبَاكِى ! ولو نُوزِعَ في بعض ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهه أو ماله بذلَّ وتبذَّل ، وجهدَ واجتهد ، واستعمل مراتبَ الإنكار الثلاثة بحسب وسعه ! وهؤلاء - مع سقوطهم من عين الله ، ومَقَّتِ الله لهم - قد بُلُّوا في الدنيا بأعظمِ بليَّةٍ تكونُ وهم لا يشعرون ، وهي موتُ القلوب ! فإنَّ القلبَ كلما كانت حياته أتمَّ كان غضبهُ لله ورسوله أقوى ، وانتصارُهُ للدين أكمل . =

وَلَا تَشْكُ مَنْ هُوَ أَرْحَمُ بِكَ إِلَى مَنْ لَا يَرْحَمُكَ ، وَاسْتَعِزْ
بِاللَّهِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ خَاصَّتِهِ . قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَظْهَرَ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ
الْغِنَى ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعِ وَطَلَبَ الْحَاجَاتِ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ ،
وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودَعٍ ^(١) .

= وقد ذَكَرَ الإمام أحمد وغيره أثراً أنَّ الله سبحانه أوحى إلى مَلَكٍ من
الملائكة أن اخسف بقريّة كذا وكذا ، فقال : يا رب كيف وفيهم فلان
العابد ؟ فقال : به فابداً فإنه لم يتمعر وجهه — أي لم يتغير — في يوماً قط .
وذكرَ أبو عُمَرَ ابن عبد البر في كتاب « التمهيد » أن الله سبحانه أوحى إلى
نبيٍّ من أنبيائه أن قلْ لفلان الزاهد : أما زُهدُك في الدنيا فقد تعجّلتَ به
الراحة لنفسك ، وأما انقطاعك إليّ فقد اكتسبتَ به العزَّ ، ولكن ماذا عملتَ
فيما لي عليك ؟ فقال : يا رب وأي شيء لك عليّ ؟ قال : هل واليت فيّ وليّاً
أو عاديّة فيّ عدوّاً ؟ . انتهى بتصرف يسير .

(١) جاء في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ص ١٤١ ، في ترجمة الإمام
(منصور بن زاذان الثقفي الواسطي) أحد الأعلام المتوفى سنة ١٣١ رحمه الله
تعالى : « قال هُشَيْمٌ تلميذه : كان لو قيل له : إنّ مَلَك الموت على الباب
ما كان عنده زيادة في العمل » .

وجاء فيها أيضاً ص ١٤٢ — ١٤٣ في ترجمة الإمام (منصور بن المعتمر
السُّلَمي الكوفي) المتوفى سنة ١٣٢ رحمه الله تعالى : « قال سفيان الثوري
— تلميذه — : لو رأيتَ منصوراً يصلي لقلت : يموتُ الساعة . قال زائدة بن
قُدّامة تلميذه : صام منصور أربعين سنة ، وقام ليلها ، وكان يبكي الليل =

وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ
خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ^(١).

= كَلَّمَهُ ، فَإِذَا أَصْبَحَ كَحَلٍّ عَيْنِيهِ ، وَبَرَقَ شَفْتِيهِ ، وَدَهَنَ رَأْسَهُ ، فَتَقُولُ لَهُ
أُمُّهُ : أَقْتَلْتَ قَتِيلًا — أَيُّ لَكثْرَةٍ مَا تَرَى مِنْ بَكَائِهِ وَوَجَلِّهِ وَعِبَادَتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى — ؟
فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِمَا صَنَعْتُ نَفْسِي ! » .

(١) أَيُّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَحَتَّى تَعْلَمَ وَتَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ،
وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ ، رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي « سُنَنِهِ » ٤ : ٢٢٥ عَنْ
الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ :
يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ
لِيُخْطِئَكَ ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ . سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :
« إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، قَالَ : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟
قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » . يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي » .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ لِي :
يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ
تَجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ
الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ
اللَّهُ لَكَ . وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ
كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجُفَّتِ الصُّحُفُ . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ :
حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وَمِنْ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا يُبَاشِرُ قَلْبِي حَتَّى أَعْلَمَ =

.

= أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي ، ورضيتني من المعيشة بما قسمت لي «
رواه البزار كما في « مجمع الزوائد » ١٠ : ١٨١ للهيثمي وقال : « وفي سنده
سعيد بن سنان وهو ضعيف » .

وهاتان واقعتان - من وقائع كثير أمثالها حفظها التاريخ الإسلامي -
تشهد فيهما : أن الله إذا قدر لإنسان سلامة ونجاة ، فلن يستطيع الناس أن
يصيبوه بسوء . وإذا قدر عليه هلاكاً وعطباً فلن تقيه الأوقاي ، ولن تحفظه
الحصون الموانع .

١ - روى الحافظ الحميدي صاحب ابن حزم الظاهري وتلميذه في كتابه
« جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » ص ١١٨ « أن الوزير أبا عُمَرَ أحمد
بن سعيد بن حزم - والد ابن حزم - كان جالساً بين يدي مخدومه المنصور أبي
عامر محمد بن أبي عامر ، في بعض مجالسه للعامة ، فرُفعت إليه رُقعة استعطاف
لأمّ رجل مسجون ، كان المنصور اعتقله حَتَقاً عليه لجُرم استعظمه منه .

فلما قرأها اشتدَّ غضبه وقال : ذكّرني - والله - به ، وأخذَ القلم
وأراد أن يكتب : يُصلّب ، فكتب : يُطلق ، ورَمَى الورقة إلى وزيره
المذكور ، وأخذ الوزير القلم وتناول الورقة ، وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى
صاحب الشرطة ، فقال له المنصور : ما هذا الذي تكتب ؟ قال : بإطلاق
فلان ، إلى صاحب الشرطة ، فحرّد وقال : من أمرك بهذا؟ فناوله التوقيع .

فلما رآه قال : وهمتُ ، والله ليُصلّبَن ، ثم خَطَّ على التوقيع ، وأراد
أن يكتب : يُصلّب ، فكتب : يُطلق ، فأخذ الوزير الورقة ، وأراد أن يكتب
إلى الوالي بالإطلاق ، فنظر إليه المنصور وغضب أشدَّ من الأول ، وقال :
= من أمرك بهذا؟ فناوله التوقيع ، فرأى خطه ، فخطَّ عليه .

وكن بالحق عاملاً يَزِدُّكَ اللهُ نوراً وبصيرة ^(١) ، ولا
تكن ممن يأمرُ به وَيَنأى عنه ، فيبوءُ بإثمِهِ ، وَيَتَعَرَّضُ
لِمَقْتِ رَبِّهِ ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ

وأراد أن يكتب : يُصَلِّب ، فكتب : يُطَلِّق ، وأخذ الوزير التوقيع
وشرع في الكتابة إلى الوالي ، فرآه المنصور فأنكر أكثر من المرتين الأوليين ،
فأراه خطه بالإطلاق ، فلما رآه عجب من ذلك وقال : نعم يُطَلِّق على رَغْمِي ،
فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر أنا على منعه . انتهى . وذكرها القاضي ابن
خلِّكان في « وفيات الأعيان » في ترجمة (ابن حزم : علي بن أحمد) ١ :
٣٤١ ، واللفظ له .

٢ — وحدثني بعض الرجال الصادقين العسكريين في الجيش العثماني في
الحرب العامة الأولى : أنهم استعدوا مرةً لمعركة يتوقعونها مع الأعداء : وأخذ
كل جندي وضابط منهم موقعه ، وحفره وحصنه على ما قدر واستطاع .
فمرَّ القائدُ بهم ليشاهد تحصناتهم ومواقعهم ، فأعجبه موقعٌ واحد منهم
بتحصنه وتمكنه ، فقال للذي فيه : تحوَّل عنه ، وأقام فيه واحداً من أحبائه
وأعزائه .

فتحوَّل صاحبهُ عنه مكرهاً سائطاً ، ولما دارت رحى المعركة ، وصَبَّ
العدوُّ نيرانَ مدافعه ، جاءت قذيفة كبيرة فنزلت في الموضع الذي تحوَّل منه
صاحبهُ ، وذَهَبَتْ بعزيز القائد من أول ساعة ، وسَلِمَ ذاك وعاش إلى آمام
بعيدة ، فسبحان الذي لا يُغْلَبُ قضاؤه .

(١) وقع في النسخة المغربية : (وكن بالله بالحق عاملاً به يزدك ...) .

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» ^(١) ، وقال رسول الله ﷺ : « مَنْ وَعَظَ وَلَمْ يَتَّعِظْ ، وَزَجَرَ وَلَمْ يَنْزَجِرْ ، وَنَهَى وَلَمْ يَنْتَهَ : فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْخَائِبِينَ » ^(٢) .

وَلَا تُخَالِطُ إِلَّا عَاقِلًا تَقِيًّا ، وَلَا تُجَالِسُ إِلَّا عَالِمًا بَصِيرًا ^(٣) . وقد سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ : أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ؟ قَالَ : « مَنْ ذَكَرَكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَتُهُ ، وَزَادَكُمْ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ ، وَذَكَرَكُمْ بِالْآخِرَةِ عَمَلُهُ » ^(٤) .

(١) من سورة الصف : ٣ .

(٢) هذا الحديث لم أقف عليه فيما رجعت إليه من كتب الحديث الصحيح والضعيف والموضوع ، فالله أعلم به .

(٣) وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول : الدنيا كلها ظلّمة إلا مجالس العلماء . من « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ١ : ٥١ .

(٤) وقع في الأصلين : (عِلْمُهُ) . وهو تحريف . ولفظ الحديث في « الجامع الصغير » للسيوطي رحمه الله تعالى : « خياركم من ذكركم بالله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقهُ ، ورغبكم في الآخرة عملهُ » ، رواه الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص . قال المناوي في شرحه : « فيض القدير » ٣ : ٤٦٨ : « قال ابنُ عمرو : قيل يا رسول الله مَنْ نَجَالِسُ؟ فذكره . ورواه العسكري من حديث ابن عباس » . انتهى . قلت : والعزوّ إلى هذين المصدرين مُشعرٌ بضعف الحديث .

أما جواب النبي ﷺ لسؤال الصحابة له : من نُجَالِسُ؟ : بقوله « من

= ذَكَرَكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَتْهُ . فقد كان هذا النوعُ الكريمُ في السلفِ منتشرًا وكثيرًا ، كان التابعي عَمْرُو بْنُ مَيْمُونِ الْأَوْدِيِّ الكوفي أدرك الجاهلية ، ولم يلق النبي ﷺ وقدم مع معاذ بن جبل من اليمن فنزل الكوفة ، وكان صالحًا قانتًا لله تعالى ، قال تلميذه أَبُو إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِي : كان إذا رُؤِيَ ذُكِرَ الله ، توفي سنة ٧٥ رحمه الله تعالى . من ترجمته في « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر ٨ : ١٠٩ و « العيَر » للذهبي ١ : ٨٥ .

وكان التابعي الجليل محمد بن سيرين إذا مرَّ في السوق ، فما يراه أحد إلا ذَكَرَ الله تعالى . كما في « تاريخ الإسلام » للذهبي ٤ : ١٩٣ . وإذا ذَكَرَ الموتَ مات كلُّ عضوٍ منه . كما في « العِلَل » للإمام أحمد بن حنبل ١ : ٢٠ . وكان الحسن البصري رضي الله عنه هكذا أيضًا إذا رُؤِيَ ذُكِرَ الله . قال أشعث بن عبد الله أحدُ أصحابه : كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا ولا نَعُدُّ الدنيا شيئًا . كما في « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ١٥٨ . وقال يونس بن عُبيد : كان الرجل إذا نظرَ إلى الحسن انتَفَعَ به وإن لم يَرِ عمله ولم يَسْمَعْ كلامه . كما في « البداية والنهاية » لابن كثير ٩ : ٢٦٧ .

وقيل ليونس بن عُبيد : أتعرف أحدًا يعملُ بعمل الحسن البصري ؟ فقال : والله لا أعرف أحدًا يقول بقوله فكيف يعملُ بعمله ؟! ثم وصفه فقال : كان إذا أقبل فكأنه أقبلَ من دَفْنِ حَمِيمِهِ ، وإذا جلسَ فكأنه أَمِيرَ بَصْرَ عَنْقِهِ ! وإذا ذُكِرَتِ النارُ فكأنها لم تُخْلَقْ إلا له .

وجاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ٢ : ٥١ - ٥٢ : « قال مصعبُ بن عبد الله : كان مالك - إمامُ المذهب وعالمُ المدينة النبوية - إذا ذُكِرَ ﷺ تغيَّرَ لونه وانحنى ، حتى يصعبُ ذلك على جلسائه ، فقيل =

.

= له يوماً في ذلك ؟ فقال : لو رأيتم لما أنكرتم عليّ ما ترون ، كنتُ آتي محمد بن المنكدر وكان سيدَ القُرّاء - أي سيد العلماء - ، لا نكاد نسأله عن حديث إلا بكى حتى نرحمه .

ولقد كنتُ آتي جعفر بن محمد - هو جعفر الصادق - وكان كثير المزاح والتبسم ، فاذا ذُكرَ عنده النبي ﷺ اخضرَّ اصفرَّ وكنتُ كلما أجدُ في قلبي قسوةً آتي محمد بن المنكدر ، فأنظرُ إليه نظرة ، فأتعِظُ بنفسِي أياماً . . انتهى .

وما أجمل ما قيل فيمن كان من هذا القبيل :

إذا سكّنَ الغديرُ على صفاءٍ	وجُنُبَ أن يُحرّكه النسيمُ
بدتْ فيه السماءُ بلا امتراءٍ	كذلك الشمسُ تبدو والنجومُ
كذلك وجوهُ أربابِ التجلي	يُرى في صفوها اللهُ العظيمُ

وأما قول النبي ﷺ : « وزاد في علمكم منطقهُ » . فقد قال الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لمَجْلِسٌ كنتُ أجالسُهُ عبدَ الله ابن مسعود - رضي الله عنه - أوثقُ في نفسي من عمَلِ سَنَةٍ . وجاء في « وفيات الأعيان » للقاضي ابن خلكان ١ : ٢٧١ في ترجمة التابعي الجليل (عبّيد الله بن عبد الله بن عبّبة بن مسعود) أحدِ فقهاءِ المدينة السبعة ، المتوفى سنة ١٠٢ ما نصه :

« قال عمر بن عبد العزيز : لأن يكون لي مجلسٌ من عبّيد الله أحب إليّ من الدنيا وما فيها . وقال أيضاً : والله إني لأشتري ليلةً من ليالي عبّيد الله بألف دينار من بيت المال ، فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحرّيكِ وشدةِ تحفظك ؟ فقال : أين يذهبُ بكم ؟ ! والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوفٍ وألوفٍ ، إن في المحادثة - يعني له ولمثله - =

وتواضع للحق واخضع له^(١)، وأديم ذكر الله تنل قربة^(٢).

= تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهَمَّ، وتنقيحاً للأدب». انتهى .
وقد صدق رضي الله عنه . وما أصدق ما قيل :

وما بقيت من اللذات إلا مُحَادَّةُ الرجالِ ذوي العقولِ

(١) كما هو شأنُ المؤمنين الصالحين . فانهم إذا عرفوا الحق سارعوا إليه ،
وإذا كشفوا الباطل في نفوسهم تنكروا له وعدّوا عنه . وقد وقع لعمرو بن
عُبَيْد أنه قال في مسألة رأياً فأخطأ فيه ، فناقشَه واصلُ بن عطاء فتبين لعمرو
بن عبِيد خطؤه في تلك المسألة ، فرجع إلى الحق قائلاً : ما بيني وبين الحق
من عداوة .

وحكى الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٧ : ٧ في ترجمة (عبِيد
الله بن الحسن العنبري) المتوفى سنة ١٦٨ ، أحدِ سادات أهل البصرة وفقهائها
وعلمائها وكان قاضياً : « قال عبد الرحمن بن مَهْدِي تلميذه : كنا في جنازة
فسألته عن مسألة فغلطَ فيها ، فقلت له : أصلحك الله ، القولُ فيها كذا وكذا .
فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : إذا أرجعُ وأنا صاغر . لأن أكونَ ذنباً في
الحق أحبُّ إليَّ من أن أكونَ رأساً في الباطل » . رحمه الله تعالى .

وجاء في « تهذيب التهذيب » أيضاً ١٠ : ٢٢ ، في ترجمة (مالك بن
مِغُول الكوفي) المتوفى سنة ١٥٩ « قال أحمد بن حنبل : سمعت سفيان بن
عيينة يقول : قال رجل لمالك بن مِغُول : اتقِ الله ، فوضعَ خَدَّهُ بالأرض » .
رحمه الله تعالى ورضي عنه .

(٢) في قول المؤلف المحاسبي رحمه الله تعالى : « وأديم ذكر الله تنل قربة
قُربته » إشارةً منه إلى فائدة جُلِيٍّ من فوائد ذكر الله عز وجل ، وهي القُربُ
من الله سبحانه . وقد استوفى الإمام الشيخ ابن القيم بيانَ فوائد ذكر الله
تعالى، في كتابه « الوابل الصيب » ص ٥٧ - ١٣٣ استيفاءً حسناً، يُحِبُّ =

=الذكر إلى الغافلين والذاكرين جميعاً، فذكرها بدليلها وتوجيهها فائدة فائدة، وأنا أنقل لك جملة من عناوين ما أشار إليه ، فأرعه سمعك لتكون ممن ﴿الذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ ، قال رحمه الله تعالى :

« وفي ذكر الله تعالى أكثر من مئة فائدة : يُرضي الرحمن ، ويطرُدُ الشيطان ، ويُزيلُ الهمَّ ، ويُجلبُ السرور ، ويُقوي القلبَ والبدنَ ، ويُنورُ القلبَ والوجه ، ويُجلبُ الرزقَ ، ويكسبُ المهابةَ والحلاوةَ ، ويُورثُ محبةَ الله تعالى التي هي رُوحُ الإسلام ، ويُورثُ المعرفةَ والإنابةَ والقربَ ، وحياةَ القلبَ ، وذكرَ الله للعبد .

وهو قوتُ القلب ورُوحه ، ويجلو صداه ، ويحطُّ الخطايا ، ويرفع الدرجات ، ويُحدث الأُنس ، ويُزيلُ الوحشة ، ويُذكرُ بصاحبه ، ويُنجي من عذاب الله ، ويُوجبُ تنزُّلَ السكينة ، وغشيانَ الرحمة ، وحُفوفِ الملائكة بالذاكر ، ويشغلُ عن الكلام الضارِّ ، ويسعدُ الذاكر ، ويسعدُ به جلسهُ ، ويؤمنُ العبدُ من الحسرة يوم القيامة . وهو مع البكاء سببُ إظلال الله للذاكر ، وبه تحصلُ العطايا والثوابُ المتنوعُ من الله تعالى .

وهو أيسرُ العبادات وأفضلُها ، وهو غِراسُ الجنة ، ويؤمنُ العبدُ من نسيانِ ربِّه سبحانه ، ويعمُّ الأوقات والأحوالَ وليس شيء من الطاعات مثله ، وهو نورٌ للعبد في دنياه وقبره ويومَ حشره ، وبه تخرجُ أعمالُ العبد وأقواله ولها نوز ، وهو رأسُ الولاية وطريقُها ، ويُزيلُ خلةَ القلب ، ويفرقُ غُمومه وهُمومه ، ويُنبهُ القلبَ من نومه ، ويُثمرُ المعارفَ والأحوالَ الجليلة ، والذاكرُ قريب من مذكوره ، واللهُ معه . وأكرمُ الخلق على الله : من لا يزالُ لسانه رطباً من ذكر الله .

وهو يُزيلُ قسوة القلب ، وما استجلبتْ نِعَمُ الله ، واستدْفِعتْ نِقَمُهُ =

.

= بمثل ذكره. ويوجبُ صلاةَ الله وملائكته - أي ثناءه وثناء ملائكته سبحانه - على الذاكر . ومجالسُ الذكر مجالسُ الملائكة ورياضُ الجنة . وجميعُ الأعمال إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالى ، وأفضلُ كلِّ أهلٍ عمل أكثرهم فيه لله ذكراً ، وإدامةُ الذكر تنوب منابَ كثير من الطاعات البدنية والمالية والمركبة منهما .

وهو يُعين على طاعة الله ، ويُسهِّلُ كلَّ صعب ، ويُسِّرُ الأمور ، ويُعطي الذاكر قوَّةً في قلبه وبدنه ، والذاكرون أسبقُ العَمَّال في مِضْمار الآخرة ، وهو سدٌّ بين العبد وبين نار جهنم ، وتستغفرُ الملائكةُ للذاكر ، وتبأهى الجبالُ ويقاعُ الأرض بمن يذكُرُ الله عليها ، وتشهدُ له . والذكرُ أمانٌ من النفاق .

ويَدْخُلُ في ذكرِ الله ذكرُ أسمائه وصفاته ، والثناءُ عليه بهما ، وتنزيهه عما لا يليق به ، والخبرُ عن أحكام ذلك ، وذكرُ أمره ونهيهِ . ويكون الذكرُ بالقلب واللسان ، وهو الأكمل ، ثم القلب وحده ، ثم اللسان وحده . وأفضلُ أنواع الذكر : القرآن ، ثم الذكرُ والثناء على الله ، ثم أنواع الأدعية .

وقال الشيخ ابن القيم أيضاً رحمه الله تعالى في كتابه « زاد المعاد » في (فصل في هديه ﷺ في الذكر) ٢ : ٣٧ .

« كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله عزَّ وجل بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه ، وكان أمره ونهيهِ وتشريعه للأمة : ذكراً منه لله تعالى . وإخباره عن أسماءِ الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعدهِ ووعيدهِ : ذكراً منه لله تعالى . وثناؤه عليه بآلائه وتمجيدُهُ وحمدُهُ وتسبيحه : ذكراً منه لله تعالى . وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته : ذكراً منه لله تعالى . وكان سكوته وصمته : ذكراً منه لله تعالى بقلبه .

=

.

= فكان ذاكرُ الله تعالى في كل أحيانه ، وعلى جميع أحواله ، فكان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه : قائماً وقاعداً ، وعلى جنبه ، وفي مشيه وركوبه ومسيره ونزوله ، وظَعْنه وإقامته . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

هذا ، وذكرُ الله تعالى باللسان ، سِرّاً وجهراً بانفراد أو جماعة مشروع بشروطه وآدابه ^(١) ، ولكن الذكر الذي يقوم به بعضُ الناس ، بحركات موزونة مرتبة ، وترنيمات متصنعة مطربة ، وقَفَزٍ ووَثْبٍ ، ونَطٍّ وجَدْبٍ ، وانحناء للأمام ورَفْعٍ ، والتفات عنيف ودَفْعٍ ، فالفطرُ السليمةُ تنبؤ عنه ، والقلبُ الخاشعُ يتبرأ منه ، لو خَشَعَ قلبُ هذا الخشعتُ جوارحه ، كما قاله سعيد بن المسيب رضي الله عنه .

وما عهدَ فعلُهُ من السلف في القرون المشهود لها بالخير . وما يقال في تعليل تلك الحركات والوثبات أنها لمنع الخاطر أن يشتغل بغير الله تعالى ، فهو مردود بما عُرِف من حال السلف ، فقد كانوا أحرص منا على حفظ خواطرهم وقلوبهم وجعلها مع الله ولم يكونوا يفعلونه ، بل ذُكِرَ لهم فأنكروه =

(١) وقد ذهب بعضهم إلى منع الجهر بالذكر منفرداً أو جماعة ، ولكن الحق جوازه كما حققه الإمام المحقق عبد الحى الكنتوي في كتاب خاص سماه « سباحة الفكر في الجهر بالذكر » ، وقد استوفى فيه أدلة المانعين والجواب عنها ، ثم أورد للمجيزين الأدلة الناطقة على جوازه ، بل بعضها شاهد باستحبابه ، كما أشار إليه هناك ، واستوفى أيضاً بيان المواطن التي يطلب الجهر فيها ، أو يكره ، وشروطه وآدابه وما إلى ذلك ، على وجه لا تراه عند غيره .

والكتاب مطبوع بالهند أكثر من مرة ، في ضمن مجموع كله للكنتوي ، عرف باسم « مجموع الرسائل الست » . وقد طبع الطبعة الأولى في حياة المؤلف ، في (مطبع دهبه أحمدى) سنة ١٣٠٣ في لكنو ، فعليك به . وللحافظ السيوطي رحمه الله تعالى رسالة جيدة : « نتيجة الفكر في الجهر بالذكر » ، ذهب فيها إلى الجواز أيضاً ، وهي مطبوعة ضمن كتابه « الحاوي للفتاوي » ، وعلى حدة أيضاً ، ولبعض علماء نجد - ابن سحمان ؟ - رسالة مطبوعة في جوازه أيضاً .

.

= أشدَّ الإنكار ، وهم الأئمة المقتدى بهم ، والمرجوع إليهم ، وإليك جملة
سيرة من كلامهم في ذلك :

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في « صحيحه » في كتاب العيدين .
في (باب سنة العيدين لأهل الإسلام) ٢ : ٣٧١ ما يلي : « عن عائشة رضي
الله عنها قالت : دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار .
تُغَنِّيَانِ مِمَّا تَقَاوَلَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاث ، قالت : وليستا بمُغَنِّيَتَيْنِ ... » .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في « فتح الباري » ٢ : ٣٦٨ :
« قال القرطبي — هو المحدث أبو العباس أحمد بن عمر شيخ القرطبي صاحب
التفسير — : قولها : ليستا بمُغَنِّيَتَيْنِ ، أي ليستا ممن يَعْرِفُ الْغِنَاءَ كما يعرفه
المُغَنِّيَاتُ المعروفَاتُ بذلك . وهذا من عائشة رضي الله عنها تحرُّزُ عن الغناء
المعتاد عند المشتهرين به ، وهو الذي يُحرِّكُ الساكن ، ويبعثُ الكامن . وهذا
النوعُ إذا كان في شعرٍ فيه وصِفُ محاسنِ النساءِ والخمرِ وغيرهما من الأمور
المحرَّمة : لا يُخْتَلَفُ في تحريمه .

قال : وأما ما ابتدَعَتْهُ الصُّوفِيَّةُ في ذلك . فَمِنْ قَبِيلِ مَا لَا يُخْتَلَفُ
في تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير ،
حتى لقد ظهرت من كثير منهم فَعَلَاتُ المجانين والصبيان . حتى رَقَصُوا
بحركات متطابقة ، وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقعُ بقومٍ منهم إلى أن
جعلوها من باب القُرْبِ وصالح الأعمال ، وأنَّ ذلك يُشْمِرُ سَيِّئَ الأحوال .
وهذا على التحقيق : من آثار الزندقة ، وقول أهل المَسْخَرَقَةِ ، والله المستعان .
انتهى » .

قال الحافظ ابن حجر عقبه : « وينبغي أن يُعكَّسَ مُرَادُهُمْ ، ويُقرأ :
(يُشْمِرُ سَيِّئَ الأحوال عِوَضَ سَيِّئِ الأحوال) . » انتهى . =

.

= وقال الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى في ترجمة الإمام مالك رضي الله عنه في « ترتيب المدارك » ٢ : ٥٤ : « قال التَّنْسِيءُ : كنا عند مالك ، وأصحابه حوله ، فقال رجل من أهل تَصْيِيْبِينَ : عندنا قوم يقال لهم : الصوفية ، يأكلون كثيراً . ثم يأخذون في القصائد ، ثم يقومون فيرقصون ؟ فقال مالك : أصيبانُ هم ؟ قال : لا . قال : أجمانينُ هم ؟ قال : لا . هم قومٌ مشايخ ، وغيرُ ذلك ، عقلاء ، فقال مالك : ما سمعتُ أن أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا !

فقال له الرجل : بل يأكلون ، ثم يقومون ويرقصون دَوَائِبَ ، ويلطم بعضهم رأسه ، وبعضهم وجهه ، فضحك مالك ثم قام فدخل منزله . فقال أصحابُ مالك للرجل : لقد كنتَ يا هذا مشووماً على صاحبنا ، لقد جالسناه نيفاً وثلاثين سنة ، ما رأينا ضحكاً إلا في هذا اليوم ! » . انتهى .

وقال القرطبي المفسرُ الصوفيُّ في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » ٧ : ٣٦٥ ، عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا . وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . قال رحمه الله تعالى : « وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْخَوْفِ وَالْوَجَلِ عِنْدَ ذِكْرِهِ ، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ . وَمُرَاعَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ ، وَكَأَنَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ .

ونظيرُ هذه الآية : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . وقال : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . فهذا يَرَجِعُ إِلَى كَمَالِ الْمَعْرِفَةِ ، وَثِقَةِ الْقَلْبِ . وَالْوَجَلُ : الْفَزَعُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ . فَلَا تَنَاقُضَ .

وقد جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ =

.

= وقلوبهم إلى ذكر الله ﷻ . أي تسكنُ نفوسهم من حيث اليقين إلى الله ، وإن كانوا يخافون الله .

فهذه حالةُ العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهالُ العوام والمبتدعةُ الطغام ، من الزعيق والزئير — أي الصياح الشديد — ، ومن النهاق الذي يشبهُ نهاقَ الحمير . فيقال لمن تعاطى ذلك ، وزعمَ أن ذلك وجدٌ وخشوع : لم تبلغُ أن تساوي حالَ الرسول ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ : الفهم عن الله ، والبكاء خوفاً من الله . ولذلك وصَفَ الله أحوالَ أهل المعرفة عند سماعِ ذكره وتلاوةِ كتابه فقال : ﴿ وإذا سمعُوا ما أنزلَ إلى الرسول ترى أعينهم تفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين ﴾ .

فهذا وصفُ حالهم ، وحكايةُ مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ، ولا على طريقتهم . فمن كان مُسْتَنّاً فليستنّ بهم . ومن تعاطى أحوالَ المجانين والجنونِ فهو من أخسهم حالاً ، والجنونُ فنون .

ورَوَى مسلم عن أنس بن مالك ، أنَّ الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه — أي أكثروا عليه — في المسألة ، فخرج ذات يوم ، فصعدَ المنبر فقال : سلوني ، لا تسألوني عن شيءٍ إلا بيته لكم ما دُمْتُ في مقامي هذا . فلما سَمِعَ ذلك القومُ أرمؤا — أي أمسكوا — ورهبوا أن يكون بين يديَّ أمر قد حَصَرَ . قال أنس : فجعلتُ ألتفتُ يمينا وشمالاً ، فاذا كلُّ إنسانٍ لافٌ رأسه في ثوبه يبكي ! وذكرَ الحديث .

ورَوَى الترمذي وصحَّحه عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً ، ذرقتُ منها العيون ، ووجلتُ منها القلوب . =

قال رسول الله ﷺ : « جُلَسَاءُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْخَاضِعُونَ الْمَتَوَاضِعُونَ الْخَائِفُونَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا » ^(١) .

= الحديث . ولم يقل : زَعَقْنَا ، ولا رَقَصْنَا ، ولا زَفَقْنَا – أي ضَرَبْنَا الْأَرْضَ بِأَرْجُلِنَا كما يفعل الراقص – ، ولا قُمْنَا . انتهى .

قال عبد الفتاح : فليت أولئك الذاكرين – وهم يقولون : إن هذه الحركات الموزونة ... مباحة ولا تخرجُ عن المباح – فليتهم إن لم يخضعوا لأقوال الأئمة الناهية المحرمة لتلك الحركات ... اعتبروا أقوالهم في النهي عنها والتحريم لها : تقومُ بها شبهةٌ في حِلِّ فعلها والتلبسِ بها ، فركوها تنزهاً وابتعاداً عما قال العلماء فيه : حرام ، فالصوفيُّ كما عرفوه : من يتوقى الشبهات ، ويتركُ بعضَ المباحات ، خشيةَ الوقوع في المكروهات ، فضلاً عن المحرمات ، والله الهادي لمن استهداه ، فاهدنا اللهم لما نحبه وترضاه .

(١) هذا الحديث لم أجده فيما رجعتُ إليه من المراجع الحديثية ، فאלله أعلم به .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في « شرح حديث العلم » ص ١٧ – ٢١ : « وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلَقُ الذَّكْرِ » .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا ذكرَ هذا الحديث قال : أما أَنِي لا أعني القصاص ، ولكن حِلَقَ الفِقه ، وروى عن أنس معناه أيضاً .

ولما حضرت معاذ بن جبل رضي الله عنه الوفاةُ قال : مرحباً بالموت ، مرحباً بزاثر جاء على فاقة ، لا أفلح من نَدِم ، اللهم إنك تعلم أَنِي لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل ، ولظمأ المواجر في الحر الشديد ، ولزاحمة العلماء بالركب في حِلَقِ الذَّكْرِ .

وابذل النصيحة لله وللمؤمنين ، وشاور في أمرك الذين

= ويعني بخلق الذكر هنا : حلق العلم. ومنه قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

وقال عطاء الخراساني : مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام ، كيف تشتري وتبيع ، وتصلي وتصوم ، وتنكح وتطلق ، وتحنج ، وأشباه هذا . وكان أبو السوار العدوي في حلقة يتذاكرون فيها العلم ، ومعهم فتى شاب فقال لهم : قولوا : سبحان الله والحمد لله ، فغضب أبو السوار وقال : ويحك في أي شيء كنا إذا ؟! كما رواه الإمام أحمد في كتاب « الزهد » ص ٣١٦ - ٣١٧ .

ومن مجالس الذكر أيضاً : مجالس العلم التي يذكّر فيها تفسير القرآن ، وتروى فيها سنة رسول الله ﷺ ، ويعلم فيها الفقه في الدين . ومجالسه أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير ، لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية ، والذكر المجرد تطوع محض .

والمراد بهذا أن مجالس الذكر لا تختص بالمجالس التي يذكّر فيها اسم الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه ، بل تشمل ما ذكّر فيه أمر الله ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وما يحبه ويرضاه ، فانه ربما كان هذا الذكر أنفع من ذلك ، لأن معرفة الحلال والحرام واجبة في الجملة على كل مسلم بحسب ما يتعلق به في ذلك .

وأما ذكر الله باللسان فأكثره يكون تطوعاً . وقد يكون واجباً كالذكر في الصلوات المكتوبة . وأما معرفة ما أمر الله به ، وما يحبه ويرضاه وما يكرهه : فيجب على كل من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه ، ولهذا روي « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . انتهى كلام الحافظ ابن رجب بزيادة خبر معاذ من « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ١ : ٥١ .

يَخْشَوْنَ اللَّهَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(١) وقال النبي ﷺ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » ^(٢) .

واعلمَ أَنَّ مَنْ نَصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّكَ ^(٣) ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَتَكَ فَلَيْسَ بِأَخٍ لَكَ . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَا خَيْرَ فِي قَوْمٍ لَيْسُوا بِنَاصِحِينَ ، وَلَا خَيْرَ فِي قَوْمٍ لَا يُجِبُونَ النَّاصِحِينَ . ^(٤)

(١) من سورة فاطر : ٣٨ .

(٢) رواه مسلم في « صحيحه » عن تميم الداري .

(٣) أي من رآك على انحراف عن طاعة الله ، وأظهر لك رضاه بما أنت عليه ، ولم ينصحك ولم ينكر عليك : فقد غَشَّكَ ! واعتبره من جملة أعدائك المبغضين لك ، لأن هذا موقفُ الأعداء لا موقفُ الإخوة المحبين .

(٤) وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأً أهدى إلى عمر عيوبه . فعَدَّ رضي الله عنه الإشارة إلى العيب من الأخ الناصح هدية تستحق الدعاء لمهديها .

وقال رجل للحسن البصري رضي الله عنه : كيف نصنع بأقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال الحسن : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى يدركك الأمن ، خيرٌ لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يُلْحَقَكَ الخوف . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ١٥٠ .

وَأَثَرِ الصَّدَقِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ تَغْنَمُ^(١) ، وَاعْتَزَلِ الْفُضُولَ
تَسْلَمَ ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ^(٢) ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى

(١) روى الحافظ ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » ص ٣٥٠ « عن تميم الرازي قال : سمعتُ أبا زُرْعَةَ الرَّازِيَّ يَقُولُ : قُلْتُ لِأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ : كَيْفَ تَخْلَصُ مِنْ سَيْفِ الْمُعْتَصِمِ وَسَوْطِ الْوَائِقِ ؟ فَقَالَ : لَوْ وُضِعَ الصَّدَقُ عَلَى جُرْحٍ لَبُرَأَ » . وَقَالَ قَاضِي الْبَصْرَةِ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمَزْنِيُّ : « إِنْ أَشْرَفَ خِصَالُ الرَّجُلِ صِدْقُ اللِّسَانِ ، وَمِنْ عَدَمِ فَضِيلَةِ الصَّدَقِ فَقَدْ فُجِّعَ بِأَكْرَمِ أَخْلَاقِهِ » . نقله الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ٩ : ٣٣٦ .

(٢) معنى (يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ) : يُوصِلُ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ . رَوَى الْحَافِظُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » ٢ : ٣٥٩ فِي تَرْجُمَةِ (مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ) عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ الضَّبْعِيِّ قَالَ : « سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ يَقُولُ : الصَّدَقُ وَالْكَذِبُ يُعْتَرِكَانِ فِي الْقَلْبِ حَتَّى يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، وَإِنَّ الصَّدَقَ يَبْدُو ضَعِيفاً كَمَا يَبْدُو نَبَاتُ النَّخْلَةِ ، يَبْدُو غُصْنًا وَاحِدًا ، فَإِذَا شَقَّهَا صَبِي ذَهَبَ أَصْلُهَا ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا عَنَزٌ ذَهَبَ أَصْلُهَا ، فَتُسْقَى فَتَنْتَشِرَ ، وَتُسْقَى فَتَنْتَشِرَ حَتَّى يَكُونَ لَهَا أَصْلٌ أَصِيلٌ يُوطَأُ ، وَظِلٌّ يُسْتَظَلُّ بِهِ ، وَثَمَرَةٌ يُؤْكَلُ مِنْهَا .

كَذَلِكَ الصَّدَقُ يَبْدُو فِي الْقَلْبِ ضَعِيفاً ، فَيَتَفَقَّدُهُ صَاحِبُهُ وَيَزِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَيَتَفَقَّدُهُ صَاحِبُهُ فَيَزِيدُهُ اللَّهُ ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ بَرَكَهَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَكُونَ كَلَامُهُ دَوَاءً لِلخَاطِئِينَ .

قال جعفر : ثم يقول مالك بن دينار : أما رأيتموهم ؟ ثم يَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ فيقول : بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ : الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ ، وَسَعِيدَ بْنَ جَبْرِ وَأَشْبَاهَهُمْ ، الرَّجُلُ مِنْهُمْ يُحْيِي اللَّهَ بِكَلَامِهِ الْفِثَامَ - أي الجماعات - من الناس » .

رِضَا اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَالْفُجُورَ يُورِثُ سَخَطَ اللَّهِ ^(١) . وقال عبدُ الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لَا تَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَغْنِيكَ ، وَلَا تُمارِ سَفِيهَاً وَلَا حَلِيمًا ، وَادْكُرْ أَخَاكَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ تُذَكَّرَ بِهِ ^(٢) .

وَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُجَازِيٌّ بِالْإِحْسَانِ ، مَاخُودٌ بِالْإِجْرَامِ ، وَأَدِيمٌ شُكْرَكَ ، وَأَقْصَرُ مِنْ أَمْلِكَ ، وَزُرِ الْقُبُورَ بِهَمِّكَ ^(٣) ، وَجُلْ فِي الْحَشْرِ بِقَلْبِكَ ^(٤) .

(١) قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : ما كان خلقٌ أنقصَ عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، وما عليمَ رسولُ الله ﷺ من شيءٍ منه من أحدٍ فيخرجُ له من نفسه حتى يعلمَ أنه قد أحدثَ توبةً . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١ : ٤٠٦ .

(٢) جاء في الأصل : (يَمَّا يُحِبُّ أَنْ يُذَكَّرَ بِهِ) . والمثبت من النسخة المغربية . ومعنى قوله : (وَلَا تُمارِ سَفِيهَاً وَلَا حَلِيمًا) أي لا تجادله ، فإن الجدال لا يأتي بخير . وانظر التعليقة الآتية في ص ٧٨ ، ففيها الكلامُ عن الجدال .

(٣) عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسولُ الله ﷺ : « زُرْ الْقُبُورَ تَذَكَّرْ بِهَا الْآخِرَةَ ، وَاغْسِلْ الْمَوْتَى فَإِنَّ مَعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ ، وَصَلِّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ يَحْزُنُكَ ؟ فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . رواه الحاكم في « المستدرک » ٤ : ٣٣٠ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وقال الذهبي في « تلخيص المستدرک » : « صحيح » .

(٤) إنه أمرٌ ليس بالمهين ، إنه أمرٌ تنصدع عنده كثيرٌ من القلوب =

.

= إذا صاحبَ التفكيرَ فيه اليقظةُ التامة ، وقد وقع ذلك في السلف لغير واحد .

جاء في سيرة التابعي الجليل (الربيع بن خثيم) — ويقال له أيضاً : الربيع بن خيثم — ، تلميذ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنه كان إذا دخل على عبد الله بن مسعود يقول له : والله لو رآك رسولُ الله ﷺ لأحبّك ، وما رأيتك إلا ذكرتُ المُخْبِتِينَ . وفي لفظ آخر : كان إذا رآه قرأ قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ . أي الخاشعين . وكان الربيع كذلك .

قال الحافظُ الذهبيُّ في « تذهيب التهذيب » وغيره من المحدثين والمؤرخين في ترجمته : انطلق الربيع بن خيثم وعبد الله بن مسعود إلى شاطئ الفرات ، فمرّاً بتلك الحدادين ، فلما رأى الربيع تلك النيران — نيران الحدادين وشهيقها وزفيرها — ، قرأ قوله تعالى ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ وخبر مغشياً عليه ، وحانت صلاةُ الظهر ، فناداه عبد الله بن مسعود : يا ربيع فلم يجبه ، فذهب عبدُ الله فصلّى بالناس الظهر ، ثم رجع إليه فناده وقال : يا ربيع فلم يجبه ، فانطلق عبد الله فصلّى بالناس العصر ، ثم رجع إليه فقال : يا ربيع يا ربيع ، فلم يجبه ، ثم انطلق عبد الله فصلّى بالناس المغرب ، ثم رجع فقال : يا ربيع يا ربيع ، فلم يجبه ! فما صحّا من غشيته حتى ضربته برؤُ السحر . انتهى .

وجاء في ترجمة الإمام المحدث الفقيه العابد الزاهد (عبد الله بن وهب القرشي المصري) صاحب الإمام مالك ، المتوفى سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى ، في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ٣ : ٢٤١ : « قال يونس : قال ابن وهب : إن أصحاب الحديث طلبوا مني أن أسمعهم صفة الجنة والنار ، وما أدري أقدرُ على ذلك؟ ثم قعد لهم ، فقرأوا عليه صفة النار فغشي عليه ، فرُشَّ =

وقال أبو ذر رضي الله عنه : اعْمَلْ كَأَنَّكَ تَرَى ^(١) ،
وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى ، وَاَعْلَمْ أَنَّ الشَّرَّ لَا يُنْسَى ،
وَالْخَيْرَ لَا يَفْنَى ، وَاَعْلَمْ أَنَّ قَلِيلاً يُغْنِيكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ
يُلْهِيكُ ^(٢) . وَإِيَّاكَ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ .

= بالماء وجهه فلم يُفَقِّ . فقيل : اقرأوا عليه صفة الجنة ، فلم يُفَقِّ ، وبقي
كذلك اثني عشر يوماً ، فدُعي له طبيب : فقال : هذا رجلٌ انصدع قلبه !
ثم مات رحمه الله تعالى . انتهى .

هذا ، وللمؤلف المحاسبي رحمه الله تعالى كتابٌ نفيسٌ في هذا المعنى ،
سمّاه « التوهم » ، وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٥٧ ، تحدّث فيه عن شعور
أهل النار وما يَلْقَوْنَ قَبْلَهَا وبعد الدخول فيها من أهوالٍ وعذاب ، كما
تحدّث فيه عن شعور أهل الجنة وما يجدون قَبْلَهَا وبعد الدخول فيها من
نعيمٍ وتكريمٍ وثواب ، وبين هذا وذاك مَرَحَلَةً مَرَحَلَةً ، حتى لكأنك تراه
رأي العين ، وتُحِسُّه إحساسَ المباشر له ، واستعرَضَه بلغةٍ عاليةٍ مُشْرِقةً ،
وبيانٍ مؤثِّرٍ بليغٍ ، يُفِيدُ قارئه خَشَعَةً وَعِبرَةً ، وَيُورِثُهُ يَقَظَةً لِعَمَلِ الآخِرَةِ ،
فعليك بقراءته ، والله يتولانا وإياك .

(١) أَي تَرَى اللَّهَ تَعَالَى .

(٢) قال الحسن البصري رضي الله عنه : إِيَّاكُمْ وَمَا شَغَلَ مِنَ الدُّنْيَا !
فإن الدنيا كثيرةُ الأَشْغَالِ !! لَا يَفْتَحُ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ شُغْلٍ إِلَّا أَوْشَكَ
ذَلِكَ الْبَابُ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ عَشْرَةَ أَبْوَابٍ ! من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ١٥٣ .
وقال التابعي الجليل الجليل قتادة : مَا كَثُرَتْ النِّعَمُ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا كَثُرَ أَعْدَاؤُهَا .
رواه الإمام أحمد في « العلل » ١ : ١٧٤ .

ثُمَّ رُمَّ جِهَازَكَ ^(١) وافرغ من زادك ^(٢) ، وكن وصي نفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك ^(٣) ، واعقل أمرك ، وتيقظ من سنتك ^(٤) ، فإنك مسئول عن عمرك . قال أبو أمامة رضي الله عنه : لو عقل ابن آدم عن ربه كان خيراً له من جهاده .

واعلم أن من جعل همه الآخرة كفاه الله أمر دنياه ، كما ذكر في الحديث المروي : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله عليه ضيعته ^(٥) ، وجعل فقره بين عينيه ^(٦) ، ومن كانت

(١) أي أصلح ما تحتاج إليه في آخرتك .

(٢) أي أنجز إعداد ما تنزود به لآخرتك .

(٣) جاء في « نهج البلاغة » ٤ : ١٤٥ منسوباً إلى سيدنا علي رضي الله عنه : = يا ابن آدم ، كن وصي نفسك في مالك ، واعمل فيه ما تؤثر — أي ما تحب — أن يعمل فيه من بعدك . وجاء هذا في كلام التابعي الجليل الربيع بن خثيم تلميذ عبد الله بن مسعود ، كما في « كتاب الزهد » للإمام أحمد ص ٣٣٣ .

(٤) أي من غفلتك ، بومك عن الآخرة .

(٥) أي كثر عليه معاشه ليشغله عن الآخرة . كما في « النهاية » لابن الأثير .

(٦) أي جعله دائماً يشهد نفسه فقيراً محروماً !

الْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ .
وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَ
الْمُؤْمِنِينَ تَنْقَادُ إِلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَوَدَّةِ » ^(١) .

واحذر يا أخِي المِرَاءَ فِي الْقُرْآنِ ^(٢) ،

(١) الحديث ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » بنحو هذا اللفظ ،
وقال : « رواه الطبراني عن أبي الدرداء » . وجاء في الأصلين : (جمع الله
أمره) دون لفظ (له) . وجاءت الجملة الأخيرة منه في « الجامع الصغير »
بلفظ « ... تَقْدُّ إِلَيْهِ بِالْوَدِّ وَالرَّحْمَةِ » . أي تُسْرِعُ . وجاء بعدها : « وكان الله
تعالى بكلّ خيرٍ إليه أَسْرَعُ » . قال شارحُه المناوي في « فيض القدير »
٣ : ٢٦١ : « ضعفه المنذري . وقال الهيثمي : فيه محمد بن سعيد بن حسان
المصلوب ، وهو كذاب . ا هـ . وكذا ذكره غيره » . انتهى كلام المناوي .
قلت : فعلى هذا يكون الحديث في غاية الضعف ، والله أعلم .

(٢) أي الشكّ فيه أي في كونه كلام الله تعالى ، أو المراد : الخوضُ
فيه بأنه مُحَدَّثٌ أو قديم ، أو المراد : المجادلةُ في الآيات المتشابهة ، أو المرادُ
بالمِرَاءِ في القرآن : التدارؤ فيه ، وهو أن يَروم تكذيب القرآن بالقرآن ، ليدفع
بعضه ببعض ، فيتطرقَ إليه قدحٌ وطمع .

ومن حقّ الناظر في القرآن الكريم أن يجتهد في التوفيق بين الآيات ، والجمع
بين المختلفات ما أمكنه ، فإن القرآن يُصدّقُ بعضُه بعضاً ، فإن أشكل عليه
شيء من ذلك ، ولم يتيسر له التوفيق ، فليعتقد أنه من سوء فهمه ، وليكلِّه
إلى عالمِه وهو الله ورسولُه ، ﴿فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول﴾ .

ورَوَى الإمام أحمد في «المسند» في (مسند أبي هريرة) ٢ : ٣٠٠ عنه =

والجدال في الدين^(١) ،

= رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، الْمِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فاعْمَلُوا بِهِ . وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ » . أفاده العلامة المناوي رحمه الله تعالى في « فيض القدير » ٢٦٥ : ٦ .

= (١) الجدال : المخاصمة والمغالبة . مأخوذ من قولك : جَدَلْتُ الْحَبْلَ أَجْدَلُهُ جَدَلًا إِذَا أَحْكَمْتَ فَتْلَهُ . فكأنَّ المتجادِلَيْنِ يَفْتَتِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِكَلَامِهِ : الْآخَرُ عَنْ رَأْيِهِ وَقَصْدِهِ ، لِيَنْصِرَ رَأْيَ نَفْسِهِ . وهو مذموم إلا على وجه الإنصاف ، أو لإظهار الحق . ولكن ما أَقْلَهُ وَأَقْلَّ أَهْلَهُ الْيَوْمَ !

وقد حذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْوُقُوعِ فِي (الْجَدَلِ) ، وجعلته سبباً يَتَحَوَّلُ بِهِ النَّاسُ مِنَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ . روى الصحابي الجليل أبو أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَهُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ » . رواه الإمام أحمد في « المسند » ٥ : ٢٥٢ . والترمذي ١٢ : ١٣٣ وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه ١ : ١٩ ، والحاكم في « المستدرک » ٢ : ٤٤٨ وقال : « صحيح » ، وأقره الذهبي .

وروى الإمام أحمد في « المسند » ٢ : ٣٥٢ و ٣٦٤ عن مكحول عن أبي هريرة - ومكحول لم يسمع منه فالسند فيه انقطاع - : أن النبي ﷺ قال : « لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا أَوْ مُحِقًّا » .

وروى الترمذي ٨ : ١٦٠ - بسند فيه ضعف - عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تُمَارِ أَخَاكَ » . وروى الترمذي أيضاً ٨ : ١٥٩ وحسنه ، وابن ماجه ١ : ١٩ عن أنس مرفوعاً : « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ =

والكلام في التَّحْدِيدِ^(١) ، وَكُنْ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ ﴾^(٢) .

والزَّمِ الْأَدَبَ ، وَفَارِقِ الْهَوَى وَالْغَضَبَ ، وَاعْمَلْ فِي أَسْبَابِ التِّيْقُظِ^(٣) ، وَاتَّخِذِ الرَّفْقَ حِزْبًا ، وَالتَّائِي صَاحِبًا ، وَالسَّلَامَةَ

= بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ . انتهى .

وذلك أن الحدال يولدُ النَّفْرَةَ والكراهة ، وَيُسَبِّبُ الْإِيحَاشَ بين المتحابِّين فضلًا عن غيرهما ، فلذا كان لتاركه — وهو محق — هذا الأجر الجسيم ، فينبغي اجتنابه والبُعدُ عنه .

(١) المرادُ به : ذِكْرُ الْحَدِّ لِلَّهِ تَعَالَى سُبْحَانَهُ .

(٢) من سورة الفرقان : ٦٣ .

(٣) ذلك لأن مفاتيح الدنيا برّاقَةٌ خَلَائِفَةٌ ، تجلب لك الغفلة عن عاقبتك ، وتُنْسِيكَ ما أنت صائرٌ إليه ! فالعملُ على تحصيل أسباب التِّيْقُظِ لازمٌ لك ، لسلامتك من دار الغرور . وما أصدقَ ما قاله ابنُ الْمُقَفَّع وهو يُصَوِّرُ غفلة الإنسان عن آخرته يلهو ببوارق زيف الحياة ، فتصدُّه عن سبيل قصده وغايته ، فيهلك وهو غُدُوعٌ بمفاتها . قال في كتابه « كَلِيلَةُ وَدِمْنة » ص ٨٩ قَبْلَ باب الأسد والثور :

« التمسْتُ لِلْإِنْسَانِ مَثَلًا فَإِذَا مَثَلُهُ مِثْلُ رَجُلٍ نَجَا مِنْ خَوْفِ فِيلٍ هَائِجٍ إِلَى بَيْتٍ فَتَدَلَّى فِيهَا ، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ كَانَا عَلَى سَمَائِهَا — أَيِ عَلَى أَعْلَى الْبَيْتِ — فَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَيِّ الْبَيْتِ ، فَإِذَا حَيَاتٌ أَرْبَعٌ قَدْ أَخْرَجْنَّ رُؤُسَهُنَّ مِنْ أَجْحَارِهِنَّ .

ثم نظر فإذا في قعر البئرِ تِنَيْنٌ — هو نوع من الحياتِ كأكبر ما يكون =

كَهْفًا ، والفراغ غنيمَةً ، والدُّنْيَا مَطِيَّةٌ ، وَالْآخِرَةُ مَنْزِلًا ^(١) .
 وقال الحسنُ رضي الله عنه ^(٢) : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ
 لِلْمُؤْمِنِ رَاحَةً دُونَ الْجَنَّةِ ^(٣) .

= منها ، طويل كالنخلة السحوق ، أحمر العينين مثل الدم ، واسع الفم يتلع
 كثيراً من الحيوان ، في فمه أنياب مثل أسنة الرماح — فاتحٌ فاه منتظرٌ له ليقع
 فيأخذه ، فرفع بصره إلى الغُصْنَيْنِ فاذا في أصلهما جُرْدَانٌ — فأرانِ كبيران —
 أسود وأبيض ، وهما يَقْرِضَانِ الغُصْنَيْنِ دائبينِ لَا يَقْتُرَانِ !

فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمامِ لنفسه ، إذ أَبْصَرَ قريباً منه كَوَارَةً —
 — بيتَ النحل — فيها عَسَلٌ ، فذاق العسلَ فَشَغَلَتْهُ حَلَاوَتُهُ ، وَأَلْهَتْهُ
 لَذَّتُهُ عَنِ الْفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَنْ يَلْتَمِسَ الْخِلَاصَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ
 أَنَّ رَجْلَيْهِ عَلَى حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَتَدْرِي مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْجُرْدَيْنِ
 دَائِبَانِ فِي قِطْعِ الْغُصْنَيْنِ ، وَمَتَى انْقَطَعَا وَقَعَ عَلَى التَّنَيْنِ ! فلم يزل لاهياً
 غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التَّيْنِ فهلك !! . انتهى .
 فيا عبد الله لا تغفلُ عن آخرتك ، سَلِّمْني الله وإياك من الغفلة .

(١) وقع في الأصلين : (منهلاً) . وهو تحريف عما أثبتته .

(٢) هو : الحسنُ البصريُّ التابعيُّ الجليل ، سيدُ الزُّهَّادِ والعُبَّادِ في
 عصره ، وهو الذي قيل فيه : يُشْبِهُ كَلَامَهُ كَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ رضي الله عنه .

(٣) وقال الحسنُ أيضاً رضي الله عنه : « فَصَحَّ الْمَوْتُ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَتْرَكْ
 فِيهَا لَدَيْ لُبٍّ فَرَحًا » . من « تاريخ الإسلام » للذهبي ٤ : ١٠٢ .

وكان مالك بن دينار تلميذ الحسن يقول : « عُرِّسُ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .
 من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ٣٨٠ .

واحذرَ مَوَاطِنَ الغَفْلَةِ ، وَمَخَاتِلَ العَدُوِّ ^(١) ، وَطَرَبَاتِ
الهَوَى ^(٢) ، وَضَرَاوَةَ الشهوة ^(٣) ، وَأَمَانِيَّ النَّفْسِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ

- (١) أي مَخَادِعَهُ . ووقع في الأصلين : (مغايل العدو) . وهو تحريف .
(٢) أي هَجَمَاتِ الهوى التي تستخِفُّك للمعصية حتى تُلقِيكَ فيها .
(٣) أي شِدَّتَهَا واستعارَهَا ، وبقليلٍ من المصابرة على الشهوة مع ذكرِ الله تعالى
والنظرِ في عاقبة طاعة الشهوة ، وعاقبة عصيانها ، يكون ذلك الفوزُ والتغلبُ
عليها ، ويغمرُكَ الرضوانُ العظيمُ من الله تعالى ، ويستنيرُ قلبُكَ ، وتسمو
رُوحُكَ ، ويربو إيمانُكَ ، وتَحَفُّ بِكَ الملائكةُ ، وتَشْعُرُ بنفحات روحانية
سماوية لا تَسْتَوِفِيهَا العبارات ، وما أجملُكَ منتصباً على الشهوة تَفْرَحُ بِكَ
الملائكةُ ، وتغشاك دَاعِيَةٌ مهتنة ؟ وما أقبحُكَ - حتى عند نفسك - منتصرةٌ
عليك الشهوةُ ، تَفْرَحُ بِكَ الشياطين ويَحِقُّ بِكَ سَخَطُ اللَّهِ ! نسأل الله لنا
ولك السلامة .

ورحم الله الشيخ ابن القيم إذ يقول في كتابه « الفوائد » ص ١٣٩ « واعلم أنَّ
الصبر عن الشهوة أسهلُّ من الصبر على ما تُوجبه الشهوة ، فإنَّ الشهوة : إما أن
توجب ألماً وعقوبة ، وإما أن تقطع لذَّةً أَكَلَ منها ، وإما أن تضيق وقتاً
لإضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تثلِّمَ عِرْضاً تُوفِّرُهُ أنفع للعبد من ثلِّمه ،
وإما أن تُذهب مالاً بقاؤه خير من ذهابه ، وإما أن تَضَعُ قَدْرًا وجاهاً قِيَامُهُ
خيرٌ من وضعه ، وإما أن تَسْلُبَ نعمةً بقاؤها أَلَذُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة ،
وإما أن تُطَرِّقَ لوضيعةٍ إليك طريقاً لم يكن يجدُها قبلَ ذلك ، وإما أن تجلب
همّاً وغماً وحزناً وخوفاً لا يُقَارِبُ لذَّةَ الشهوة ، وإما أن تُنْسِيَّ عِلْماً ذَكَرَهُ
أَلَذُّ من نيلِ الشهوة ، وإما أن تُشْمِتَ عَدُوًّا ، وتُحْزِنَ وَلِيًّا ، وإما أن
تَقْطَعَ الطريقَ على نعمةٍ مقبلة ، وإما أن تُحْدِثَ عَيْباً يَبْقَى صِفَةً لا تزول ،
فإنَّ الأعمالَ تُورِثُ الصفاتِ والأخلاقَ » .

وسياتي تعليقا في هذا المعنى كلامٌ ضافٌ جداً في ص ١٥٥-١٦٠ ، فانظره .

ﷺ قال : « أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك » ^(١) .
ولما صارت أعدى أعدائك لطاعتك لها .

وكلُّ أمرٍ لاحَ لكَ ضَوُّهُ بِمِنَهاجِ الحقِّ ، فَأَعْرِضْهُ عَلَى
الكتابِ والسُّنةِ والآدابِ الصَّالحةِ ^(٢) ،

(١) وقع في النسخة المغربية : (أعدى أعاديك) في الموضعين . والحديث رواه البيهقي في « كتاب الزهد » بإسناد ضعيف ، وله شاهد من حديث أنس . ويجري على السنة كثيرين : أعدى عدوك ، بالثنية . ولا أصل له بهذا اللفظ ، والمشهور على الألسنة : أعدى عدوك ، بالإفراد ، أفاده العلامة العجلوني في « كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » ١ : ١٤٣ .

وقال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » أوائل كتاب عجائب القلب ٨ : ٧ : « أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفيه : محمد بن عبد الرحمن بن غزوان ، أحدُ الوضّاعين ! » . انتهى . وقال الزبيدي في « شرح الإحياء » ٧ : ٢٠٦ عقب كلام العراقي : « ووجدت بخط الحافظ ابن حجر ما نصّه : وللحديث طرق أخرى غير هذه من حديث أنس وغيره » .

(٢) قال الجنيد رحمه الله تعالى : مذهبنا هذا مقيّد بالأصول : بالكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ الكتاب ، ويكتب الحديث ، ويتفقّه ، لا يُقْتَدَى به . انتهى من « إغاثة اللفهان » ١ : ١٢٥ للشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى .

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى في كتابه : « كشف الغمّة » ١ : ١٠ : « كلُّ طريقٍ لم يَمْشِ فيه الشارِعُ ﷺ فهو ظلام ، ولا يكون أحدٌ ممن مشى =

.....

= فيه على يقين من السلامة وعدم العطب . وقال رحمه الله تعالى : « دُورُوا مع الشرع كيف كان ، لا مع الكشف فانه يُخطئ ، وينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه ، عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة من الطريق فمتعوا مطالعة الفقه ! وقالوا : إنه حجاب ! جهلاً منهم ! » . نقله ابن العماد الحنبلي في « شدّات الذهب » في ترجمة الشعراني ٨ : ٣٧٤ .

وقال الإمام الغزالي في « الإحياء » ١ : ٣٧ - ٣٨ : « قال الجنيد رحمه الله قال لي السريّ شيخي يوماً : إذا قمت من عندي فمن تجالس ؟ قلت : المُحاسبِيّ ، فقال : نعم ، خذ من علمه وأدبه ، ودع عنك تشقيقه الكلام وردّه على المتكلمين . ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيّاً ، ولا جعلك صوفيّاً صاحب حديث . »

قال الغزالي : أشار إلى أن من حصل الحديث - أي العلم - ثم تصوّف أفلح ، ومن تصوّف قبل العلم خاطر بنفسه .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه : « شرح حديث العلم » ص ١٦ : « وكثير ممن يدعي العلم الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه : يتدّم العلم الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام ، ويطعن في أهله ويقول : هم محجوبون وأصحاب قشور ! »

وهذا يُوجب القدح في الشريعة المطهرة والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها ، وربما انحلّ بعضهم عن التكليف وادّعى أنها للعامة ، وأمّا من وصل فلا حاجة به إليها وأنها حجاب له !

وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين : وصلوا ولكن إلى سقر . وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء ، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام .

فَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَخُذْ فِيهِ رَأْيَ مَنْ تَرْضَى دِينَهُ وَعَقْلَهُ .
واعلم أنَّ على الحقِّ شاهداً بقبولِ النَّفْسِ لَهُ^(١) . ألا ترى
لِقَوْلِ رسولِ الله ﷺ : « أَسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ »^(٢)

= ومنهم من يظنُّ أن هذا العلم الباطن لا يُتَلَقَّى من مشكاة النبوة ، ولا من الكتاب والسنة ! وإنما يُتَلَقَّى من الخواطر والإلهامات والكشوفات !! فأساؤا الظنَّ بالشرعية الكاملة ، حيث ظنُّوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع ، الذي يُوجبُ صلاحَ القلوب وقربَها من علام الغيوب ! وأوجبَ ذلك لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية ! والتكلُّم فيه بمجرد الآراء والخواطر ، فضلُّوا وأضلُّوا .

(١) فإنَّ الفطرَ السليمة تقبل الحق وترفض الباطل بطبيعة ما فطرها الله عليه . ولا يزال الحقُّ يُعْتَبَرُ ظاهراً على الباطل ما تعلَّقت القلوبُ به وثبَّتْ عليه . جاء في « مناقب الإمام أحمد » ص ٣١١ لابن الجوزي رحمه الله تعالى : « قيل لأحمد بن حنبل أيامَ المِحنة - أي أيامَ ظهور المعتزلة على أهل السنة ودعوتهم الناس بسلطان الدولة إلى القول بخلق القرآن - : يا أبا عبد الله : ألا ترى الحقَّ كيف ظهَرَ عليه الباطل ؟! فقال : كلاً ! إنَّ ظهور الباطل على الحقَّ أن تنقلَ القلوبُ من الهدى إلى الضلالة ! وقلوبنا بعدُ لازمةٌ للحقَّ » .

(٢) رواه بهذا اللفظ البخاريُّ في « التاريخ الكبير » عن الصحابيِّ الجليل وابصة بن معبد الأسدي رضي الله عنه ، كما في « الجامع الصغير » للسيوطي ، وذكره النوويُّ في « الأربعين حديثاً » تحت عنوان (الحديث السابع والعشرون) بآتم من هذا اللفظ ، وقال : « حديثٌ حسن ، رَوَيْنَاهُ فِي مُسْنَدَيْ الْإِمَامَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَالدَّارِمِيَّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ » .

قال الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » ٥: ٦ عند هذا الحديث : « وما أعزَّ =

.

= مثلَ هذا القلب؟ ولذلك لم يَرُدَّ عليه السلام كلَّ أحدٍ إلى فتوى القلب ، وإنما قال ذلك لوابِصَة لما كان قد عَرَفَ مِنْ حَالِهِ .

قال العلامة المُنَاوي في « فيض القدير » ١ : ٤٩٥ : « قال بعض العلماء : وبفَرَضِ عموم الخطاب في هذا الحديث فالكلامُ فيمن شَرَحَ الله صدره بنور اليقين ، فأفتاه غيره بمجرّد حدّس أو مَيَّل ، من غير دليل شرعي ، وإلا لَزِمَ اتِّباعه وإن لم يُشَرَح له صدره ، انتهى » .

وقال الحافظ ابن رجب في « جامع العلوم والحِكَم » ص ٢٢١ - ٢٢٢ : « وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ الله فَطَرَ عِبَادَه على معرفة الحق والسُّكونِ إليه وقبوله ، وركّزَ في الطباعِ محبّة ذلك والنفورَ عن ضده ، ولهذا سَمَّى سبحانه ما أَمَرَ به (معروفاً) وما نَهَى عنه (منكراً) ، وأخبرَ أنَّ قلوب المؤمنين تَطْمِئُنُّ بذكره . فدلَّ حديثُ وابِصَة على الرجوع إلى القلب عند الاشتباه ، فما سَكَنَ إليه القلبُ وانشرح إليه الصدرُ فهو البِرُّ والحلال ، وما كان خلافَ ذلك فهو الإثمُ والحرام » .

وقال العلامة ابن حجر الهيتمي المكي في « الفتح المبين بشرح الأربعين » ص ١٩٢ : « وفي جوابه ﷺ لوابِصَة بهذا : إشارةٌ إلى متانة فهمه ، وقوّة ذكائه ، وتنويرِ قلبه ، لأنّه ﷺ أحاله على الإدراك القلبي ، وعَلِمَ أنّه يُدْرِكُ ذلك مِنْ نفسه ، إذ لا يُدْرِكُ ذلك إلا مَنْ هو كذلك . وأمّا الغليظُ الطبع ، الضعيفُ الإدراك فلا يُجَابُ بذلك ، لأنّه لا يتحصّلُ منه على شيء ، وإنما يَفْصَلُ له ما يَحْتَاجُ إليه من الأوامر والنواهي الشرعية . وهذا مِنْ جَمِيلِ عاداته ﷺ مع أصحابه ، فانه ﷺ كان يخاطبهم على قَدَرِ عقولهم ، ومن ثمَّ قالت عائشة رضي الله عنها : أَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ أن نُنْزِلَ الناسَ مَنْزَلَهُمْ » .

وَقَيْدِ الْجَوَارِحِ بِإِحْكَامِ الْعِلْمِ^(١)، وَرَاعِ هَمَّكَ بِمَعْرِفَةِ قُرْبِ اللَّهِ مِنْكَ ، وَقُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مَقَامَ الْعَبْدِ الْمُسْتَجِيرِ : تَجِدُهُ رَوْوفاً رَحِيماً^(٢). قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ

(١) أي لا تحرك جارحة من جوارحك إلا أن يكون لديك علم — من الشارع الحكيم — بجواز ما تفعله وصحته ، وإلا كان تصرفك عليك لالك ، قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : من عمل على غير علم ، كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

(٢) وما أسرع إجابته وما أشدَّ عونه لمن وقف بين يديه مستجيراً به ، ليس في قلبه إلا الله تعالى .

نقل الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣: ٣٧١ عند قوله تعالى في سورة النمل ﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ؟ ﴾ . نقل عن الحافظ ابن عساكر الدمشقي قال : « كان رجل مكارياً على بغل له — أي يركب الناس على بغل له للسفر بالأجرة — ، يكرّيه به من دمشق إلى الزبداني ، فركب معه ذات يوم رجل ، قال : فمررنا على بعض الطريق عن طريق غير مسلوكة .

فقال لي الرجل : خذ في هذه الطريق فإنها أقرب ، فقلت له : لا خيرة لي بها ، فقال : بل هي أقرب . فسلكناهما ، فانتهينا إلى مكان وعمر وواد عميق فيه قتلى كثيرون ، فقال لي الرجل : أمسك رأس البغل حتى أنزل ، فتزل وتشمّر وجمع عليه ثيابه ، وسلّ سكيناً معه ، وقصدني من بين يديه — فهربت — وتبعني ! فناشدته الله وقلت له : خذ البغل بما عليه ، فقال : هو لي ، وإنما أريد قتلك ، فخوفته بالله تعالى والعقوبة منه ، فلم يقبل !

فاستسلمت بين يديه ، وقلت له : إن رأيت أن تركني حتى أصلي ركعتين ، =

وَجَلَّ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ بِقَدْرِ مَنْزِلَتِهِ مِنْهُ « (١) .

= فقال: لك ذلك وعجل، فقامت أصلي، فأرتج علي - أي ذهب عني كل ما أحفظه من القرآن - ، فلم يحضرني منه حرف واحد ، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول لي : هباً افرغ ، فأجرتي الله على لساني قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ؟ ﴾ . فاذا أنا بفارس قد أقبل من قم الوادي ، ويده حربته فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعاً .

فتعلقت بالفارس ، وقلت له : بالله من أنت ؟ فقال : أنا عبد من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . قال : فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً . انتهى . فسبحان من يجبر ولا يجار عليه .

(١) هو جزء من حديث ورد في فضل ذكر الله عز وجل بنحو هذا اللفظ ، وأولاه عن جابر مرفوعاً : « يا أيها الناس إن الله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض ... إن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » . قال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » ٣ : ٦٥ و ٥ : ٥٣٤ : « رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والبخاري والطبراني والبيهقي والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وفي أسانيدهم كلها عمر مولى غفرة ، ضعفه ابن معين والنسائي ، وقال أحمد : ليس به بأس ، لكن أكثر حديثه مراسيل ، وقال ابن سعد : ثقة كثير الحديث . وبقية أسانيدهم ثقات مشهورون محتج بهم ، والحديث حسن ، والله أعلم » . انتهى .

قلت : قال الحافظ الذهبي في « تلخيص المستدرک » ١ : ٤٩٥ بعد رواية الحاكم له وقوله : صحيح الإسناد . : « قلت : عمر ضعيف » .

وقال الذهبي أيضاً في « الميزان » في ترجمة (عمر) ٢ : ٢٦٤ بعد أن ساق ما نقله المنذري فيه : « وقال ابن حبان : كان ممن يعلب الأخبار ، =

وذلك عَلَى قدرِ الخشيةِ لله ، والعلمِ به ، والمعرفةِ لَهُ .

واعلم أَنَّهُ مَنْ آثَرَ اللَّهَ آثَرَهُ ^(١) ، وَمَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَمَنْ تَرَكَ لَهُ شَيْئاً لَمْ يُعَذِّبْهُ بِهِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « دَعُ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » . فَإِنَّكَ لَنْ تَجِدَ فَقْدَ شَيْءٍ تَرَكْتَهُ لِلَّهِ ^(٢) .

= يروي عن الثقات ما لا يُشبهه حديثُ الأئمة ، لا يجوز الاحتجاجُ به ، ولا ذِكْرُهُ فِي الكُتُبِ إِلَّا عَلَى جِهَةِ الاعتبارِ . ثم ساق الحديثَ المذكورَ مساقَ الشاهد لقول ابنِ حبانٍ فيه .

وقال الحافظ ابن حجر في « التقریب » : « عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَدَنِيُّ مَوْلَى غُفْرَةَ : ضَعِيفٌ ، وَكَانَ كَثِيرَ الْإِسْرَارِ » . انتهى . فالحديثُ ضعيفٌ ، وتحسينُ الشيخ المنذري له غيرُ حَسَنٍ ، والله أعلم .

(١) أي من قدَّمَ طاعةَ الله على حظِّ نفسه اختصَّه الله بالقُرْبِ منه والرضا عنه .

(٢) رواه بهذا اللفظ كلُّهُ من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً : أبو نعيم في « الحلية » ٦ : ٣٥٢ ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٢ : ٣٨٧ ، ولكن في سنده مطاعن كما أشار إلى ذلك كلٌّ من أبي نعيم والخطيب ، ومرجع المطاعن فيه إلى لفظ زيادةٍ (فانك لن تجد فقد شيء تركته لله) . فهي زيادة غير ثابتة ، فلذا جعلتها خارجَ الهالين للحديث .

إذ قد جاء بلفظ « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . دون تلك الزيادة من حديث أنس عند الإمام أحمد في « مسنده » ، ومن حديث الحسن بن =

واخمس القلب عن سوء الظن بحسن التأويل ، وادفع
الحسد بقصر الأمل ، وانف الكبر باستبطان العز^(١) ،
واترك كل فعل يضطرك إلى اعتذار^(٢) ، وجانب كل حال
يرميك في التكلف ، وصن دينك بالاعتداء ، واحفظ
أمانتك بطلب العلم ، وحصن عقلك بآداب أهل الحلم ،

= علي عند النسائي ، ومن حديث وابصة بن معبد عند الطبراني ، كما في « الجامع الصغير » للسيوطي . وقال شارحه العلامة المناوي في « التيسير بشرح الجامع الصغير » ٧ : ٢ « وإسناده حسن ، وله شواهد ترقيه إلى الصحة » .

وروى الإمام أحمد في « مسنده » والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في « المستدرک » ٢ : ١٣ وأبو نعيم في « الحلية » ٨ : ٢٦٤ « عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دَعَّ ما يَربيك إلى ما لا يَربيك ، فان الحق طُمأنينة ، وإن الشرَّ ريبة » . قال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وأقره الذهبي فقال : « حديث صحيح » .

وجملة (فانك لن تجد فقد شيء تركته لله) جاءت من كلام القاضي شريح ، كما في ترجمته عند ابن سعد في « الطبقات الكبرى » ٦ : ١٣٦ . والله أعلم . وقع في الأصلين هكذا : (من ترك له شيئاً لم يعذبه به ، قال : دع ما يربيك ...) .

(١) وقع في الأصل : (بلسطان) . وجاء في النسخة المغربية : (بسلطان) وكلاهما تحريف .

(٢) قال سيدنا علي رضي الله عنه : إياك وما يسبقُ إلى العقول إنكارُهُ ، وإن كان عندك اعتذارُهُ . من « مراقبي الفلاح » للشرنبلالي ص ٦٦٢ .

وَأَسْتَعِدَّ الصَّبْرَ لِكُلِّ مُوطِنٍ ، وَالزَّمَ الْخَلْوَةَ بِالذِّكْرِ ^(١) ،
وَاصْحَبِ النِّعَمَ بِالشُّكْرِ .

وَاسْتَعِنُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَاسْتَحِرِ اللَّهَ فِي كُلِّ حَالٍ ،
وَمَا أَرَادَكَ اللَّهُ لَهُ فَاتْرُكِ الْإِعْتِرَاضَ فِيهِ ، وَكُلِّ عَمَلٍ تُحِبُّ
أَنْ تَلْقَى اللَّهَ بِهِ فَأَلْزِمَهُ نَفْسَكَ ، وَكُلِّ أَمْرٍ تَكْرَهُهُ لِغَيْرِكَ
فَاعْتَرِ لَهُ مِنْ أَخْلَاقِكَ . وَكُلِّ صَاحِبٍ لَا تَزْدَادُ بِهِ خَيْرًا فِي
كُلِّ يَوْمٍ فَانْبِذْ عَنْكَ صُحْبَتَهُ . وَخُذْ بِحِظِّكَ مِنَ الْعَفْوِ
وَالْتَجَاوُزِ ^(٢) .

(١) أَيِ اذْكُرْ اللَّهَ تَعَالَى خَالِيًا مُنْفَرِدًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ ،
وَأَرْجَى لِلْقَبُولِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَفِي حَدِيثِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَحْتَ ظِلِّ
عَرْشِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ... » .

(٢) يَشِيرُ الْمُؤَلِّفُ إِلَى أَنَّكَ إِذَا وَقَعْتَ فِي خُصُومَةٍ مَعَ إِنْسَانٍ ، فَالْعَفْوُ
وَالْتَجَاوُزُ خَيْرٌ لَكَ مُرَدًّا مِنَ الْإِسْتِمْرَارِ وَاللَّدَدِ فِي الْخُصُومَةِ . وَقَدْ صَدَّقَ رَحِمَهُ
اللَّهُ تَعَالَى ، فَإِنَّ الْخُصُومَةَ تَحَقُّقُ الدِّينِ ، وَتَشْغَلُ الْعَقْلَ ، وَتَقْتُلُ طُمَأْنِيَةَ
الْقَلْبِ وَالْخَاطِرِ ، وَتَقْضِ الْمُضَاجِعَ ، وَتَجْعَلُ سُوءِ بَدَأِ الْإِنْسَانِ جَجِيمًا دَائِمًا
الْإِسْتِعَارَ وَالْإِتْقَادَ . فَالْعَفْوُ وَالتَّجَاوُزُ - وَإِنْ صَاحِبَتَهُ هُضْمٌ وَغَبْنٌ - أَعْمُ
حِظًّا ، إِذْ يَقْضِي عَلَى هَذِهِ الْآثَارِ كُلِّهَا ، وَيُعَوِّضُ بَدَلًا مِنْهَا الرَّاحَةَ وَالسَّكِينَةَ
وَالْفَضْلَ وَالْإِحْسَانَ .

وَقَدْ وَقَعْتُ لِلْإِمَامِ ابْنِ قُتَيْبَةَ - وَهُوَ اللَّيِّبُ الْأَرِيبُ - خُصُومَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ
ابْنِ عَمٍّ لَهُ ، فَلَجَّ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِيهَا حَتَّى انْتَهَتْ بِهِ إِلَى مَجْلِسِ الْقَضَاءِ ، ثُمَّ =

واعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُخْتَبَرُ صِدْقُهُ فِي كُلِّ حَالٍ ، مُطْلَبٌ
نَفْسَهُ بِالْبَلْوَى ^(١) ، رَقِيبٌ لِلَّهِ عَلَى نَفْسِهِ . فَانْتَبَتْ عَلَى
مَحَجَّةِ الْحَقِّ فَإِنَّكَ مُرَادُ الْعَوْنِ ^(٢) .

= عدلَ عنها لإكراماً لنفسه فكان من الغانمين .

قال ابن قُتَيْبَةَ : مرَّ بي بِشْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، فقال : ما
يُجْلِسُكَ هَا هُنَا ؟ قلتُ : خُصُومَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّ لِي ، فقال : إِنَّ
لَأَبِيكَ عِنْدِي يَدًا ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيكَ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَذْهَبَ لِلدِّينِ ،
وَلَا أَنْقَصَ لِلْمَرْوَةِ ، وَلَا أَضْيَعَ لِلذَّئَةِ ، وَلَا أَشْغَلَ لِلْقَلْبِ مِنَ الْخُصُومَةِ .

قال ابن قُتَيْبَةَ : فَقُمْتُ لِأَنْصَرِفَ ، فَقَالَ لِي خَصْمِي : مَا لَكَ ؟ قلتُ :
لَا أُخَاصِمُكَ ، قَالَ : إِنَّكَ عَرَفْتَ أَنَّ الْحَقَّ لِي ؟ قلتُ : لَا ، وَلَكِنْ أَكْرِمُ
نَفْسِي عَنْ هَذَا ، وَتَرَكْتُ الْخُصُومَةَ . حَكَاهَا الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ فِي « الْإِحْيَاءِ » فِي
كِتَابِ آفَاتِ اللِّسَانِ فِي ذِكْرِ (الْآفَةِ الْخَامِسَةِ : الْخُصُومَةُ) .

(١) هَكَذَا جَاءَ مُشْكُولًا فِي الْأَصْلِ ، وَمَعْنَاهُ — عَلَى مَا يَظْهَرُ — أَنَّ
الْمُؤْمِنَ تَقْصِدُ نَفْسُهُ بِالْإِبْتِلَاءِ وَالْإِخْتِبَارِ : وَجَاءَ فِي النُّسخَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ :
(يَطْلُبُ نَفْسَهُ بِالْبَلْوَى) . أَيِ يَمْتَحِنُ نَفْسَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلْوَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٢) وَلَمَّا أَخَذَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، بِمِحْنَةِ مَسْأَلَةِ
(خَلَقَ الْقُرْآنَ) ، وَحُبْسِ ، وَقَيْدِ الْحَدِيدِ فِي رِجْلَيْهِ : لَمْ يُبَالِ بِالْحَبْسِ ،
وَلَا أَنْ يُقْتَلَ بِالسِّيفِ ، وَلَكِنْ خَافَ أَنْ يَضْعُفَ جَسْمُهُ عَنْ تَحْمِيلِ الْعَذَابِ
مِنْ ضَرْبِ السَّيَاطِ ، فَيَضْعُفَ صَبْرُهُ عَلَى الْحَقِّ ! فَجَاءَتْهُ كَلِمَاتُ التَّأْيِيدِ
وَالثَّبِيتِ عَلَى الْحَقِّ ، وَالتَّصْبِيرِ عَلَى الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مِمَّنْ لَا يُظُنُّ
= أَنْ يَأْتِي مِنْهُمْ شَيْءٌ .

.

= جاءته من اللصوص والشُّطَّار وبعض أهل البادية ، فقويت نفسه للصبر على العذاب ، فجُلِدَ ، وخُلِعَت كُفاه ، وضُرِبَ بالسياط ضرباً شديداً حتى غُشي عليه ، فصَبَرَ وانتصر الحقُّ وأحمدُ بن حنبل ، وبطل ما كانوا يعملون ، وقَرَّتْ عيونُ المسلمين أهلِ السُّنَّة بصبره وشجاعته وانتصاره إلى قيام الساعة .

جاء في « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي ص ٣١٦ و ٣٣٢ و ٣٣٥ ما خلاصته : « لما أخذَ أحمد من بغداد ، وسافروا به إلى الرِّقَّة ، فحُبِسَ بها ، ودخلَ عليه بعضُ العلماء يذكرونه فيما يُروى من الأحاديث في العمل بالتقية ، فأبى أحمد أن يسلك التقية قائلاً لهم : كيف تصنعون بحديث خَبَّاب « إنَّ مَنْ كان قبلكم كان يُنشرُ أحدُهم بالمنشار ، ثم لا يصدُّه ذلك عن دينه » . فيشوا منه أن يعمل بالتقية .

فقال لهم : لستُ أبالي بالحبس ، ما هو ومَنزلي إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف ، إنما أخاف فتنةً بالسوط ، وأخاف أن لا أصبر ! فسمِعَه بعضُ أهل الحبس فقال له : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي . فكأنه سُرِّي عنه .

قال أحمد - رضي الله عنه - : ما سمعتُ كلمةً منذ وقعتُ في هذا الأمر الذي وقعتُ فيه ، أقوى من كلمة أعرابي كلمني في رَحْبَةِ طَوِّق - اسم مكان - ، قال لي : يا أحمد إن يَقتُلَكَ الحقُّ ميتٌ شهيداً ، وإن عِشْتَ عِشْتَ حميداً ، فقوي قلبي .

قال ابنه عبد الله : كنتُ كثيراً أسمعُ والدي - أحمد بن حنبل - يقول : رحم الله أبا الهيثم ، غفر الله لأبي الهيثم ، عفا الله عن أبي الهيثم .

فقلت له : يا أبي من أبو الهيثم؟ قال : ألا تعرفه ؟ قلت : لا ، قال : =

واضدُّقْ فِي الطَّلَبِ تَرِثْ عِلْمَ البصائر ، وتَبْدُ لَكَ
 تَيُونُ المعارف ، وَتَمَيِّزُ بِنَفْسِكَ عِلْمَ ما يَرِدُ عَلَيْكَ بِخَالصِ
 التوفيق ، فَإِنِما السَّبْقُ لِمَنْ عَمِلَ ، والخَشْيَةُ لِمَنْ عِلِمَ ،
 والتوكلُ لِمَنْ وَثِقَ ، والخوفُ لِمَنْ أَيْقَنَ ، والمَزِيدُ لِمَنْ شَكَرَ .

واعْلَمْ أَنَّ ما يَصِلُ العَبْدُ إِلَيْهِ مِنَ الفَهِمِ : بِقَدْرِ تَقْدِيمِ
 عَقْلِهِ ^(١) ، وموجودِ عِلْمِهِ بِتَقْوَاهُ لِلَّهِ وَطَاعَتِهِ . فَمَنْ وَهَبَ

= أبو الهيثم الحدَّاد، اليومَ الذي أُخْرِجْتُ فِيهِ لِلسَّيِّطِ ، ومُدَّتْ يَدَايَ لِلْعُقَّابَيْنِ
 — هـما خَشْبَتانِ يُشْبَحُ الرَّجُلُ بَيْنَهُمَا لِيُجْلَدَ — ، إِذا أَنَا بِإِنسانٍ يَجْذِبُ ثَوْبِي
 مِنْ وَرَائِي وَيَقُولُ : تَعْرِفَنِي ؟ قُلْتُ : لا ، قال : أَنَا أَبُو الهَيْثَمِ الْعِيَّارُ — أَيِ النَشِيطِ
 فِي المَعاصِي — ، اللَّصُّ الطَّرَّارُ — أَيِ النَّشَّالِ مِنَ الحَيُوبِ — ، مَكْتُوبٌ فِي دِيوانِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنِّي ضُرِبْتُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَوْطٍ بِالتَّفَارِيقِ ، وَصَبَرْتُ فِي ذَلِكَ
 عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا ، فَاصْبِرْ أَنْتَ فِي طَاعَةِ الرَّحْمَنِ لِأَجْلِ الدِّينِ .

قال أحمد : فَضُرِبْتُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَوْطاً ، بِدَلِّ ما ضُرِبَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ
 أَلْفاً ، وَخَرَجَ الخَادِمُ فَقَالَ : عَفَا عَنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

قال بعضُ الجَلَّادِينَ : لَقَدْ أَبْطَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ الشُّطَّارَ ، وَاللَّهِ لَقَدْ
 ضَرَبْتُهُ ضَرْباً لَوْ أَبْرِكْ لِي بَعِيرٌ فَضَرَبْتُهُ ذَلِكَ الضَّرْبَ ، لَنَقَبْتُ عَنْ جَوْفِهِ !
 وَفِي رِوَايَةٍ ثَانِيَةٍ قَالَ جَلَّادُهُ : لَوْ ضَرَبْتُ تِلْكَ السَّيِّطَ فَيَلَّاهُ لَهَدَّتُهُ ! . انْتَهَى .
 قُلْتُ : فَسَبِّحانِ اللَّهَ ما أَسْرَعَ عَوْنَهُ لِعِبَادِهِ الصَّادِقِينَ .

(١) أَيِ بِقَدْرِ ما يُوَثِّرُ عَقْلَهُ عَلَى هَوَاهُ وَحُظُوظِ نَفْسِهِ . وَجاءَ فِي النِّسْخَةِ
 الْمَغْرِبِيَّةِ : (بِقَدْرِ تَقْدِيمِ عَمَلِهِ) .

اللَّهُ لَهُ الْعَقْلَ ، وَأَحْيَاهُ بِالْعِلْمِ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَبَصَّرَهُ
بِالْيَقِينِ عِيُوبَ نَفْسِهِ : فَقَدْ نُظِمَتْ لَهُ خِصَالُ الْبِرِّ ،
فَاطْلُبِ الْبِرَّ فِي التَّقْوَى ، وَخُذِ الْعِلْمَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ^(١) ،

(١) أشار المؤلف رحمه الله تعالى بقوله : (فاطلب البرَّ في التقوى ...)
إلى أثر عظيم من آثار التقوى وهو البرَّ ، وهي كلمة شاملة لأنواع الخير . وقد
عدَّدَ العلامة الفيروز آبادي في كتابه « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب
العزيز » ٢ : ٣٠١ - ٣٠٣ آثارَ التقوى وبشائرَها التي جاءت في القرآن الكريم ،
فبلغت سبعةً وعشرين بشارةً ، وإليك بيانها كما أوردها ، قال رحمه الله تعالى :
« وأما البِشَارَاتُ التي بَشَّرَ اللهُ تعالى بها المتقين في القرآن فسبع وعشرون
بشارة .

- الأولى : البُشْرَى بالكِرامات ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ .
- الثانية : البُشْرَى بِالْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ .
- الثالثة : البُشْرَى بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ﴿ إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .
- الرابعة : البُشْرَى بِكَفَارَةِ الذُّنُوبِ وَتَعْظِيمِ الْمُتَّقِي بِتَعْظِيمِ أَجْرِهِ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ .
- الخامسة : (سقطت هذه البشارة من المطبوعة فتنظر في مخطوطة من الكتاب) .
- السادسة : البُشْرَى بِالْمَغْفِرَةِ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .
- السابعة : الْيُسْرُ وَالسَّهُولَةُ فِي الْأَمْرِ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ .
- الثامنة : الْخُرُوجُ مِنَ الْغَمِّ وَالْمِحْنَةِ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ .

.

= التاسعة : رزقٌ واسعٌ بأمنٍ وفراغٍ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ .
 العاشرة : النجاةُ من العذابِ والعقوبةِ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ .
 الحادية عشرة : الفوزُ بالمرادِ ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ .
 ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ .

الثانية عشرة : التوفيقُ والعصمةُ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
 إلى قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ .

الثالثة عشرة : الشهادةُ لهم بالصدقِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُتَّقُونَ﴾ .

الرابعة عشرة : بشارةُ الكرامةِ والأكرميةِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .
 الخامسة عشرة : بشارةُ المحِبِّ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .
 السادسة عشرة : الفلاحُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .
 السابعة عشرة : نيلُ الوصالِ والقربةِ ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ .
 الثامنة عشرة : نيلُ الجزاءِ بالمحنةِ ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
 يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

التاسعة عشرة : قبولُ الصدقةِ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ .
 العشرون : الصفاءُ والصفوةُ ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ .
 الحادية والعشرون : كمالُ العبوديةِ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ .
 الثانية والعشرون : الجناتُ والعُيونُ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ .

وَأَسْتَجْلِبِ الصَّدَقَ بِمَبَاحِثِ الصَّدَقِ فِي مَوَاطِنِ التَّفَكُّرِ . قَالَ
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ^(١) . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
 « تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ فَإِنِّي أَتَعَلَّمُهُ » ^(٢) .

= الثالثة والعشرون : الأَمْنُ مِنَ الْبَلِيَّةِ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ .
 الرابعة والعشرون : عِزُّ الْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْخَلْقِ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

الخامسة والعشرون : زَوَالُ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ مِنَ الْعُقُوبَةِ ﴿ فَمَنْ أَتَّقَى
 وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

السادسة والعشرون : الْأَزْوَاجُ الْمَوَافِقَةُ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا .
 حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا . وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ .

السابعة والعشرون : قُرْبُ الْحُضْرَةِ وَاللِقَاءِ وَالرُّؤْيَةِ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
 جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ ﴾ . « انتهى
 بتصريف يسير .

(١) من سورة الأنعام : ٦ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ٦ : ٩٥ عن ثور بن يزيد مرسلًا ،
 بلفظ : « تعلموا اليقين ، كما تعلموا القرآن ، حتى تعرفوه ، فاني أتعلّمه » . وفي
 سنده : بقیةُ بن الوليد الحمصي ، وهو معروف بالتدليس ، وقد عنعن ،
 وشيخه العباسُ بن الأخنس السكسكي قال عنه الذهبي في الميزان : إنه =

واعلم أنَّ كلَّ عَقْلٍ لَا يَصْحَبُهُ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ فَهُوَ عَقْلٌ
مَكَّارٌ ^(١) : إِيثَارُ الطَّاعَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، وَإِيثَارُ الْعِلْمِ عَلَى
الْجَهْلِ ، وَإِيثَارُ الدِّينِ عَلَى الدُّنْيَا ، وَكُلُّ عِلْمٍ لَا يَصْحَبُهُ
ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ فَهُوَ مَزِيدٌ فِي الْحُجَّةِ : كَفُّ الْأَذَى بِقَطْعِ
الرَّغْبَةِ ، وَوُجُودُ الْعَمَلِ بِالْخَشْيَةِ ، وَبَذْلُ الْإِنْصَافِ بِالتَّبَادُلِ
وَالرَّحْمَةِ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا تَزَيَّنَ أَحَدٌ بِزِينَةٍ كَالْعَقْلِ ^(٢) ، وَلَا لِبَسٍ

= مجهول . فالحديثُ ضعيفٌ واه ، ومعناه غريب ، وفيه وقفةٌ نحويةٌ في « كما
تعلموا » لحذفِ النونِ مع أنه في حالة الرفع .

ثم رأيتُ الحافظَ العراقيَّ أوردَه في « تخرِيجِ أحاديثِ الإحياء » ١ : ١٢٢
وقال : « أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلًا ، وهو مُعْضَلٌ ،
ورواه ابنُ أبي الدنيا في « اليقين » من قولِ خالد بن معدان » انتهى . وهو
أقربُ إلى الصواب . قال الإمام الغزالي : ومعنى قولِهِ « تعلموا اليقين » :
جالسوا الموقنين ، واستمعوا منهم عِلْمَ اليقين ، وواظبوا على الاقتداءِ بِهِمْ
ليَقْوَى بِقِيْنِكُمْ كما قَوِيَ بِقِيْنِهِمْ .

(١) أي عَقْلٌ مُخَادِعٌ يُزَيِّنُ لِصَاحِبِهِ الشَّرَّ خَيْرًا . ووقع في الأصلين :
(فهو عقل مكاد) أي بالدال المهملة . وهو تحريف .

(٢) قال التابعي الجليل عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ رحمه الله تعالى : أفضَلُ ما
أُعْطِيَ الْعِبَادُ فِي الدُّنْيَا الْعَقْلُ ، وَأفضَلُ ما أُعْطُوا فِي الْآخِرَةِ : رِضْوَانُ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ . كما في كتاب « العقل وفضله » لابن أبي الدنيا ص ١٣ .

ثَوْبًا أَجْمَلَ مِنَ الْعِلْمِ^(١) ، لَأَنَّهُ مَا عُرِفَ اللَّهُ إِلَّا بِالْعَقْلِ ،

(١) قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : « لو كان للعلم صورةٌ لكانت صورتهُ أحسنَ من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء .

وقال مُعَاذُ بن جبل رضي الله عنه : العلمُ حياةُ القلوب من الجهل ، ومصباحُ الأبصار من الظلمة ، وقوةُ الأبدان من الضعف ، يَبْلُغُ بالعبد مَنَازِلَ الأخيار والأبرار ، والدرجات العُلَى في الدنيا والآخرة . والتفكيرُ فيه يَعْدِلُ الصيامَ ، ومذاكرتهُ تَعْدِلُ القيامَ ، وبه تُوصَلُ الأرحام ، ويعُرَفُ الحلالُ من الحرام . وهو إمامٌ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ ، وَيُلْهَمُهُ السُّعْدَاءُ ، وَيُحَرِّمُهُ الأَشْقِيَاءُ . نقله الحافظ ابن رجب في « شرح حديث العلم » ص ٣٣ و ٣٥ .

وقال العلامة الفيروز آبادي في « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ١ : ٤٢ « واعلم أنه تبيين في علم الأخلاق أن الفضائل الإنسانية التي هي الأمتها أربع ، وهي : العلم ، والشجاعة ، والعِفَّةُ ، والعدل . وما عدا هذه فهي فروع عليها أو تضاف إليها .

فالعلمُ فضيلةُ النفس الناطقة . والشجاعةُ فضيلةُ النفس الغَضَبِيَّةِ . والعِفَّةُ فضيلةُ النفس الشهوانية . والعدلُ فضيلةُ عامةٍ في الجميع .

ولا شك أن النفس الناطقة أشرفُ هذه النفوس ، ففضيلتها أشرفُ هذه الفضائل أيضا ، لأن تلك لا توجد كاملة إلا بالعلم ، والعلمُ يَتِمُّ ويوجد كاملاً بدونها ، فهو مستغن عنها ، وهي مفتقرة إليه ، فيكون العلمُ أشرفَ » .

وقال العلامة نصير الدين الطوسي في أول رسالته « آداب المعلمين » : « شَرَفُ العلم لا يخفى على أحد ، إذ العلمُ هو المختصُّ بالإنسانية ، لأن جميع الحصول سوى العلم يَشْرِكُ فيه الإنسانُ وسائرُ الحيوانات كالشجاعة والقوة والشفقة وغيرها . وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة =

ولا أُطِيعَ إِلَّا بِالْعِلْمِ^(١) .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ بَنَوْا أُصُولَ الْأَحْوَالِ عَلَى شَاهِدِ الْعِلْمِ^(٢) ، وَتَفَقَّهُوا فِي الْفُرُوعِ ،^(٣) أَلَا تَرَى لِقَوْلِ ،

= وَأَمَرَهُمْ بالسَّجُودِ لَهُ . وَأَيْضًا هُوَ الْوَسِيلَةُ لِلْوُصُولِ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَةِ إِنْ وَقَعَ الْعَمَلُ عَلَى مَقْتَضَاهُ .

(١) هَذَا مِنَ الْمُؤَلَّفِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمُحَاسِنِيِّ يُفِيدُ أَنَّ الْعَقْلَ أَفْضَلَ مِنَ الْعِلْمِ وَهُوَ الْحَقُّ ، وَفَضَّلَ بَعْضُهُمُ الْعِلْمَ عَلَى الْعَقْلِ ، وَأَدَارَ بَيْنَهُمَا حِوَارًا لَطِيفًا ، أَبَدَى فِيهِ كُلُّ مُنْهَمَا فَضْلَهُ عَلَى الْآخَرِ فَقَالَ عَلَى لِسَانِهِمَا :

عِلْمُ الْعَلِيمِ وَعَقْلُ الْعَاقِلِ اخْتَلَفَا مِنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أُحْرَزَ الشَّرَفُ ؟
فَالْعِلْمُ قَالَ : أَنَا أُحْرَزْتُ غَايَتَهُ وَالْعَقْلُ قَالَ : أَنَا الرَّحْمَنُ فِي عُرْفَا
فَأَفْصَحَ الْعِلْمُ إِفْصَاحًا وَقَالَ لَهُ : بَأَيُّنَا اللَّهُ فِي فُرْقَانِهِ اتَّصَفَا ؟
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدُهُ فَقَبَّلَ الْعَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وَانْصَرَفَا

وَقَدْ فَاتَ هَذَا الْقَائِلَ : أَنَّ الْعَقْلَ مَنِيْعُ الْعِلْمِ وَأَصْلُهُ ، وَأَنَّ الْعِلْمَ يَجْرِي مِنَ الْعَقْلِ مَجْرَى النُّورِ مِنَ الشَّمْسِ وَالرُّؤْيَا مِنَ الْعَيْنِ : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وَرَحِمَ اللَّهُ الْمُؤَلَّفَ الْمُحَاسِنِي إِذْ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ « الرِّعَايَةُ » « مِثْلُ الْعَقْلِ مِثْلُ الْبَصَرِ ، وَمِثْلُ الْعِلْمِ مِثْلُ السِّرَاجِ ، فَمَنْ لَا بَصَرَ لَهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالسِّرَاجِ ، وَمَنْ لَهُ بَصَرٌ بَلَا سِرَاجٍ لَا يَرَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ » .

(٢) وَقَعَ فِي الْأَصْلَيْنِ : (بَيْنُوا أُصُولَ الْأَحْوَالِ عَلَى شَاهِدِ الْعِلْمِ) .

(٣) سَبَقَ تَعْلِيْقًا فِي ص ٨٢ - ٨٤ عَنْ الشَّيْخِ الشَّعْرَانِيِّ وَالْحَافِظِ ابْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ كَلَامًا يَتَّصِلُ بِوُجُوبِ التَّزَامِ جَانِبِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَالْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ... فَانْظُرْهُ .

النبي ﷺ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ، وَرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١) . وعلامة ذلك هو تزايد العلم بالإشفاق ، ومزيد العلم بالاعتذار ، فكلما ازداد علماً ازداد خوفاً (٢) ، وكلما ازداد عملاً ازداد تواضعاً (٣)

والأصل الذي بنوا به في طريقهم (٤) : التزم الأمر

(١) هذا ليس بحديث ، وإنما هو - فيما يروى - من كلام عيسى بن مريم عليه السلام . قال الحافظ أبو نعيم في « الحلية » ١٠ : ١٥ بعد أن ساقه بسنده مرفوعاً ما نصه « ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام ، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع هذا الإسناد عليه » انتهى .

وقول الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » ١ : ١٢٢ : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » من حديث أنس وضعفه : فيه قصور ، إذ لم يضعه أبو نعيم بل قال بوضع سنده ، كما سبق نص عبارته .

(٢) وما أصدق ما نُقِلَ عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال :

على قدر علم المرء يعظم خوفه

فلا عالم إلا من الله خائف

وآمن مكر الله بالله جاهل

وخائف مكر الله بالله عارف

(٣) جاء في الأصل : (وكلما ازداد علماً ازداد تواضعاً) . فأثبتته كما

ترى .

(٤) وقع في الأصلين : (والأصل الذي بينوا ...) . ولفظ (به) غير

موجود في النسخة المغربية .

بالمعروف والنهي عن المنكر بالصدق^(١) ، وتقديم العلم على
حُظوظ النفوس^(٢) ، والاستغناء بالله عن جميع خلقه^(٣) .
فاطلب آثار من زاده العلم خشيةً ، والعمل بصيرةً^(٤) ،

(١) وتقدم تعليقاً في ص ٥٣ كلام حسن للشيخ ابن القيم في عبودية
القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فعُد إليه .

(٢) وإليك هذا الخبر عن الإمام ابن الجوزي ، لتشهد منه تقديم العلم
على حظوظ النفوس . قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة
(الإمام أبي الفرج ابن الجوزي) ٤ : ١٣٤٢ - ١٣٤٥ ما ملخصه : « هو
الإمام العلامة الحافظ ، عالم العراق ، وواعظ الآفاق ، كان لطيف الصورة ،
حلو الشمائل ، رخيخ النغمة ، موزون الحركات والتغمّات ، لذيد المفاكهة ،
وله في السجع الوعظي ملكة قوية .

وكان يحضر مجلس وعظه الألوف المؤلفة ، وقُدِّر ذلك بمئة ألف ،
وحصل له من الحظوة في الوعظ ما لم يحصل لأحد قط ، وحضر مجالسته
ملوك ووزراء ، بل وخلفاء من وراء الستّر ، - وكان الناس يستعدون لحضور
درسه قبل يوم أو يومين ، ويستأجرون الأماكن لذلك - .

قال له رجل : ما نمتُ البارحة من شوقي إلى المجلس ، قال : لأنك تُريد
الفُرجة ، وإنما ينبغي الليلة أن لا تنام . انتهى . فرحم الله الإمام ابن الجوزي
ما أيقظ قلبه ولُبّه ؟ إذ ردَّ هذا الغافل من حظّ النفس إلى حقّ العلم .

(٣) وقع في الأصل : (والاشتغال بالله عن جميع خلقه) . وهو تحريف .

(٤) وما أجمل بصيرة الإمام البخاري رحمه الله تعالى في علمه وفي عمله ،
أما في علمه فشيء مشهور في كتابه « صحيح البخاري » وغيره كما يعلمه أهل =

وَالْعَقْلُ مَعْرِفَةٌ ، فَإِنْ حَجَبَكَ عَنْ مِنْهَا جِهَهُمْ فَقَدْ الْأَدَبُ ،
فَارْجِعْ بِالذِّمِّ عَلَى نَفْسِكَ ، وَلَنْ يَخْفَى عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ
صِفَةُ الْمُخْلِصِينَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي كُلِّ فِكْرَةٍ أَدَبًا ، وَفِي كُلِّ إِشَارَةٍ عِلْمًا ،
وإنَّمَا يُمَيِّزُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُرَادَهُ ، وَجَنَى
فَوَائِدَ الْيَقِينِ مِنْ خِطَابِهِ .

وعلامة ذلك في الصادق : إِذَا نَظَرَ اعْتَبَرَ ، وَإِذَا صَمَتَ
تَفَكَّرَ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ ذَكَرَ ، وَإِذَا مُنِعَ صَبَرَ ، وَإِذَا أُعْطِيَ
شَكَرَ ، وَإِذَا ابْتُلِيَ اسْتَرْجَعَ ، وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْهِ حَلَّمَ ،
وَإِذَا عَلِمَ تَوَاضَعَ ، وَإِذَا عَلِمَ رَفَقَ ، وَإِذَا سُئِلَ بَذَلَ .
شَفَاءٌ لِلْقَاصِدِ ، وَعَوْنٌ لِلْمُسْتَرْشِدِ ، حَلِيفُ صِدْقٍ ،

= العلم . وأما في عمله فممنه ما حكاه الحافظ ابن حجر في «هدي الساري مقدمة
فتح الباري» ٢ : ١٩٦ في خلال ترجمة الإمام البخاري ، قال رحمه الله تعالى :
« قال محمد بن منصور : كنا في مجلس أبي عبد الله البخاري ، فرفعَ
إنسانٌ قِذَاءً من لحيته وطرحها إلى الأرض ، فرأيتُ البخاريَّ ينظرُ إليها وإلى
الناسِ ، فلما غَفَلَ الناسُ رأيتهُ مَدَّ يدهُ فرفع القِذَاءَ من الأرض فأدخلها في
كُمِّهِ ، فلما خرج من المسجد رأيتهُ أخرجها وطرحها على الأرض » . انتهى .
فقد صان رحمه الله تعالى أرضَ المسجد عما تُصَانُ عنه لِحِيَّتُهُ ، إنها بصيرةُ
العلم والعمل . ﴿ فِيهِدَا هُمُ اقْتَدِهِ ﴾ .

وَكَهْفُ بَرٍّ ، قَرِيبُ الرُّضَا فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، بَعِيدُ الْهِمَّةِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى .

نَيْتُهُ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِهِ ، وَعَمَلُهُ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ ، مَوْطَنُهُ الْحَقُّ ، وَمَعْقِلُهُ الْحَيَاءُ ، وَمَعْلُومُهُ الْوَرَعُ ، وَشَاهِدُهُ الثِّقَةُ ، لَهُ بَصَائِرُ مِنَ النُّورِ يُبْصِرُ بِهَا ، وَحَقَائِقُ مِنَ الْعِلْمِ يَنْطِقُ مِنْهَا ، وَدَلَائِلُ مِنَ الْيَقِينِ يُعْبِّرُ عَنْهَا ^(١) .

(١) ما أجملَ هذه الصفات وأجلّها ؟ وما أعظمها مجتمعةً متحققةً في العبد المسلم ؟ وقد كان في سلفنا الصالح من هذا النوع النفيس أعدادٌ لا تُحصى .

ورحم الله تعالى شيخ الإسلام ابن تيمية ، إذ جدّد بعظيم سيرته تاريخ الأسلاف في هذه الصفات ، فانه لما نزلت به المحنة ، وحبس في قلعة دمشق ، وقطّيع عن الناس ، وسُجن معه تلميذه ابن القيم منفرداً عنه حتى مات الشيخ في السجن : كانت حاله في ارتياح وسرور ورضا غامر ، وكان كما قال المؤلف رحمه الله تعالى :- « .. له بصائرٌ من النور يُبْصِرُ بها ، وحقائقٌ من العلم يَنْطِقُ منها ، ودلائلٌ من اليقين يُعْبِرُ عنها » ، فكان السجنُ له خلوةً ، وكان يشكر الله على ذلك شكراً عظيماً ...

يَصِفُ ابنُ القيم في كتابه « الوابل الصيب » ص ٦٦ - ٦٧ حالَ الشيخ وحالَ نفسه آنذاك فيقول : « قال لي مرّةً : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبُستاني في صدري - يعني بذلك : إيمانه وعلمه - ، أين رُحْتُ فهي معي لا تفارقني . إنَّ حبسِي خَلْوَةٌ ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة . وكان يقول في مَحْبِسِهِ في القلعة : لو بذلتُ لهم ملءَ هذه القلعة ذهباً ما =

وَأِنَّمَا يُوَاصِلُ بِذَلِكَ مَنْ جَاهَدَ اللَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ ، وَاسْتَقَامَتْ
لِطَاعَتِهِ نَبِيَّتُهُ ، وَخَشِيَ اللَّهَ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَقَصَرَ الْأَمَلَ ،
وَشَمَّرَ مِثْرَرَ الْحَذَرِ ، وَأَقْلَعَ بِرِيحِ النَّجَاةِ فِي بَحْرِ الْابْتِهَالِ ،

= عدلَ عِنْدِي شَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ ، أَوْ قَالَ : مَا جَزَيْتُهُمْ عَلَى مَا تَسَبَّوْا لِي
فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ .

وَكَانَ يَقُولُ فِي سَجُودِهِ وَهُوَ مَجْبُوسٌ : اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ
وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ ، مَا شَاءَ اللَّهُ .

وَقَالَ لِي مَرَّةً : الْمَجْبُوسُ مِنْ حُبْسِ قَلْبِهِ عَنِ رَبِّهِ تَعَالَى ، وَالْمَأْسُورُ مِنْ
أَسْرِهِ هُوَاهُ . وَلَمَّا دَخَلَ الْقَلْعَةَ وَصَارَ مِنْ دَاخِلِ سُورِهَا ، نَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ :
﴿ فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴾ .

وَعَلَّمَ اللَّهُ : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَطْيَبَ عَيْشًا مِنْهُ قَطْ ، مَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ
ضَيْقِ الْعَيْشِ وَخِلَافِ الرِّفَاقَةِ وَالنَّعِيمِ بَلْ ضِدِّهِمَا ، وَمَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْحَبْسِ
وَالْتَهْدِيدِ وَالْإِرْجَافِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا ، وَأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا ،
وَأَقْوَاهُمْ قَلْبًا ، وَأَسْرَهُمْ نَفْسًا ، تَلُوحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ عَلَى وَجْهِهِ .

وَكَانَ إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الْخَوْفَ ، وَسَاءَتْ مِنَّا الظُّنُونُ ، وَضَاقَتْ بِنَا الْأَرْضُ ،
أَتَيْنَاهُ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ وَنَسْمَعَ كَلَامَهُ ، فَيَذْهَبَ عَنَّا ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَيَنْقَلِبَ
إِنْشِرَاحًا وَقُوَّةً وَيَقِينًا وَطُمَأْنِينَةً . وَكَانَ يَقُولُ : إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا
لَا يَدْخُلُ جَنَّةَ الْآخِرَةِ .

فَسَبَّحَانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَتَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دَارِ
الْعَمَلِ ، فَأَتَاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطِيبِهَا مَا اسْتَفْرَغَ قُؤَاهُمْ لَطْفُهَا وَالْمَسَابَقَةَ
إِلَيْهَا » .

فَأَوْقَاتُهُ غَنِيمَةٌ ، وَأَحْوَالُهُ سَلِيمَةٌ ، لَمْ يَغْتَرَّ بِزُخْرَفِ دَارِ
الْغُرُورِ ، وَلَمْ يَلُهُ بِبَرِّيقِ سَرَابٍ نَسِيمَهَا عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ
النُّشُورِ ^(١) .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَاقِلَ لَمَّا صَحَّ عِلْمُهُ وَثَبَتَ يَقِينُهُ : عَلِمَ أَنَّ
لَا يُنَجِّيه مِنْ رَبِّهِ إِلَّا الصَّدْقُ ، فَسَعَى فِي طَلَبِهِ ، وَبَحَثَ عَنْ
أَخْلَاقِ أَهْلِهِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَحْيَى قَبْلَ مَمَاتِهِ ^(٢) ، لِيَسْتَعِدَّ
لِدَارِ الْخُلُودِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَبَاعَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ مِنْ رَبِّهِ حَيْثُ
سَمِعَهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ ^(٣) .

فَعَلِمَ بَعْدَ الْجَهْلِ ، وَاسْتَغْنَى بَعْدَ الْفَقْرِ ، وَأَنَسَ بَعْدَ
الْوَحْشَةِ ، وَقَرُبَ بَعْدَ الْبُعْدِ ، وَاسْتَرَاخَ بَعْدَ التَّعَبِ ،
فَانْتَلَفَ أَمْرُهُ ، وَاجْتَمَعَ هَمُّهُ .

فَشِعَارُهُ الثَّقَةُ ، وَحَالُهُ الْمُرَاقَبَةُ ، أَلَا تَرَى لِقَوْلِ

(١) وقع في الأصلين : (ولم يله ببريق شراب نسيمها) . وهو تحريف .

(٢) كذا جاء في الأصلين . ولعلَّ معناه : أن يَغْنَمَ حَيَاتِهِ قَبْلَ مَمَاتِهِ ؟
عملاً بالحديث « اغتَمَّ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ » ...

(٣) من سورة التوبة : ١١١ .

رسول الله ﷺ : « اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ^(١) . يَحْسِبُهُ الْجَاهِلُ صِمْتًا عَيْبًا ^(٢) ، وَحِكْمَتُهُ أَصَمَّتُهُ ، وَيَحْسِبُهُ الْأَحْمَقُ مَهْذَارًا ، وَالنَّصِيحَةُ لِلَّهِ أَنْطَقَتْهُ . وَيَحْسِبُهُ غَنِيًّا ، وَالتَّعَفُّفُ أَغْنَاهُ ، وَيَحْسِبُهُ فَقِيرًا ، وَالتَّوَاضُّعُ أَدْنَاهُ .

لَا يَتَعَرَّضُ لِمَا لَا يَغْنِيهِ ، وَلَا يَتَكَلَّفُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ ، وَلَا يَأْخُذُ مَا لَيْسَ بِمُحْتَاجٍ إِلَيْهِ ، وَلَا يَدْعُ مَا وَكَّلَ بِحِفْظِهِ ، النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ ، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ فِي تَعَبٍ ، قَدْ أَمَاتَ بِالْوَرَعِ حِرْصَهُ ، وَحَسَمَ بِالتَّقَى طَمَعَهُ ، وَأَفْنَى بِنُورِ الْعِلْمِ شَهَوَاتِهِ .

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم في « الحلية » ٨ : ٢٠٢ عن زيد بن أرقم مرفوعاً ، وذكره السيوطي في « الجامع الصغير » معزواً لأبي نعيم ، وقال شارحه المناوي في شرحه الصغير : « التيسير بشرح الجامع الصغير » ١ : ١٦٧ إنه بهذا اللفظ حديث حسن لا اعتضاده بحديث آخر . والجملة المذكورة منه هنا جاءت بنحو هذا اللفظ في « صحيح مسلم » في حديث سؤال جبريل عن الإحسان .

(٢) جاء في الأصل هكذا : (صحيا) . وجاء في النسخة المغربية : (محيا) . وأقرب ما يفهم من رسم هذين اللفظين ما أثبت ، والله أعلم بالصواب .

فَهَكَذَا فَكُنْ ، وَلِمِثْلِ هَؤُلَاءِ فَاصْحَبْ ^(١) ، وَلَا تَأْثَرِهِمْ
فَاتَّبِعْ ، وَبِاخْلَاقِهِمْ فَتَأَدَّبْ ، فَهَؤُلَاءِ الْكَتَرُ الْمَأْمُونُ ^(٢) ،

(١) وَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ عُدِدْتَ مِنْهُمْ ، وَإِذَا صَحَبْتَ أَوْلَكَ حُسِبْتَ
مَعَهُمْ ، وَفُزْتَ بِسَبَبِ صَحْبَتِهِمْ ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي
« صَحِيحِهِ » ١٧ : ١٤ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ سَيَّارَةٌ يَطُوفُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَإِذَا صَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ
سَأَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : جِئْنَا مِنْ عِنْدِ
عِبَادِكَ فِي الْأَرْضِ ، يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيُهَلِّلُونَكَ ، وَيُحَمِّدُونَكَ
وَيَسْأَلُونَكَ ، وَيَسْتَغْفِرُونَكَ ، فَيَقُولُ : قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا ،
وَأَجْرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا ، فَيَقُولُونَ : رَبِّ فِيهِمْ فَلَانٌ عَبْدٌ خَطَاءٌ ، إِنَّمَا مَرَّ
فَجَلَسَ مَعَهُمْ ، فَيَقُولُ : وَلَهُ غَفَرْتُ ، هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »
وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قَالَ الشَّاعِرُ الْحَكِيمُ :

بِعِشْرَتِكَ الْكَرَامَ تَعُدُّ مِنْهُمْ فَلَا تُرَيِّنْ لِغَيْرِهِمْ أَلُوفًا

وَلِشَيْخِ شَيْوَنَا الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ بَشِيرِ الْغَزَوِيِّ الْحُلَيْيِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى آيَاتٌ
لَطِيفَةٌ ، أَصْلُهَا بِالْفَارْسِيَّةِ ، فَتَنَظَّمُهَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَزَادَهَا رَقَّةً وَذَوْقًا فَقَالَ عَلَى
لِسَانِ « التُّرَابَةِ الْحَلَبِيَّةِ » الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْعَامَّةِ بِاسْمِ (بِلُونِ بَوْرْد) :

رَأَيْتُ الطِّينَ فِي الْحَمَامِ يَوْمًا بَكَفِّ الْحَبِّ أَثَرَ ثُمَّ نَسَمَ
فَقُلْتُ لَهُ : أَمْسُكَ أَمْ عَبِيرٌ ؟ لَقَدْ صَيَّرْتَنِي بِالْحَبِّ مُغْرَمَ
أَجَابَ الطِّينُ أَنِّي كُنْتُ تُرْبًا صَحَبْتُ الْوَرْدَ صَيَّرْتَنِي مُكْرَمَ
أَلِفْتُ أَكَابِرًا وَازْدَدْتُ عِلْمًا كَذَا مِنْ عَاشِرِ الْعُلَمَاءِ يُكْرَمَ

(٢) يَشِيرُ بِقَوْلِهِ (الْكَتَرُ الْمَأْمُونُ) إِلَى أَنَّ صَحْبَةَ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مَحْضٍ وَنَفْعٌ
مَحَقَّقٌ ، لَا فِتْنَةَ فِيهَا ، وَلَا مَغَبَّةَ مِنْهَا ، بِخِلَافِ (الْكَتَرِ الْمَدْفُونِ) ، فَانْهَذَا =

بَائِعُهُمْ بِالْدُّنْيَا مَغْبُونٌ ^(١) ، وَهُمْ الْعُدَّةُ فِي الْبَلَاءِ ، وَالثَّقَاتُ
 مِنَ الْأَخِلَاءِ ، إِنْ افْتَقَرْتَ أَغْنَوْكَ ، وَإِنْ دَعَا الرَّبَّ لَمْ
 يَنْسُوكَ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٢)
 وَاعْلَمْ - وَسَعَّ اللَّهُ بِالفَهْمِ قَلْبَكَ ، وَأَنَارَ بِالْعِلْمِ صَدْرَكَ ،
 وَجَمَعَ بِالْيَقِينِ هَمَّكَ - أَنِّي وَجَدْتُ كُلَّ بَلَاءٍ دَاخِلٍ عَلَى
 الْقَلْبِ - ضَرُورَةً ^(٣) - مِنْ نَتَائِجِ الْفُضُولِ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ
 الدُّخُولُ فِي الدُّنْيَا بِالْجَهْلِ ، وَنَسْيَانُ الْمَعَادِ بَعْدَ الْعِلْمِ .
 وَالنَّجَاةُ مِنْ ذَلِكَ تَرْكُ كُلِّ مَجْهُولٍ فِي الْوَرَعِ ^(٤) ،

= وقع لبعض الناس العثورُ على كثر من المال، كان له ذلك فتنةً في دينه وأمانته
 وخلقه وسلوكه، وضرراً عليه في دنياه وآخرته . ولذلك وصفَ صحبتهم بـ (الكثر
 المأمون) ، ولم يصفها بـ (الكثر المدفون) لما أشرتُ إليه . فرحم الله هذا
 الإمام المحاسبيَّ ما أعمقَ نظره وأدقَ فكره .

(١) أي : لو حصلَ الإنسانُ الدنيا ، وفاته صُحبةٌ هؤلاء ، فهو
 مغبونٌ مخدوعٌ في رضاه بالدنيا بدلاً عنهم ، وقد صدقَ رحمه الله تعالى .

(٢) من سورة المُجَادِلَةِ : ٢٢ .

(٣) أي قطعاً وبقيناً .

(٤) أي في حكم الورع . والله دَرُّ الإمام أبي حنيفة ما أورهه وما أراحه
 لسلامة نفسه ، قال العلامة ابن حجر الهيتمي في « الخيرات الحسان في مناقب
 أبي حنيفة النعمان » ص ٤٣ « أَرْسَلَ أَبُو حنيفةَ لشرِيكَه متاعاً فيه ثوبٌ مَعِيبٌ ،
 يَبِيعُهُ وَيُبَيِّنُ ما فيه من العيب ، فباعه ولم يُبَيِّنِ العيبَ نسياناً ، وَجَهْلَ =

وَأَخْذُ كُلِّ مَعْلُومٍ فِي الْيَقِينِ ^(١) .

= المشتري ، فلما علم أبو حنيفة تصدَّق بثمان المتاع كله ، وكان ثلاثين ألفَ درهم ، وفاصلَ شريكه - أي فارقه - . انتهى .

وهذه صورة ثانية من صُور الورع - وما أكثرها في تاريخ سَلَفنا - ، قال ابن العماد في « شَدَرَات الذهب » ٥ : ٤٠٦ في ترجمة الإمام شمس الدين محمد بن عبد الرحيم المقدسي الحنبلي الدمشقي ، المتوفى سنة ٦٨٨ رحمه الله تعالى : « قال الذهبي : كان إماماً فقيهاً محدثاً زاهداً عابداً ، كثيرَ الخير ، له قدم راسخة في التقوى ، وكان متقللاً من الدنيا .

حُكي لي عنه أنه كان يَحْفِرُ مكاناً في جبل الصالحية لبعض شأنه ، فوجد جَرَّةً مملوءةً دنائير ، وكانت زوجته معه تُعِينُهُ عَلَى الحفر ، فاسترجع - أي قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ عَدَّ ذلك فِتْنَةً له ومِحْنَةً أي اختباراً - ، وطَمَّ المكان كما كان أولاً ، وقال لزوجته : هذه فتنة ، ولعل لها مستحقين لا نعرفهم ، وعاهدها على أنها لا تُشْعِرُ بذلك أحداً ، ولا تتعرض إليه ، وكانت صالحةً مثله ، فتركا ذلك تورُّعاً مع فقرهما وحاجتهما . وهذا غايةُ الورع والزهد » .

(١) أي أَخْذُ ما عُلِمَ يقيناً أنه حلال . وإذا وقع لك اشتباه في أمر من الأمور ، أو غَمَضْتَ عَلَيْكَ قضية من القضايا ، فلا تحتكم فيها للعقل وحده ، فانه يَضَعُفُ وَيَقْوَى ، ويتأثر بالعواطف والمؤثرات ، ولكن احتكم فيها للشرع ، فانه خيرُ هادٍ لك فيما تبتغيه أو تشتبه فيه ، وما أجمل قول بعض الحكماء :

الشرعُ أعظمُ مُرْشِدٍ	في ظُلْمَةِ الشُّبْهِ الْبَهِيمَةِ
والعقلُ يَقْفُوهُ وَلَوْ	لَاهُ لَكُنَّا كَالْبَهِيمَةِ
فَاتَّبَعْنَاهُمَا وَلَمْ نَلْحَا	لَكَ عَلَيْهِمَا قُلُوبٌ : يَا بَهِيمَةَ

=

وَوَجَدْتُ فِسَادَ الْقَلْبِ فِسَادَ الدِّينِ ، أَلَا تَرَى لِقَوْلِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ
صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا
وَهِيَ الْقَلْبُ » ^(١) . ومعنى الجسد - هاهنا - : الدين ^(٢) ،
لأنَّ بالدين صلاحَ الجوارح وفسادَها .

وَأَصْلُ فِسَادِ الْقَلْبِ تَرْكُ الْحَاسِبَةِ لِلنَّفْسِ ، وَالْإِغْتِرَارُ
بَطُولِ الْأَمَلِ ، فَإِذَا أَرَدْتَ صِلَاحَ قَلْبِكَ فَقِفْ مَعَ الْإِرَادَةِ ،
وَعِنْدَ الْخَوَاطِرِ ، فَخُذْ مَا كَانَ لِلَّهِ ، وَدَعْ مَا كَانَ لِغَيْرِهِ ^(٣) ،

= وفي قوله (يا بهيمه) تورية ، إذ المقصود : (يا بهي - أي يا جميل -
مه) ، أي اكفُفْ عن لومي في اتباع الشرع الناصح والعقل المستنير به .
وَكُتِبَتْ (يا بهيمه) موصولةً لإحكام التورية نطقاً وكتابةً أيضاً . وقد قرَّرَ هذا
الحكيم ما قرَّره العلماء وهو : أن الشرعَ عِصْمَةٌ للعقل ، والعقلُ نِبراسٌ للشرع .
وتقدم تعليقاً في ص ٩٩ كلام حسن في تفضيل العقل على العلم . فعُدْ إليه .

(١) هو بعضُ حديثٍ رواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن
النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) كذا في الأصلين . وفي هذا التفسير غرابةٌ وبُعْدٌ شديد ، فإنَّ
الحديثَ ظاهرٌ في إرادةِ الجسدِ الحقيقي .

(٣) قال الشيخ الفقيه الصالح أحمد بن رسلان الشافعي رحمه الله تعالى في
آخر « متن الزُّبَد » :

=

وَأَسْتَعِينُ عَلَى قِصْرِ الْأَمَلِ بِدَوَامِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ^(١) .
وَوَجَدْتُ أَصُولَ الْفُضُولِ الْمُتَحَرِّكَةَ مِنَ الْقَلْبِ تَظْهَرُ عَلَى
السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَاللِّسَانِ وَالْغِذَاءِ وَاللِّبَاسِ . وَفُضُولُ السَّمْعِ
يُخْرِجُ إِلَى السَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ ، وَفُضُولُ الْبَصَرِ يُخْرِجُ إِلَى
الْغَفْلَةِ وَالْحَيْرَةِ ، وَفُضُولُ اللِّسَانِ يُخْرِجُ إِلَى التَّزْيِيدِ وَالْبِدْعَةِ ،

= وَزَيْنٌ يَوْزَنُ الشَّرْعَ كُلَّ خَاطِرٍ فَاِنْ يَكُنْ مَأْمُورُهُ فَبَادِرٍ
وَإِنْ يَكُنْ مِمَّا نَهَيْتَ عَنْهُ فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاحْذَرْنَاهُ

وقال الإمام السيّد الجُنَيْدُ رحمه الله تعالى : لَقَدْ تَرَدُّدُ الثُّكْنَةُ - أي
الْخَاطِرُ - عَلَى قَلْبِي فَلَا أَقْبِلُهَا إِلَّا بِشَاهِدَيَّ عَدْلٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .
وسبق تعليقا في ص ٤٦ - ٤٨ كلامٌ نفيسٌ في (الْخَوَاطِرُ) لابن القيم فعُدْ إليه .

(١) كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : كلَّ يومٍ يقال : مات فلانٌ
وفلان ، ولا بُدَّ من يومٍ يقال فيه : مات عمر . وكان سيدنا علي رضي الله
عنه يقول : إذا كنتَ في إِدْبَارِ الْمَوْتِ في إِقْبَالِ مَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى . كما في
« نهج البلاغة » ٤ : ٨٧ . وكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « ابن آدم
إنما أنت أيام ، كلما ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضُك » . كما في ترجمته في « تاريخ
الإسلام » للذهبي ٤ : ١٠٤ . وما أصدق ما قيل :

يَسُرُّ الْمَرْءَ مَا ذَهَبَ اللَّيَالِي وَكَانَ ذَهَابُهُنَّ لَهُ ذَهَابًا !

ومن الُطف ما قيل في تصوير قِصْرِ أَيام الْعُمُرِ قولُ الْقَائِلِ :

أَذَانُ الْمَرْءِ حِينَ الطِّفْلِ يَأْتِي وَتَأْخِيرُ الصَّلَاةِ إِلَى الْمَمَاتِ
دَلِيلٌ أَنْ مَحْيَاهُ يَسِيرٌ كَمَا بَيْنَ الْأَذَانِ إِلَى الصَّلَاةِ

وَفُضُولُ الْغِذَاءِ يُخْرِجُ إِلَى الشَّرِّ وَالرَّغْبَةِ ، وَفُضُولُ اللَّبَاسِ يُخْرِجُ إِلَى الْمُبَاهَاةِ وَالْخِيَلَاءِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ حِفْظَ الْجَوَارِحِ فَرِيضَةٌ ، وَتَرْكُ الْفُضُولِ فَضِيلَةٌ . وَالتَّوْبَةُ قَبْلَ ذَلِكَ فَرِيضَةٌ ، وَقَدْ فَرَضَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ ^(١) ، مَعْنَى (نَصُوحًا) : تَرَكَ الْعَوْدَ فِيمَا تَابَ مِنْهُ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا » ^(٢) .

(١) من سورة التحريم : ٨ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل ، أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ فِي « سُنَنِ » ١ : ٥٧٣ فِي بَابِ فَرَضِ الْجُمُعَةِ ، وَلَفْظُهُ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا ... » .

وَفِي سَنَدِهِ : عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ بْنُ جُدْعَانَ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ بِاتِّفَاقٍ ، وَالرَّوَايَةُ عَنْهُ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَدَوِيُّ ، قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي « الْمِيزَانِ » ٢ : ٦٨ فِي تَرْجُمَتِهِ « قَالَ الْبُخَارِيُّ : مِنْكَرُ الْحَدِيثِ ، وَقَالَ وَكِيعٌ : يَضَعُ الْحَدِيثَ ، وَقَالَ ابْنُ حَبَّانَ : لَا يَجُوزُ الْإِحْتِجَاجُ بِخَبَرِهِ » . ثُمَّ سَاقَ الذَّهَبِيُّ الطَّرْفَ الْمَذْكُورَ هُنَا مِنْ حَدِيثِهِ .

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «تهذيب التهذيب» ٦: ٢١ بعد =

وَلَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : حَلُّ إِصْرَارِ الْقَلْبِ
عَنِ الْمَعَاوِدَةِ ، وَالِاسْتِغْفَارُ بِالنَّدَمِ ، وَرَدُّ التَّبَعَاتِ وَالْمَظَالِمِ ،
وَحِفْظُ الْجَوَارِحِ مِنَ الْحَوَاسِّ السَّبْعِ : السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَاللِّسَانُ
وَالشَّمُّ وَالْيَدَانِ وَالرِّجْلَانِ وَالْقَلْبُ وَهُوَ أَمِيرُهَا ، وَبِهِ صَلَاحُ
الْجَسَدِ وَفَسَادُهُ .

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ جَارِحَةٍ أَمْرًا وَنَهْيًا فَرِيضَةً مِنْهُ ،
وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا سَعَةً وَإِبَاحَةً تَرْكُهَا فَضِيلَةٌ لِلْعَبْدِ .

فَفَرَضُ الْقَلْبِ - بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ - إِخْلَاصُ الْعَمَلِ
لِلَّهِ ، وَاعْتِقَادُ حُسْنِ الظَّنِّ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، وَالثِّقَةُ بِاللَّهِ ، وَالْخَوْفُ
مِنْ عَذَابِهِ ، وَالرَّجَاءُ لِفَضْلِهِ ^(١) .

= أن ذكر ما نقله الذهبي في تجريحه: « رَوَى له ابنُ ماجه حديثاً واحداً في
صلاة الجمعة ، وقال ابنُ عبد البر : إنَّ جماعةَ أهلِ العلم بالحديث يقولون :
إنَّ هذا الحديث من وَضَعِ عبد الله بن محمد العدوي ، وهو عندهم مَوْسُومٌ
بالكذب » . انتهى . فالحديث موضوع .

وكان أولى بالمؤلف أن يستدلَّ على أمرِ الرسول صلى الله عليه وسلم
بالتوبة بحديث الأغرِّ بن يسار المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناسُ توبوا إلى الله ، فاني أتوب إليه في
اليوم مِثَّةَ مرَّة » . رواه مسلم في « صحيحه » ١٧ : ٢٤ .

(١) واعلم يا أخي: أنَّ كلَّ واحد إذا خِفَتْهُ هَرَبَتْ مِنْهُ ، إِلَّا اللَّهُ =

وقد رُوي في مَعْنَى الْقَلْبِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، منها : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لَهُ قَلْبِي » ^(١) . وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ الْحَقَّ يَأْتِي وَعَلَيْهِ نُورٌ ، فَعَلَيْكُمْ بِسَرَائِرِ الْقُلُوبِ » ^(٢) . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لِلْقُلُوبِ شَهْوَةٌ وَإِقْبَالٌ ^(٣) ، وَفَتْرَةٌ وَإِدْبَارٌ ، فَاعْتَنِمُوهَا

= سبحانه فانك إذا خفتَه هَرَبْتَ إِلَيْهِ ، فهو المخوفُ منه والمرجى ، فالحائِفُ من الله هَارِبٌ من رَبِّهِ إِلَى رَبِّهِ . ﴿ فَصِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

(١) رواه الإمام أحمد في « مسنده » ٥ : ٢٦٧ في مسند أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، وذكره الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠ : ٢٧٦ وقال : « رواه الطبراني ، ورجاله وثقوا » . ولفظُ الحديث عن أبي أمامة قال : لَتَقِيَنَّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ بِيَدِي ثُمَّ قَالَ : « يَا أَبَا أُمَامَةَ إِنَّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لَهُ قَلْبِي » . ولفظُ الحديث في « مسند أحمد » : « قَالَ أَبُو رَاشِدٍ الْحُبْرَانِيُّ : أَخَذَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ بِيَدِي وَقَالَ : أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « يَا أَبَا أُمَامَةَ إِنَّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لِي قَلْبُهُ » .

(٢) لم أقف عليه فيما رجعت إليه من المراجع الحديثية ، فالله أعلم بشبوته .

(٣) هكذا جاء في الأصلين وفي « الحلية » لأبي نعيم ١ : ١٣ وفي « روضة العقلاء » لابن حبان ص ١٧ - ١٨ أي عند جميعهم بلفظ : (شهوة وإقبال) ، والمعنى واضح . ولو قيل : إنها محرقة عن (شرة وإقبال) أي نشاط ورغبة لما كان بعيداً ؛ والله أعلم .

عِنْدَ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا ^(١) ، وَذَرُّوْهَا عِنْدَ فُتْرَتِهَا وَإِدْبَارِهَا .
 قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْقَلْبُ مِثْلُ الْمِرْآةِ : إِذَا
 طَالَتْ فِي الْيَدِ صَدِثَتْ ، وَكَالِدَابَّةَ : إِذَا غُفِلَ عَنْهَا عَدَلَتْ ^(٢) .
 وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : الْقَلْبُ مِثْلُ بَيْتٍ لَهُ سِتَّةُ أَبْوَابٍ ثُمَّ
 قِيلَ لَكَ : احْذَرِ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْكَ مِنْ أَحَدِ الْأَبْوَابِ شَيْءٌ ^(٣) ،
 فَيُفْسِدَ عَلَيْكَ الْبَيْتَ ، فَالْقَلْبُ هُوَ الْبَيْتُ ، وَالْأَبْوَابُ :

(١) وقع في الأصلين : (فأكرموها عند شهوتها) . وهو تحريف .
 والتصويب عن « الحلية » لأبي نعيم .

(٢) وَرُبَّ غَفْلَةٍ لِلْقَلْبِ مِنْكَ تُكَلِّفُكَ الْمَتَاعِبَ وَالْأَهْوَالَ ! وَتَشْطُطُ
 بِكَ عَنِ الْجَادَةِ الْمَسَافَاتِ وَالْأَمْيَالِ ! وما أجمل قولَ شاعر الإسلام محمد إقبال
 رحمه الله تعالى في « ديوان الأسرار والرموز » ص ١٢٦ :

لحظةً يا صاحبي إن تغفّل
 ألف ميل زاد بُعد المنزل !
 رام نَقَشَ الشُّوْكَ حِيناً رَجُلٌ
 فاختفى عن ناظرينه المحملُ

يقول إقبال رحمه الله تعالى : إنَّ إنساناً كان تائهاً في مفازةٍ يمشي على
 قدميه ، فشَهِدَ على بُعْدٍ مِنْهُ مَحْمِلاً أَمَلَّ فِيهِ أَسْبَابَ النِّجَاةِ وَالْفَوْزِ
 مِنَ الْهَلَاكِ ، فَأَسْرَعَ مُتَعَجِّلاً يَتَقَصَّدُ ذَلِكَ الْمَحْمِلَ حَافِياً مُتَلَهِّفاً ، آمِلاً
 نِجَاتَهُ بِوَصُولِهِ إِلَيْهِ ، فَأَصَابَ الشُّوْكَ قَدَمَهُ ، فَصَرَفَ بَصَرَهُ عَنِ الْمَحْمِلِ
 لِحِظَةِ لِنَزْعِ الشُّوْكَ مِنْ قَدَمِهِ ، فغَابَ الْمَحْمِلُ عَنْهُ ! وَمَاتَ أَمَلُهُ ، وَلَبِسَتْهُ
 الْحَسِرَاتُ !! فَحَقٌّ مَنْ يَطْلُبُ شَيْئاً أَنْ لَا يَتَحَوَّلَ عَنْهُ حَتَّى يَنَالَهُ ، وَلَوْ لَفِي
 فِي سَبِيلِهِ الشَّدَائِدُ وَالْأَلَاقِي !

(٣) وقع في الأصلين (ثم قيل له ...) . فأثبتته كما ترى .

الْعَيْنَانِ وَاللِّسَانَ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْيَدَانِ وَالرِّجْلَانِ ، فَمَتَى
 انْفَتَحَ بَابٌ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ضَاعَ الْبَيْتُ !
 وفَرَضُ اللسان ، الصَّدَقُ في الرِّضَا والغَضَبُ ، وكَفُّ
 الْأَذَى في السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَتَرْكُ التَّزْيِيدِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ،
 وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ ضَمِنَ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا
 بَيْنَ رِجْلَيْهِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ » ^(١) . وَقَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَهَلْ يَكُيِّبُ النَّاسَ
 فِي النَّارِ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ! ؟ » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » عن سهل بن سعد الساعدي رضي
 الله عنه بلفظ : « مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ . وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنُ
 لَهُ الْجَنَّةَ » . قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١١ : ٢٦٥ « اللَّحْيَانِ :
 هما العظمان في جانبي الفم . والمرادُ بما بينهما : اللسانُ وما يتأتى به النطق .
 والمرادُ بما بين الرجلين : الفَرْجُ . قال ابنُ بطَّال : دلَّ الحديثُ على أن
 أعظمَ البلاءِ على المرءِ في الدُّنْيَا : لِسَانُهُ وفَرْجُهُ ، فمن وقَّيَ شَرَّهُما وقَّيَ
 أعظمَ الشرِّ » .

(٢) أخرجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : الإمام أحمد والنسائي
 وابن ماجه والترمذي . وقال : « حديث حسن صحيح » . وسقط من الأصل
 هنا لفظ (في النار) .

قال الحافظ ابن رجب في « جامع العلوم والحكم » ص ٢٤١ : « المرادُ
 بحصائدِ الألسنة : جزاءُ الكلامِ المحرَّمِ وعقوباتُهُ ، فإنَّ الإنسانَ يَزَرَعُ =

وقال ﷺ : « أَنْذَرْتُكُمْ فُضُولَ الْكَلَامِ ، حَسْبُ أَحَدِكُمْ مَا يَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَهُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُسْأَلُ عَنْ فُضُولِ كَلَامِهِ كَمَا يُسْأَلُ عَنْ فُضُولِ مَالِهِ » ^(١) . وقال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ

= بقوله وعمله الحسنات والسيئات ، ثم يحصدُ يوم القيامة ما زَرَعَ ، فمن زَرَعَ خيراً من قول أو عمل حَصَدَ الكرامة ، ومن زَرَعَ شراً من قول أو عمل حَصَدَ الندامة !! » .

(١) هذا ليس بحديث . وإنما هو من كلام الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كما نسبته إليه الغزالي في « الإحياء » ٨ : ٢١٢ ، ولفظه : « قال ابن مسعود : أَنْذَرْتُكُمْ فُضُولَ كَلَامِكُمْ ، حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَهُ » . وقال شارحُ « الإحياء » العلامة الزبيدي في « شرحه » ٧ : ٤٦٦ : « أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فَقَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي ، أَخْبَرَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ ، عَنْ لَيْثٍ : أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : أَنْذَرْتُكُمْ فُضُولَ الْكَلَامِ ، بِحَسَبِ أَحَدِكُمْ مَا يَبْلُغُ حَاجَتَهُ » . انتهى .

فقد جعلَ ابن مسعود رضي الله عنه الفضولَ من الكلام أي الزائدَ منه على قدر الحاجة ذنباً يَسْتَحِقُّ العقوبة ، ولذا أَنْذَرَ وحذَّر منه . وقد حذَّر الشيخ أبو علي الدقاق من فضول الكلام بأسلوب آخر يتحسَّسه أهلُ الدنيا ، المنهمكون في جَمْعِ حُطَامِهَا الحريصون عليها ، فقال رحمه الله تعالى : « لو كنتم تشترون الكاغِدَ - أي الورقَ - للحفَظَةِ لسكنتم عن كثير من الكلام » . كما في « شرح الأربعين النووية » المنسوب للنووي وهو للقاضي زكريا ، في شرح (الحديث الخامس عشر) .

وأبو علي الدقاق هو الذي يقول : الساكتُ عن الحق شيطان أخرس . قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى : السكوتُ في وقته صفةُ الرجال ، كما أن النطق في موضعه من أشرفِ الحِصَالِ .

لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ ، فَاتَّقَى اللَّهَ أَمْرُوهُ عِلْمَ مَا يَقُولُ » ^(١) .

وفَرَضُ البَصَرِ : الغَضُّ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَتَرَكُ التَّطَلُّعِ
فِيْمَا حُجِبَ وَسُتِرَ ^(٢) . قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ رَسُولُ

وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَمْتِي فِكْرًا ، وَنُطْقِي ذِكْرًا .
أَيُّ مُرَضِيًّا لَكَ أَثَابُ عَلَيْهِ .

(١) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » ٨ : ١٦٠ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ ، وَالْحَكِيمِ
الترمذِي فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا فِي « الْجَامِعِ الصَّغِيرِ » لِلسَّيُوطِيِّ .
وَأَشَارَ الْمُنَاوِيُّ فِي « فَيْضِ الْقَدِيرِ » ٢ : ٢٤٠ إِلَى ضَعْفِ الْحَدِيثِ بِوُجُودِ رَاوٍ
فِي سَنَدِهِ سَاقِطٍ لِالاعتبار . وَمَعْنَى (فَاتَّقَى اللَّهَ أَمْرُوهُ) أَيُّ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ أَمْرُوهُ .

(٢) قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ مَفْلُحٍ الْحَنْبَلِيُّ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ « الْفُرُوعِ »
٥ : ١٥١ و ١٥٥ و ١٥٨ « وَلِيَحْذَرِ الْعَاقِلُ إِطْلَاقَ الْبَصَرِ ، فَإِنَّ الْعَيْنَ تَرَى
غَيْرَ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ — أَيُّ تَرَى الْإِنْسَانَ الَّذِي تُنْمَعُ شَرْعًا
مِنْ مَعَاشَرَتِهِ وَالِاخْتِلَاطِ بِهِ ، عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ ، تَرَاهُ أَجْمَلَ وَأَطْيَبَ وَأَوْفَقَ
وَأَفْضَلَ — مِمَّا عِنْدَهَا مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ ، تَزْيِينًا مِنَ الشَّيْطَانِ وَتَلْبِيسًا مِنْهُ
عَلَيْهَا ، لِيُحَوِّلَ أَخْزَاهُ اللَّهُ بِتَزْيِينِهِ وَتَلْبِيسِهِ ذَلِكَ الْمَفْتُونُ مِنَ الْحَلَالِ الطَّاهِرِ إِلَى
الْحَرَامِ الْخَبِيثِ ، أَوْ لِيُكْرِهَهُ بِالْحَلَالِ الَّذِي عِنْدَهُ ، وَيُحِبِّبَهُ بِالْحَرَامِ الَّذِي لَا
يَحِلُّ لَهُ — . وَبِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ الْعَشَقُ ، فَيَهْلِكُ الْبَدَنُ وَالْدِينُ ! وَكَمْ
مِنْ نَظَرَةٍ أَلْقَتْ فِي قَلْبٍ صَاحِبَهَا الْبَلَابِلُ !

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي « تَارِيخِهِ » عَنْ ابْنِ عَيْنَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
الْمُبَارَكِ ، وَكَانَ عَاقِلًا ، عَنْ أَشْيَاخِ أَهْلِ الشَّامِ قَالَ : مَنْ أُعْطِيَ أَسْبَابَ
الْفِتْنَةِ مِنْ نَفْسِهِ أَوَّلًا ، لَمْ يَنْجُ مِنْهَا آخِرًا وَإِنْ كَانَ جَاهِدًا . . . انْتَهَى .

نَعَمْ ، وَكَمْ سَاقَ إِطْلَاقُ الْبَصَرِ وَالِاخْتِلَاطِ الْمَحْظُورِ إِلَى مَهَالِكٍ وَعَارٍ =

الله ﷻ : « النَّظَرُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ ، فَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ آتَاهُ اللَّهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حِلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » ^(١) . وقال أبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه : مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ النَّظَرِ الْحَرَامِ : زُوجَ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ حَيْثُ أَحَبَّ ، وَمَنْ اطَّلَعَ فَوْقَ بُيُوتِ النَّاسِ حَشَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَغْمَى !

= ومغازي لا تُمَحَى ولا تُنْسَى؟! « قيل لهند بنت الخُسَّ - وقد زَنَتْ بعدها ، وكانت شريفة قومها - : لم زَنَيْتِ بعبدكِ وأنتِ سيِّدةُ قومكِ !!؟ فقالت : قُرْبُ الوِساد ، وطُولُ السَّوَادِ ! » .

تعني : أن كثرة المخالطة بينها وبينه - قُرْبُ الوِساد - وطُولَ المحادثة والمناجاة معه ، - طُولَ السَّوَادِ - هي التي خَرَجَتْ بها قليلاً قليلاً عن حِشْمَتِهَا : ثم عن شَرَفِهَا ، حتى وقعت في عَارِ الزنى ! نسأل الله تعالى السلامة والعافية . يقال في اللغة : ساوَدَ الرجلُ المرأةَ سِوَاداً ، إذا سارَّها فأدْنى سَوَادَةً مِنْ سَوَادِهَا أي شخصته من شخصيتها . كما في « لسان العرب » لابن منظور في مادة (سود) . وقد حكى فيها هذا الخبر ، وهو في « أعلام النساء » لكحالة ٥ : ٢٣١ - ٢٣٤ .

فالعاقل من باعَدَ بينه وبين الفتنة وأسبابها : وَرَجَا من الله السلامة . (١) رواه الحاكم في « المستدرک » ٤ : ٣١٤ عن حُدَيْفَةَ ، وصَحَّحه ، وردَّه الحافظ الذهبي بأن فيه راوياً واحداً ، وآخرَ ضعيفاً . ورواه الطبراني عن ابن مسعود . وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » ٣ : ٣١٧ : « في سنده واه » . وأقرب الروايتين لفظاً إلى اللفظ المذكور : روايةُ الحاكم . وهي : « النَّظَرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ . مَسْمُومَةٌ . فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ آتَاهُ اللَّهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حِلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » .

وقال داود الطائيُّ لرجُلٍ - وقد أَحَدَ النظرَ إلى بعضِ مَنْ يَنْظُرُ إليه - فقال : يَا هَذَا أَرَدْتُ بِصَرَكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ يُسَالُ عَنْ فَضُولِ نَظَرِهِ كَمَا يُسَالُ عَنْ فَضُولِ عَمَلِهِ ^(١) . ويُقالُ : « لَكَ النَّظَرَةُ الْأُولَى ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ » ^(٢) . فَمَا هَجَمَ عَلَى النَّظَرِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عَنِ الْعَبْدِ ، وَمَا اسْتَبَدَّ بِهِ النَّظَرُ بِمَعْقُولِ الْفَهْمِ فَالْعَبْدُ مَاخُودٌ بِهِ ^(٣) .

وَقَرَضُ السَّمْعِ : تَبَعَ لِلْكَلامِ وَالنَّظَرِ ، فَكُلُّ مَا لَا يَحِلُّ لَكَ الْكَلَامُ فِيهِ وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ : فَلَا يَحِلُّ لَكَ اسْتِمَاعُهُ وَلَا التَّلَذُّدُ بِهِ . وَالْبَحْثُ عَمَّا كُتِمَ عَنْكَ تَجَسُّسٌ ^(٤) .

(١) جاء في الأصل (عَلِمِهِ) .

(٢) هو حديث مرفوع ، رواه بُرَيْدَةُ بْنُ الْحُصَيْبِ رضي الله عنه عن النبي ﷺ . أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وقال « حديث حسن » غريب . ولفظه عندهم : « قال : قال رسول الله ﷺ : يَا عَلِيُّ لَا تُتَّبِعِ النَّظَرَةَ النَّظَرَةَ ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ » . وقوله : « لَكَ الْأُولَى » يعني حيث تكون فجأةً من غير قصد . وقوله : « وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ » لأنها باختيارك وقصدك فتكون عليك .

(٣) يعني : ما توجهَ إليه النظرُ بقصد وفكر ، فالعبدُ مشغولٌ عنه .

(٤) جاء في الأصلين : (تجسس) . وهو تحريف .

وَسَمَاعُ اللَّهِ وَالْغِنَاءِ وَأَذَى الْمُسْلِمِينَ : حَرَامٌ كَالْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ .
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : نُهِينَا عَنِ الْغِيْبَةِ
وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهَا ، وَعَنِ النَّمِيمَةِ وَالِاسْتِمَاعِ لَهَا .

وَسُئِلَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ^(١) عَنْ سَمَاعِ الْغِنَاءِ ؟ قَالَ :
إِذَا مَيَّزَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَيْنَ يَقَعُ
الْغِنَاءُ ؟ قِيلَ : فِي حَوْزِ الْبَاطِلِ ، قَالَ : فَافْتِ نَفْسَكَ ^(٢) .

(١) هو : القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كان من
سادات التابعين وأحدَ الفقهاء السبعة الذين كانوا في المدينة المنورة ، توفي
سنة ١٠٦ رضي الله عنه .

(٢) وقد قطعَ الاشتباهَ في تحريمه ومنعه ما جاء في « صحيح البخاري »
في كتاب الأشربة ، في (باب ما جاء فيمن يستحلُّ الخمرَ ويُسمِّيه بغير
اسمه) ١٠ : ٤٧ - ٤٨ عن « عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : حدثني
أبو مالك الأشعري - والله ما كذبتني - سمعتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم
يقول : لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحَبِيرَ - يعني : الزنى - ،
والحريرَ ، والخمرَ . والمعازف » . انتهى .

وفي هذا الحديث بينَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ بين هذه الفواحش
ترابطاً قوياً ، إذ كلُّ واحدة منها تستدعي الأخرى ، فالزنى يستدعي
استحلالَ التزيُّن بالحرير ، وهو حرام على الرجال ، كما يستدعي استحلالَ
شُرب الخمر ، واستحلالَ عزف آلات اللّهُو ، ليزادَ بذلك عُرَامُ الفساد
في نفوس أهله ، وليؤجَّجَ لهيبه إذا فترَ فيها ! نسأل الله السلامة والعافية .

وليسَ مِنْ جَارِحَةٍ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَى الْعَبْدِ - بَعْدَ لِسَانِهِ -
مِنْ سَمْعِهِ ، لِأَنَّهُ أَسْرَعُ رَسُولٍ إِلَى الْقَلْبِ ، وَأَقْرَبُ وَقُوعًا
فِي الْفِتْنَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ وَكَيْعِ بْنِ الْجَرَّاحِ قَالَ : سَمِعْتُ
كَلِمَةً مِنْ مُبْتَدِعٍ مِنْذَ عِشْرِينَ سَنَةً ، مَا أَسْتَطِيعُ إِخْرَاجَهَا
مِنْ أُذُنِي ! وَكَانَ طَاوُوسٌ إِذَا أَتَاهُ مُبْتَدِعٌ سَدَّ أُذُنَيْهِ ،
لِيَلَّا يَسْمَعَ كَلَامَهُ .

وَفَرَضُ الشَّمِّ : تَبَعَ لِلسَّمْعِ وَالْبَصَرِ ، فَكُلُّ مَا حَلَّ
اسْتِمَاعُهُ وَنَظَرُهُ ، جَازَ لَكَ شَمُّهُ . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أُتِيَ بِمَسْكٍ ، فَأَمْسَكَ عَنْهُ
أَنْفَهُ . فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : وَهَلْ يُنْتَفَعُ مِنْهُ إِلَّا
بِرَأْيِهِ ^(١) ؟ .

وَفَرَضُ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ : أَنَّ لَا تَبْسُطَهُمَا إِلَى مَحْظُورٍ ،
وَلَا تَقْبِضَهُمَا عَنْ حَقٍّ . وَقَالَ مَسْرُوقٌ : مَا خَطَا الْعَبْدُ خَطْوَةً
إِلَّا كُتِبَتْ حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً . وَكُتِبَتْ ابْنَةُ سُلَيْمَانَ ^(٢) إِلَى عَبْدَةِ

(١) وَقَعَ فِي الْأَصْلَيْنِ : (فَأَمْسَكَ عَنْ أَنْفِهِ) . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَسْكَ
كَانَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ حَتَّى تَوَرَّعَ الْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ شَمِّهِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَلِيفَةُ الْأُمَوِيُّ الْمُحْسِنُ ، وَلَدَ بِدَمَشْقَ ، =

بِنتِ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ^(١) : (زُورِينِي) ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهَا عَبْدَةُ :
 (أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَسِيرَ مَسِيرًا
 لَيْسَ هُوَ فِيهِ ضَامِنًا عَلَى اللَّهِ ، أَوْ يَأْكُلَ طَعَامًا إِذَا سُئِلَ
 عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِيهِ مَخْرَجٌ ، وَقَدْ كَرِهْتُ
 مِنْ ذَلِكَ مَا كَرِهَ أَبِي . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ) .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : مَا السَّبِيلُ إِلَى الْعَمَلِ بِذَلِكَ^(٢) ؟ قِيلَ :
 لَزُومُ مِنْهَا جِ الْأَثْمَةِ الْمُتَّقِينَ ، وَالنَّظَرُ فِي آدَابِ الْمُسْتَرَشِدِينَ
 لِمَعْرِفَةِ الْخَطْوِ^(٣) ، وَالتَّيَقُّظُ بِالْمَحَاسِبَةِ^(٤) ،

= وَتُوفِيَ فِيهَا سَنَةٌ ٩٩ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَمْ أَقِفْ عَلَى تَرْجُمَةِ ابْنَتِهِ ، فَذَكَرْتُ
 هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَنْهُ لِلتَّعْرِيفِ بِهَا إجمالاً .

(١) هُوَ أَحَدُ التَّابِعِينَ رَوَاةِ الْحَدِيثِ الثَّقَاتِ ، كَانَ أَحَدَ الْعُبَادِ ،
 وَأَصْلُهُ مِنَ الْبَحْنِ ، وَأَقَامَ بِحِمصَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَكَانَ شَجَاعًا غَازِيًا كَثِيرَ
 التَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ ، تُوُفِيَ سَنَةَ ١٠٣ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَعُرِفَتْ بِهِ لِأَنِّي لَمْ أَقِفْ
 عَلَى تَرْجُمَةِ ابْنَتِهِ ، وَفِي ذَلِكَ بَعْضُ تَعْرِيفِهَا .

(٢) جَاءَ فِي النُّسخَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ : (مَا السَّبِيلُ إِلَى الْعِلْمِ بِذَلِكَ) .

(٣) جَاءَ فِي النُّسخَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ : (لِمَعْرِفَةِ الْخَطَرِ) .

(٤) وَإِنَّمَا يَنْهَضُ بِهَذَا التَّيَقُّظُ الْمُؤَفَّقُونَ الْمُرَاقِبُونَ شَرْعَ اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ فِي
 الْمُنَشَّطِ وَالْمَكْرَهِ وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَإِلَيْكَ نَمَازِجُ مِنْ سِيرَةِ أَوْلَئِكَ
 الْمُؤَفَّقِينَ تُدْرِكُ مِنْهَا مَعْنَى (التَّيَقُّظُ بِالْمَحَاسِبَةِ) ، وَلَا يَغِيبُ عَنْ بَالِكَ كَمَا =

.

= سبق قريباً في ص ١٢٢ خبرُ إمساك الخليفة عمر بن عبد العزيز بأنفه عن مسك أتى به إلى بيت المال ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : وهل يُستَقَعُ منه إلا برأخته ؟ وهذا من أعلى درجات التيقظ بالمحاسبة .

١ - روى الحافظ أبو نُعَيْمٍ في « الحلية » ٥ : ٣٢٦ والإمام أحمد في « كتاب الزهد » ص ٣٠٠ - ٣٠١ في ترجمة عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد رحمه الله تعالى : « أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَأَى رَجُلًا يُشِيرُ بِشِمَالِهِ ، فَقَالَ : يَا هَذَا إِذَا تَكَلَّمْتَ فَلَا تُشِرْ بِشِمَالِكَ ، أَشِيرَ بِيَمِينِكَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ، إِنَّ رَجُلًا دَفِنَ أَعَزَّ النَّاسِ إِلَيْهِ - وَهُوَ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ - ، ثُمَّ إِنَّهُ يَهْمُهُ يَمِينِي مِنْ شِمَالِي ! فَقَالَ عُمَرُ : إِذَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَالَهُ عَنْهُ - أَيِ اتْرُكْهُ وَأَعْرِضْ عَنْهُ وَلَا تَتَعَرَّضْ لَهُ - ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : جَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : لَا ، بَلْ جَزَى اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَنِّي خَيْرًا .

٢ - قال الشيخ تاج الدين ابن السُّبُكِيِّ في « طبقات الشافعية الكبرى » ٥ : ١٠٩ في ترجمة الحافظ زكيّ الدين عبد العظيم المُنْذِرِيِّ الإمام الورع الزاهد الصالح صاحب كتاب « التَّوْبَةُ وَالتَّوْبَةُ » : « سَمِعْتُ أَبِي يُحْكِي عَنْ الْحَافِظِ الدِّمِيَّاطِيِّ أَنَّ الشَّيْخَ الْمُنْذِرِيَّ خَرَجَ مِنَ الْحَمَّامِ مَرَّةً وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ حَرًّا ، فَمَا أَمَكَّنَهُ الْمَشْيُ ! فَاسْتَلْقَى عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى جَانِبِ حَانُوتٍ ! فَقَالَ لَهُ الْحَافِظُ الدِّمِيَّاطِيُّ : يَا سَيِّدِي أَنَا أَقْعُدُكَ عَلَى مَسْطَبَةِ الْحَانُوتِ ، وَكَانَ الْحَانُوتُ مَغْلَقًا ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ الْمُنْذِرِيُّ وَهُوَ فِي تِلْكَ الشَّدَّةِ : بَغِيرَ إِذْنِ صَاحِبِهِ كَيْفَ يَكُونُ ؟ ! وَمَا رَضِي . »

٣ - قال الشيخ مرتضى الزبيدي في شرح « الإحياء » ٧ : ٥٦٦ في مبحث جواز غيبة الفاسق : « إِنَّ ذِكْرَ الْفَاسِقِ بِمَا فِيهِ لِيَحْذَرَهُ النَّاسُ : مُشْرُوطٌ =

= بقصد الاحتساب وإرادة النصيحة دفعاً للاغترار به، فمن ذكرَ أحدًا من هذا الصنف ، تشفياً لغيظه ، أو انتقاماً لنفسه ، أو لنحو ذلك من الحظوظ النفسانية فهو آثم ، صرح بذلك تاج الدين ابن السبكي عن والده تقي الدين السبكي ، قال تاج الدين : كنتُ جالساً بدهليز دارنا فأقبل كلب ، فقلتُ : اخسأ كلب بن كلب ، فزجرني الوالدُ من داخل البيت ، فقلت : أليس هو كلب بن كلب ؟ قال : شرطُ الجوازِ عَدَمُ قَصْدِ التحقير ، فقلت : هذه فائدة .

٤ - حكى العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته « رد المحتار على الدر المختار » : أن الإمام أبا يوسف تلميذَ الإمام أبي حنيفة وقاضي القضاة في زمن هارون الرشيد ، كان قد تقاضى عنده الخليفةُ هارون الرشيد ونصراني في خصومة وقعتَ بينهما . فقضى أبو يوسف للنصراني على الخليفة . ولما أدركته الوفاة قال : اللهم إنك تعلمُ أني وُكِّيتُ هذا الأمر ، فلم أُمِلْ إلى أحدٍ الخصمين حتى في القلب ، إلا في خصومة نصراني مع الرشيد لم أُسَوِّ بينهما - أي في ميل القلب - وقضيتُ للنصراني على الرشيد ، وبكى ! . انتهى من محاضرة الأستاذ عارف النكدي « القضاء في الإسلام » ص ٢٥ .

٥ - ذكر القاضي ابن أبي يعلى الحنبلي في « طبقات الحنابلة » ٢ : ١٧٧ ، في ترجمة (ابن حامد الوراق : عبد الله بن الحسن بن حامد البغدادي) : أنه كان ينسخ الكتب بيده ويقتاتُ من أجرته ، فسُمِّي (ابن حامد الوراق) ، وكان كثير الحج ، فعُوتِبَ في كثرة سفره وحجّه مع كبير سنّه ، فقال : لعل الدرهم الزيف يخرجُ مع الدراهم الجيدة .

قال : « وخرج إلى الحج في سنة ٤٠٢ ، فنال في بعض طريقه عطش شديد ، فجاءه إنسان من الحاجِّ بقليل ماء ، وهو مستندٌ إلى حجرٍ وقد =

.

= أشرف على التلف ، فأوماً ابنُ حامد إلى الجائي له بالماء : من أين هو؟ وأيُّ شيء وجهه ؟ فقال له الجائي بالماء : أهذا وقتُ هذا السؤال ؟! فأوماً : أن نعم ، هذا وقتُه ، عند لقاء الله عز وجل أحتاجُ أن أدري ما وجهه . وتوفي في طريقه راجعاً من مكة سنة ٤٠٣ رحمه الله تعالى .

فانظر - رعاك الله - إلى مدَى يقظة هؤلاء الأئمة في محاسبتهم لأنفسهم .
فالخليفة عمر بن عبد العزيز لم يشغله حزنُه الذي ملأ عليه يومه - إذ دفنَ فيه أعزَّ الناس إليه ولده وُلدة كبدِه - أن يُعلِّمَ الرجل ما أخطأ فيه ، فما سمح لنفسه أن يسكت على مخالفة تقعُ من أحد أفراد الرعيّة ، وهي الإشارةُ باليد اليسرى ، فأرشدَ الرجلَ - وهو مغمورٌ في ذلك الحزنِ العميق - إلى أن سنّة الإسلام الإشارةُ باليد اليمنى .

ولمّا مدّحه الرجل وأشار إلى فضله على الإسلام ، ردّه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك ، ونبّهه إلى أن الفضل للإسلام وحده . إذ هو الذي علّمنا الآداب والأخلاق وهو الذي يصنع في نفوس أبنائه الأعاجيب من الأعمال والمناقب .

والحافظ المنذري أرققه حرّ الحمام حتى لم يستطع المشي . فاستلقى في الطريق من شدّة ضعفه وانهار قواه ! فيقول له صاحبه : أنا أقعدك على مسطبة الحانوت ، والحانوت مغلق لا يتضرّر بجلوسه أحد لو جلس ، فيقول الشيخ وهو أشدُّ ما يكون تعباً ورهقاً : بغير إذن صاحبه كيف يكون ؟! وما رضي أن يجلس بل رأى أن الاستلقاء في الطريق أحبُّ إليه من القعود على مسطبة الحانوت ، وهو شيخٌ مشايخ عصره مقاماً وعلماً .

أما تقي الدين السبكي فقد رأى أن ابنه أخطأ حين زجرَ كلباً بلهجة المُتَنَقِّصِ المُحتَقِرِ . فأعلمه أن ذلك لا يسوغُ ولو معَ الحيوان والكلب . =

وَالْعَمَلُ بِالْإِنْصَافِ ، وَالتَّحَرُّزُ بِكَيْفِ الْأَذَى ، وَبَذْلُ الْفَضْلِ
بِتَرْكِ الْمِنَّةِ ، وَحُسْنُ السَّمْتِ بِغَيْرِ حَسَدٍ ، وَالْقَنَاعَةُ بِحُبِّ
الْخُمُولِ ، وَطُولُ الصَّمْتِ رَغْبَةً فِي السَّلَامَةِ (١) ، وَالتَّوَاضُّعُ
لِلْخَلْقِ بِلَا وَحْشَةٍ ، وَالْأُنْسُ بِالذِّكْرِ فِي الْخَلْوَةِ ، وَتَفَرُّغُ
الْقَلْبِ لِلْخِدْمَةِ ، وَاجْتِمَاعُ الْهَمِّ بِالْمُرَاقَبَةِ ، وَطَلَبُ النِّجَاةِ
فِي طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ .

= وَأَمَّا الْقَاضِي أَبُو يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَدْ رَأَى أَنَّ مَجْرَدَ مَيْلِهِ الْقَلْبِيِّ
وَتَمَنِّيهِ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي جَانِبِ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ الْخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ لَا فِي جَانِبِ
النَّصْرَانِيِّ : زَلَّةٌ يَخْشَى عَقُوبَتَهَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، فَتَجَسَّمْ لَهُ ذَلِكَ الْمَيْلُ الْقَلْبِيُّ
ذَنْبًا ارْتَكَبَهُ فَبَكَى وَهُوَ يُودِّعُ الْحَيَاةَ !

وَأَمَّا الْفَقِيهَ ابْنَ حَامِدِ الْحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَرَأَى - وَهُوَ فِي النَّفْسِ
الْآخِرِ - أَنَّ الْمَوْتَ عَطْشًا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ جَوْفَهُ مَاءٌ لَا يَدْرِي مِنْ
أَيْنَ جَاءَ بِهِ حَامِلُهُ ؟ لِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مِمَّا
قَدْ يُسْأَلُ عَنْهُ .

وَلَقَدْ صَدَّقَ الْقَائِلُ :

هُمْ الرِّجَالُ وَعَيْبٌ أَنْ يَقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَصَفَّ بِمَعَانِي وَصَفِيهِمْ : رَجُلٌ !
(١) وَإِذَا كُنْتَ فِي مَجْلِسٍ وَطَالَ ، فَشَعَرْتَ بِفَرَاغِهِ مِنَ الْخَيْرِ فَقُمْ عَنْهُ
سَلَامَتَكَ ، وَلَا تَطُلْ جُلُوسَكَ فِيهِ ، فَقَدْ قَالَ الْأَعْمَشُ أَحَدُ الْأَثَمَةِ التَّابِعِينَ رَحِمَهُ
اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّهُ كَانَ يَقَالُ : إِذَا طَالَ الْمَجْلِسُ كَانَ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ مُطِيعٌ . رَوَاهُ
الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ « الْعِلَلِ » ١ : ٣٩٢ .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١) . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ ،
قَالَ : « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَقِم » ^(٢) . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (اسْتَقَامُوا) : لِلَّهِ بِطَاعَتِهِ ، وَلَمْ
يَرْوِعُوا رَوْعَانَ الثَّعَالِبِ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ الرَّيَّاحِيُّ :
(اسْتَقَامُوا) : أَخْلَصُوا لِلَّهِ الدِّينَ وَالِدَّعْوَةَ وَالْعَمَلَ . وَأَصْلُ
الاسْتِقَامَةِ فِي ثَلَاثَةٍ : اتِّبَاعُ الْكِتَابِ ، وَالسُّنَّةِ ، وَلِزُومُ
الْجَمَاعَةِ ^(٣) .

(١) من سورة الأحقاف : ١٣ .

(٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » . ولفظه : « قل لي في الإسلام قولاً
لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : قل ... » . وفي رواية : « لا أسأل عنه أحداً
بعدك » . قال الإمام النووي في شرح « صحيح مسلم » ٢ : ٩ : « قال القاضي
عياض رحمه الله : هذا من جوامع كلمه ﷺ وهو مطابق لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أي وحدوا الله وآمنوا به ، ثم استقاموا
فلم يجحدوا عن التوحيد ، والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن توفوا على
ذلك » .

(٣) قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان »
١ : ٦٩ « وما أحسن ما قال أبو شامة في كتاب « الحوادث والبدع » : حيث
جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان =

= المتمسكُ به قليلاً والمخالفُ له كثيراً. لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ولا نظرَ إلى كثرة أهل البدع .

قال عمرو بن ميمون الأودي : صحبتُ معاذاً باليمن ، فما فارقتُه حتى واريته في التراب بالشام ، ثم صحبتُ بعده أئمةَ الناس : عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فسمعتُه يقول : عليكم بالجماعة فإنَّ يدَ الله على الجماعة . ثم سمعتُه يوماً من الأيام وهو يقول : سيلي عليكم ولاةٌ يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، فصلوا الصلاة لميقاتها ، فهي الفريضة ، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة .

قال : قلت يا أصحاب محمد ، ما أدري ما تُحدثُونا ؟ قال : وما ذاك ؟ قلت : تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ، ثم تقول : صلِّ الصلاة وحدك ، وهي الفريضة ، وصلِّ مع الجماعة وهي نافلة ؟

قال : يا عمرو بن ميمون قد كنتُ أظنُّك من أئمةِ أهلِ هذه القرية ، تدري ما الجماعة ، قلت : لا . قال : الجماعةُ ما وافق الحقَّ وإن كنتَ وحدك .

وفي لفظ آخر : فضربَ على فخذي وقال : ويحك ! إنَّ جمهور الناس فارقوا الجماعة . وإن الجماعة ما وافق طاعةَ الله عز وجل .

وقال نُعيم بن حَمَّاد : إذا فسدت الجماعةُ فعليك بما كانت عليه الجماعةُ قبل أن تفسدَ وإن كنتَ وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذ . ذكره البيهقي وغيره .

وقال ابنُ القيم أيضاً مثله في «إعلام الموقعين» ٣ : ٤٠٩ . ثم زاد عقبه =

واعْلَمْ أَنَّ أَنْجَى طَرِيقٍ لِلْعَبْدِ : الْعَمَلُ بِالْعِلْمِ ، وَالتَّحَرُّزُ
بِالْخَوْفِ ، وَالْغِنَى بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَاشْتَغِلْ بِإِصْلَاحِ حَالِكَ ،
وَافْتَقِرْ إِلَى رَبِّكَ ، وَتَنَزَّ عَنْ الشُّبُهَاتِ ، وَأَقْلِلْ حَوَائِجَكَ
إِلَى النَّاسِ^(١) ، وَأَحِبَّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَاكْرَهْ لَهُمْ
مِثْلَ ذَلِكَ ، وَلَا تَكْشِفَنَّ سِتْرًا .

وَلَا تُحَدِّثَنَّ نَفْسَكَ بِخَطِيئَةٍ ، وَلَا تُصِرَّنَّ عَلَى صَغِيرَةٍ ،
وَافْزَعْ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ كُلِّ فَاقَةٍ ، وَافْتَقِرْ إِلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ ،

= ما ملخصه : « وقد جعلَ بعضُ الناسِ السُّنَّةَ بدعةً ، والمعروفَ منكراً ،
لقلةِ أهلِهِ وتفردُهم في الأعصارِ والأمصارِ ، وقالوا : من شدَّ شدَّةً في النارِ .
وما عرفوا أَنَّ الشاذَّ من خالف الحقَّ ، فان كان الناس كلُّهم إلا واحداً
خالفوا الحقَّ فهم الشاذون ، وذلك الواحدُ هو الجماعة .

وقد شدَّ الناس في زمان الإمام أحمد بن حنبل إلا نفرأ يسيراً ، فكان ذلك
النفر هم الجماعة ، وكان القضاة والمفتون والخليفة وأتباعهم هم الشاذين ،
وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة . ولما لم تتحمل هذا عقولُ الناس
قالوا للخليفة : يا أمير المؤمنين أتكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون
كلُّهم على الباطل ، وأحمد وحده هو على الحق ؟ فلم يتسع علمه لذلك !
فأخذهُ بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل ! « ثم ظهر الحقُّ وأهلُهُ ،
وبطلَ ما كانوا يدَّعون كما تقدَّم تعليقا في ص ٩١-٩٣ .

(١) وقد قيل : عِزُّ الرَّجُلِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ .

وتوكل عليه في كل أمر^(١). واعتزل الهوى ، ولا تقنع من نفسك بالتربص ، وأخمل ذكرك ، وأدم لله شكرك ، وأكثر من الاستغفار ، واعتبر بالإفكار^(٢) .

وعليك بالتأني عند موارد العجلة ، وحسن الأدب في المخالطة^(٣). ولا تغضب لنفسك على الناس ، واغضب لله على نفسك ولا تكافئن أحداً بإساءة ، واحذر المذحة

(١) ومن حقيقة التوكل: إثبات الأسباب والمسببات ، ومن نقاها فتوكله مزح ولعب . وهذا عكس ما يظهر في بادئ الرأي من أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل ، ولكن الأمر بخلافه ، فإن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ، فإن التوكل أقوى الأسباب في حصول المتوكل به ، فالتوكل كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به . أفاده العلامة الفيروز آبادي في « بصائر ذوي التمييز » ٢ : ٣١٨ .

ومصدق هذا قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي حين سأله : يا رسول الله أأرسل ناقتي وأتوكل ؟ قال : « اعقلها وتوكل » . رواه الترمذي في « سننه » وقال : حديث غريب .

(٢) أي تدبر ما تفكر فيه واعتبر ، ولا تجعل تفكيرك فيما لا ثمرة منه .

(٣) أي في مخالطة الناس . قال رؤيم بن أحمد البغدادي لابنه : يا بني اجعل عملك ملحاً ، وأدبك دقيقاً . أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في سلوكك من حيث الكثرة ، كنسبة الدقيق إلى الملح الذي يوضع فيه . وكثير من الأدب مع قليل من العمل الصالح ، خير من كثير من العمل مع قلة الأدب . ذكره الإمام القرافي في كتابه « الفروق » ٣ : ٩٦ .

لِلْجَاهِلِ بِنَفْسِهِ ، وَلَا تَقْبَلْهَا لِنَفْسِكَ مِنْ أَحَدٍ . وَأَقْلِلِ
الضَّحِكَ وَجَانِبِ الْمَزَاحَ ^(١) .

وَاكْتُمِ الْأَوْجَاعَ ، وَأَظْهِرِ التَّعَفُّفَ ، وَاسْتَبْطِنِ ^(٢)
الثِّقَةَ ، وَاسْتَشْعِرِ الْيَأْسَ وَحُسْنَ الْفَقْرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا
أَصَابَكَ ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ ، وَكُنْ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ
عَلَى يَقِينٍ وَمِنْ آثَارِكَ فِي وَجَلٍ . وَلَا تَتَكَلَّفَنَّ مَا قَدْ
كُفِيتَهُ ، وَلَا تُضِيعَنَّ مَا وَكَّلْتَ بِطَلَبِهِ ، وَافْتَقِرْ إِلَى اللَّهِ فِي
كُلِّ عَطَائِهِ ، وَارْغَبْ فِي النِّجَاةِ مِنْهُ .

وَأَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَصِلْ فِي اللَّهِ
مَنْ قَطَعَكَ ^(٣) وَآثِرْ فِي اللَّهِ مَنْ أَحَبَّكَ ، وَابْذُلْ نَفْسَكَ وَمَالَكَ
لِإِخْوَانِكَ ^(٤) ، وَارْزُقْ حَقُوقَ الْمَوْلَى فِي دِينِكَ ، وَلَا يَعْظُمَكَ

(١) وَكَانَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : الْحُزْنُ فِي
الدُّنْيَا تَلْقِيحُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَضَحِكُ الْمُؤْمِنِ غَفْلَةٌ مِنْ قَلْبِهِ ، وَكَثْرَةُ الضَّحِكِ
تَمِيتُ الْقَلْبَ . كَمَا فِي « الْحَلِيَّةِ » لِأَبِي نَعِيمٍ ٢ : ١٣٣ وَ ١٥٢ .

(٢) فِي النُّسَخَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ : (وَاسْتَوْطِنِ) .

(٣) فِي كِتَابِ « الْعِلَلِ » لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ ١ : ٩٧ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
« أَهْدِ لِمَنْ لَا يَهْدِي لَكَ ، وَعُدْ مَنْ لَا يَعُودُكَ » .

(٤) قِيلَ لِلتَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدَرِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أَيُّ الْعَمَلِ =

كَبِيرٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ تَفَعَّلُهُ ، وَلَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرًا مِنَ الْمُنْكَرِ تَفَعَّلُهُ .

وَاحْذَرِ التَّزْيِينَ بِالْعِلْمِ ، كَمَا تَحْذَرُ الْعُجْبَ بِالْعَمَلِ ،
وَلَا تَعْتَقِدَنَّ بَاطِنًا مِنَ الْأَدَبِ يَنْقُضُهُ عَلَيْكَ ظَاهِرٌ مِنَ الْعِلْمِ ،
وَأَطِعِ اللَّهَ فِي مَعْصِيَةِ النَّاسِ ، وَلَا تُطِيعِ النَّاسَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ
تَعَالَى ، وَلَا تَدْخِرَنَّ مِنْ جُهْدِكَ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا تَرْضَ
مِنْ نَفْسِكَ لِلَّهِ عَمَلًا ، وَقُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي صَلَاتِكَ جُمْلَةً ،^(١)

= أحبُّ إليك؟ قال : إدخالُ السرور على المؤمن ، قيل له : فأَيُّ شيءٍ ، تشتهي ؟
قال : الإفضال على الإخوان . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل »
١ : ٣٣ .

(١) أي قم لله في صلاتك بكليتك وجميعك : قلباً ونفساً وعقلاً ، مع
إتقان هيتها وأدائها ، فذلك هو المعنى المقصود من تكرار أمر الله تعالى في
كتابه الكريم بلفظ ﴿ أَقِمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ، ولم يأتِ هذا الأمرُ - ولا مرةً واحدةً -
بلفظ (صَلُّوا) .

و (إِمَامَةُ الصَّلَاةِ) معناها : أداؤها كاملةً الأركانِ والشروطِ الظاهرةِ
والباطنة .

وإقامة الصلاة (بهذا المعنى) ثمراتٌ وأيُّ ثمراتٍ في سعادةِ الأمةِ وسعادةِ
أفرادها .

فمن شروط إثمار (إقامتها) أن تكون مستوفية حقها ظاهراً وباطناً ،
صورةً ومعنىً .
=

.

= ففي الظاهر : الاطمئنانُ والخشوعُ في ركوعها وسجودها . والتأملُ والتفهمُ من المصلي فيما يقرأ ويقول من ذكر وأدعية .

وفي الباطن استعارهُ خشيةَ الله ، وهو واقف بين يديه فيها ، فلا يصرفه عنها شاغلٌ مَّا مهما كان عظيماً .

ولمنزلة (هذه الصلاة) كانت أولَ شيء يطلبه خليلُ الرحمن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، من ربه لنفسه ولذريته فيقول : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ .

ومن أجل هذه المنزلة (لهذه الصلاة أيضا) طلبَ الله سبحانه من سيدنا محمد خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم : أن يأمر أهله بالصلاة ، ويصبر على مشاقها فقال : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ .

ومن ثمرات (هذه الصلاة) حين تؤدَّى على الوجه الذي طلبه الله سبحانه من (إقامتها) أنها تكفُّ صاحبها عن كل فحش ، وتُقَصِّيه عن كل منكر ، كما جاء ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ .

ومن ثمرات (هذه الصلاة) أن يتعوّد المؤمنُ على الاستهانةِ بالشدائد ، وتحملُها بقلب مطمئن وعزيمة صُلْبَةٍ ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ومن ثمرات (هذه الصلاة) أنها تمحو الخطايا والسيئات ، وأيُّ واحد — سوى من عصمهم الله — ليس له خطايا وسيئات ؟! فكلُّنا في حاجة شديدة إلى هذه العبادة المطهرة : قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ .

=

وَأَذِّ زَكَاةً مَا اقْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِالنَّشَاطِ وَالرَّغْبَةِ ،
وَأَحْفَظْ صَوْمَكَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْغِيْبَةِ .

وَارْزُقْ حَقَّ الْجَارِ وَالْمِسْكِينِ وَالْقَرِيبِ^(١) ، وَأَدِّبْ أَهْلَكَ .
وَارْفُقْ بِمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكُنْ قَوَّامًا بِالنَّشَاطِ كَمَا أَمَرَكَ ،
وَلِذَا حُرِّكَتَ لَخَيْرٍ فَتَعَجَّلْهُ ، وَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ فَدَعُهُ^(٢) .

= ومن ثمرات (هذه الصلاة) أنها تَضَعُ - بين صاحبها وبين التذذبذ
في دائرة الجَزَعِ والبُخْلِ - سَدًّا مَنِيعًا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ
هَلْوَاعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُسْلِمِينَ .
الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . . . ﴾ .

وبعدَ هذا إذا رأينا رجلاً يصلي ولا تكسبه صلاته ثمرةٌ من هذه الثمرات
الشمينة ، تَحْتَمُّ أَنْ نَجْزِمَ أَنَّ صَلَاتَهُ لَيْسَتْ هِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ ،
بَلْ تَكُونُ أَشْبَهَ بِصَلَاةٍ مِنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ
قَامُوا كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وَقَانَا اللَّهُ شَرًّا
ذَلِكَ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

(١) واحرصْ أَنْ تَكُونَ الْجَارَ الصَّالِحَ الْمَحْبُوبَ الَّذِي قَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ :

إِنِّي لِأَحْسُدُ جَارَكَمْ لِحَوَارِكُمْ طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى لِدَارِكَ جَارًا
يَا لَيْتَ جَارَكَ بَاعَنِي مِنْ دَارِهِ شَيْرًا فَأَعْطِيَهُ بِشِيرٍ دَارًا

(٢) وكان التابعي الجليل محمد بن سيرين رضي الله عنه إذا عرض له
أمران في دينه أَخَذَ بِأَوْثَقِهِمَا . وَحَدَّثَ أَنَّهُ اشْتَرَى طَعَامًا - أَيْ قَمَحًا
لِلتَّجَارَةِ - بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَأَخْبَرَ عَنْ أَصْلِ الطَّعَامِ بِشَيْءٍ فَكَرَّمَهُ ،
فَرَكَّهُ أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ . قَالَ تَلْمِيزُهُ هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ : تَرَكَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ =

وَالزَّمِ الرَّحْمَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقُلِ الْحَقُّ حَيْثُمَا كُنْتُ .

وَلَا تُكْثِرِ الْإِيمَانَ وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا^(١) ، وَاحْذَرِ التَّوَسُّعَ
فِي الْمَنْطِقِ وَإِنْ كُنْتَ بَلِيغًا ، وَإِيَّاكَ وَالتَّكَلُّفَ فِي الدِّينِ
وَإِنْ كُنْتَ عَالِمًا . وَقَدِّمِ الْعِلْمَ قَبْلَ كُلِّ مَقَالٍ^(٢) .

= أربعين ألفاً في شيء ما ترون به اليوم بأساً . كما في «تاريخ الاسلام» للحافظ
الذهبي ٤ : ١٩٤ - ١٩٥ . وقد سبق في ترجمة المؤلف المحاسبي ص ٢٧ -
٢٨ أنه ترك سبعين ألف درهم لشبهة قامت له في معتقد أبيه .

(١) فقد قيل : علامة الكاذب جُودُهُ بيمينه من غيرِ مستحليفٍ له .
بل إن استطعت أن لا تحلف فلا تحلف ، فقد روى البخاري في « التاريخ »
والحاكم في « المستدرک » ٤ : ٣٠٣ بسند فيه ضعف « عن ابن عمر رضي الله
عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الْحَلِفُ حِنْثٌ أَوْ نَدَمٌ » .
وذلك أن الخالف إما يخالفُ يمينه فيحنث ويأثم لكذب اليمين ، أو
يندَمُ على منعه نفسه مما كان له فعله وعمله . ثم في قوله : والله لا فعلتُ ،
أو : والله لأفعلنَّ نوعُ تَأَلُّفٍ على الله تعالى ، فربما أكذبه الله بحِنْثٍ ، أو
عَذَبَ قلبه بِنَدَمٍ ، فحقُّ المسلم أن يتحاشى من الحلف ما استطاع ، وإن
بَدَرَ منه الحليفُ سهواً فليُتَّبِعْهُ بالاستثناء بمشيئة الله تعالى فيقول : إن شاء
الله تعالى . فذلك أحفظُ لدينه وأسلمُ ليمينه ، والله الهادي لمن استهداه .

(٢) أي ينبغي أن تعلم حُكْمَ ما تقوله أو تعمله قبل صدوره منك . قال
الشيخ ابن القيم في «إعلام الموقعين» ٢ : ١٦٠-١٦١ وهو يتعرضُ لتفسير قوله
تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . اهدنا الصراط المستقيم ﴿﴾ . قال رحمه الله تعالى =:

.

= « والعبدُ إذا عَزَمَ على فعلٍ أمرٍ فعليه أن يَعْلَمَ أولاً هل هو طاعة لله أم لا ؟ »

١ - فان لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة ،
وحينئذ يصير طاعة .

٢ - فاذا بان له أنه طاعة فلا يُقَدِّمُ عليه حتى يَنْظُرَ هل هو مُعَانٌ عليه أم لا ؟ فان لم يكن مُعَاناً عليه فلا يُقَدِّمُ عليه فيُذِلَّ نَفْسَهُ . وإن كان مُعَاناً عليه بقي عليه نَظَرٌ آخر .

٣ - وهو أن يأتيه من بابِهِ . فان أتاها من غير بابِهِ أضاعه ، أو فَرَّطَ فيه ، أو أَفْسَدَ منه شيئاً .

فهذه الأمور الثلاثة - الطاعة والإعانة والهداية - أصلُ سعادة العبد وفلاحِهِ . وهو معنى قول العبد لربه : ﴿إياك نعبد . وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم﴾ .

فأسعدُ الخلق أهلُ العبادة ، والاستعانة ، والهداية إلى المطلوب . وأشقاهم من عَدَمِ الأمور الثلاثة .

ومنهم : من يكون له نصيبٌ من ﴿إياك نعبد﴾ ، ونصيبُهُ من ﴿إياك نستعين﴾ معدومٌ أو ضعيفٌ . فهذا مخذولٌ مَهِينٌ محزون .

ومنهم : من يكون نصيبُهُ من ﴿إياك نستعين﴾ قوياً . ونصيبُهُ من ﴿إياك نعبد﴾ ضعيفاً أو مفقوداً ، فهذا له نفوذٌ وتسلُّطٌ وقوَّةٌ ، ولكن لا عاقبة له ، بل عاقبته أسوأ عاقبة !

ومنهم : من يكون له نصيبٌ من ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ، ولكن نصيبُهُ من الهداية إلى المقصود ضعيف جداً ، كحال كثيرٍ من العُباد والزُّهاد =

وَأَلْزَمَ الْإِشْفَاقَ بَعْدَ الْجَهْدِ ، وَدَارِ النَّاسِ مَا سَلِمَ
لَكَ الدِّينُ ، وَأَحْذَرِ الْمُدَاهَنَةَ أَصْلًا ^(١) .

= الذين قلَّ علمُهم بحقائق ما بعَثَ الله به رسوله صلى الله عليه وسلم
من الهدى ودين الحق . انتهى .

قال عبد الفتاح : هذا - والله - دستور عظيم ، عليه أنوار مشكاة النبوة ،
يحتاجُ إليه كلُّ عاملٍ لصلاح نفسه ، أو عاملٍ لصلاح الأمة . فاحفظه
حفظاً ، معنى ولفظاً ، فانه ينفعك أيما نفع بإذن الله .

ومن جميل ما جاء عن السلف في تقديم العلم على العمل : ما حكاه
القاضي عياض في « ترتيب المدارك » ٣ : ٨٩ في ترجمة الإمام (البهلول بن
راشد القيرواني المالكي) صاحب الإمام مالك ، المتوفى سنة ١٨٣ رحمه الله
تعالى ، وهو من كبار العبَّاد والزهاد وأهل الورع ، قال فيها :

« خرج بهلول يوماً على أصحابه ، وقد غَطَّى خَنْصَرَهُ يده . وكان
أهلُه قد سألوه حاجة ، فَرَبَطَ في خَنْصَرِهِ خَيْطاً لِيَذْكُرَهَا ، ثم قال : خِفْتُ
أن أكون ابتدعتُ ، فغَطَّيْتُ لِأَصْبَعِهِ لثلاً يراه أحد فيقتدي به : ثم وجه بعض
أصحابه - وأسرَّ إليه الأمر - يَسْأَلُ ابنَ فَرْوُخٍ صاحِبَهُ عن ذلك . فجاءه
فأخبره عنه : أن عبد الله بن عمر كان يفعل ذلك ، فنحى بهلول كَفَّهُ عن
خَنْصَرِهِ وقال : الحمد لله الذي لم يجعلني ممن ابتدع بدعة في الإسلام . »

فانظر - رحمك الله - كيف توقف هذا الإمام الجليل عن إظهار الرِّيمَةِ
- ربط الخيط بالإصبع للتذكر - حتى يعلم حكمها من الشرع ، خشية أن
يقع في البدعة والمخالفة رحمه الله تعالى .

(١) قال الحافظُ ابن حجر في « فتح الباري » ١٠ : ٤٢٨ ما خلاصته :
الفرقُ بين المداراة والمداينة أن المداراة هي خَفْضُ الجَنَاحِ للناس ، والرفقُ =

=بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله ، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه ، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه . وهي من أخلاق المؤمنين ومندوب إليها .

والمداهنة — وهي مأخوذة من الدَّهَان ، وهو الذي يظهر على الشيء ويستتر بباطنه — معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه ، وهي محرمة منهى عنها . انتهى .

وقيل في الفرق بين المداراة والمداهنة أيضا : إنَّ المداراة هي بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين أو صلاحهما جميعا . والمداهنة هي بذل الدين لصالح الدنيا .

وقال الإمام ابن القيم في الفرق بين المداراة والمداهنة في كتاب « الروح » ص ٢٨١ . ونقله الحافظ البقاعي في مختصره « سير الروح » ص ٢٣ ولخصه بقوله : « والفرق بين المداراة والمداهنة : أن المداراة : التلطف بالإنسان لتستخرج منه الحق ، أو تردّه عن الباطل . والمداهنة : التلطف به لتقره على باطله . وتركه على هواه ، فالمداراة لأهل الإيمان ، والمداهنة لأهل النفاق .

مثال ذلك رجل به قرحة فجاءه الطبيب الرفيق فتعرف حالها ، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت بطنها برفق وسهولة . فأخرج ما فيها ، ثم وضع عليها من الدواء ما يمنع الفساد ويقطع المادة . ثم تابع عليها المراهم المنبثة للحم ، ثم ذر عليها ما ينشف الرطوبة . ثم شد عليها الرباط . ولم يزل حتى صلحت ، فهذا المداري .

وأما المداهين فقال لصاحبها : لا بأس عليك منها ، وهذه لا شيء ، فاسترها عن العيون بخرقه ثم ألّه عنها . وهذا لما رأى من جرّعه من بطنها . فلم تزل مادتها تقوى وتستحكم ، حتى زادت موادها وعظم فسادها ! » . انتهى .

وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ . وَلَا تَسْتَحِينْ أَنْ تَقُولَ
فِيمَا لَا تَعْلَمُ : اللَّهُ أَعْلَمُ^(١) .

وَلَا تَنْشُرْ حَدِيثَكَ عِنْدَ مَنْ لَا يُرِيدُهُ ، وَلَا تَبْذُلْ دِينَكَ
عِنْدَ مَنْ يُبْغِضُهُ إِلَيْكَ . وَلَا تَتَعَرَّضْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا طَاقَةَ
لَكَ بِهِ ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَمَّنْ يُهَيِّنُهَا ، وَنَزِّهْ هِمَّتَكَ عَنْ
دَنَاءَةِ الْأَخْلَاقِ ، وَلَا تُوَاخِرْ إِلَّا أَمِينًا ، وَلَا تُبَدِّ أَسْرَارَكَ
لِكُلِّ النَّاسِ ، وَلَا تُجَاوِزْ بِالْمَرْءِ حَالَهُ ، وَلَا تُخَاطِبُهُ مِنَ الْعِلْمِ
بِمَا لَا يَحْتَمِلُهُ عَقْلُهُ ، وَلَا تَدْخُلْ فِي أَمْرٍ لَمْ تُدْعَ إِلَيْهِ .
وَوَقِّرْ مَجَالِسَ الْعُلَمَاءِ ، وَاعْرِفْ قَدَرَ الْحُكَمَاءِ^(٢) ،

وقد قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إنَّ الرجلَ
ليُخْرِجُ من بيته ومعه دينُهُ ، فيلقَى الرجلَ له إليه حاجة ، فيقول : إنك
لذيتُ إنك لذيت : يثني عليه ، وعسى أن لا يحلَّ - أي لا يحظى -
من حاجته بشيء ، فيرجع فيُسخِطُ الله عليه ، فيرجع وما معه من دينه
شيء ! رواه الإمام أحمد في « العِلَل » ١ : ٢٦٨ .

(١) تقدم تعليقاً في ص ٤٩-٥٠ كلمة "حول هذا الأدب ، فعُدْ إليها .

(٢) ما أجمله من أدب ، وما أنفعه لمن طلب ؟ . وقد لزم الإمامُ
أحمد بن حنبل رضي الله عنه شيخه (هُشَيْم بن بشير الواسطي) خمس
سنين ، قال : وما سألتُه عن شيء هيبةً له إلا مرتين . كما في كتاب « العِلَل »
للإمام أحمد ١ : ١٤٥ .

.....

= وجاء في « الجامع الصغير » للسيوطي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ . وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ » رواه عن أبي هريرة : الطبراني في « الأوسط » وابن عدي في « الكامل » بإسناد ضعيف .

قال العلامة المناوي في « فيض القدير » ٣ : ٢٥٣ في شرح قوله صلى الله عليه وسلم : (تَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ مِنْهُ) : « فَاِنَّ الْعِلْمَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِالتَّوَاضُّعِ وَإِلْقَاءِ السَّمْعِ . وَتَوَاضُّعُ الطَّالِبِ لَشَيْخِهِ رِفْعَةٌ ، وَذُلُّهُ لَهُ عِزٌّ ، وَخُضُوعُهُ لَهُ فَخْرٌ . وَأَخَذَ الْحَبِيرُ - أَيِ الْعَالِمِ الْإِمَامُ - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَعَ جَلَالَتِهِ وَقَرَابَتِهِ لِلْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ . وَقَالَ : هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعِلْمَانَا ، فَقَبَّلَ زَيْدٌ يَدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ : هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَلِ بَيْتِ نَبِينَا .

وقال السليبي : ما كان إنسان يجترىء على ابن المسيب ليسأله حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير . وقال الشافعي : كنتُ أتصفحُ الورقَ بين يديَّ مالكَ برفتي لئلا يسمع وقعها . وقال الربيع - تلميذ الإمام الشافعي - : والله ما اجترأتُ أن أشرب الماءَ والشافعي ينظر . انتهى .

وفي « مناقب الإمام أبي حنيفة » للموفق الخوارزمي ٢ : ٧ « رُوي عن أبي حنيفة أنه قال : ما مددتُ رجلي نحوَ دارِ أستاذي حمَّادٍ إجلالاً له . وكان بين داري وداره سبعُ سِكَكٍ . وما صليتُ صلاةً منذ مات حمَّادٌ إلا استغفرتُ له مع والدَيَّ ، وإني لأستغفرُ لمن تعلَّمْتُ منه أو علَّمَنِي علماً . وقال أبو يوسف - تلميذُ الإمام أبي حنيفة - : إني لأدعو لأبي حنيفة قبلَ أبويَّ . ولقد سمعتُ أبا حنيفة يقول : إني لأدعو لحمَّادٍ معَ أبويَّ » . انتهى . وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما بيَّتْ منذ ثلاثين سنة إلا =

وَلَا تَدْعِ الْمُكَافَأَةَ وَالصَّنَائِعَ ^(١) ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجُهَالِ ،
وَأَحْلَمْ عَنِ السُّفْهَاءِ ، وَشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ .
وَانصُرْ أَخَاكَ مَظْلُومًا ، وَرُدَّهُ إِلَى الْحَقِّ إِنْ كَانَ ظَالِمًا ،
وَابْذُلْ لَهُ حَقَّهُ مِنْكَ ، وَلَا تُطَالِبْهُ فِي حَقِّكَ مِنْهُ ، وَيَسِّرْ

= وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلتُ لأبي :
أيُّ رجلٍ كان الشافعي ، فإني سمعتك تُكثِّرُ من الدعاء له ؟ فقال : يا بُنَيَّ :
كان الشافعيُّ كالشمس للدينا ، وكالعافية للناس ، فانظر ، هل لهُذينِ مِنْ خَلْفٍ ؟
أو عنهما مِنْ عِوَضٍ ؟ . كما في « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ٢ : ٦٢ و ٦٦ .
اللهم اغفر لمشايعنا ولمن علّمنا وارحمهم ، وأكرمهم برضوانك العظيم ، في
مقعد الصدق عندك يا أرحم الراحمين .

(١) الصنائع : جمعُ صنِعة ، وهي النعمة واليدُ الحسنةُ تُقدِّمُ لك من
غيرك ، فلا تَدْعُ الْمُكَافَأَةَ عَلَيْهَا وَمُقَابِلَةَ الصَّنِيعَةِ بِالصَّنِيعَةِ . قال سيدنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا
مَا تَكْفَتْهُ فَادْعُوا لَهُ ، حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ » رواه عن ابن عمر :
النسائي ٥ : ٨٢ وأبو داود واللفظ له .

ومن المكافأة للصنِعة أن تدعو لمن تعلّمت منه ، أو أفادك فائدة ، كما رأيتَه
في التعليقة السابقة من دُعَاء أَبِي حَنِيفَةَ لَشَيْخِهِ حَمَّادٍ ، ودُعَاء أَبِي يُونُسَ لَشَيْخِهِ
أَبِي حَنِيفَةَ ، ودُعَاء أَحْمَدَ لَشَيْخِهِ الشَّافِعِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . وقد جاء عن
الشافعي رضي الله عنه أنه قال : الحرُّ من راعَى وِدَادَ لَحْظَةٍ ، أَوْ انْتَمَى لِمَنْ
أَفَادَهُ لَفْظَةً . كما في « شرح الباجوري على السنوسية » .

عَلَى الْغَرِيمِ ^(١) ، وَارْفُقْ بِالْأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ ، وَأَكْرِمِ الصَّابِرِينَ
 مِنَ الْفُقَرَاءِ ، وَارْحَمْ أَهْلَ الْبَلَاءِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَلَا تَحْسُدَنَّ
 أَحَدًا عَلَى نِعْمَةٍ .

وَلَا تَذْكُرْ أَحَدًا بِغَيْبَةٍ ، وَسُدَّ عَلَى نَفْسِكَ بَابُ
 سُوءِ الظَّنِّ بِخَوْفِ الْمَسْأَلَةِ ^(٢) ، وَافْتَحْ بَابَ حُسْنِ الظَّنِّ
 بِسَعَةِ التَّوَاتُلِ ، وَأَغْلِقْ بَابَ الطَّمَعِ بِالْإِيَّاسِ ، وَاسْتَفْتِحْ
 بَابَ الْغِنَى بِالْقَنَاعَةِ ، وَنَزِّهْ ذِكْرَ اللَّهِ عَنْ إِضَافَةِ
 الْمَكَارِهِ ^(٣) .

(١) أَيِ الْمَدِينِ .

(٢) أَيِ بَخْوَفِكَ مِنْ أَنْ تُسْأَلَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ سُوءِ ظَنِّكَ بِغَيْرِكَ .

(٣) وَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ :
 « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ . وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » . كَمَا
 رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي « سُنَنِهِ » ١ : ٢٠١ فِي (بَابِ مَا يَسْتَفْتِحُ بِهِ الصَّلَاةَ مِنْ
 الدُّعَاءِ) .

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي « النَّهْيَةِ » فِي شَرْحِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَالْخَيْرُ
 كُلُّهُ بِيَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » : أَيِ أَنَّ الشَّرَّ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ وَلَا
 يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُكَ ، أَوْ أَنَّ الشَّرَّ لَا يَصْعَدُ إِلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يَصْعَدُ إِلَيْكَ
 الطَّيِّبُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ .

وَهَذَا الْكَلَامُ إِرْشَادٌ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْ تُضَافَ =

وحَصِّلَ الأوقاتَ ، واعْرِفْ مَا يَذْهَبُ بِهِ لَيْلُكَ وَنَهَارُكَ (١) ،

=إليه سبحانه مَحَاسِنُ الأشياءِ دُونَ مَسَاوِيهَا. وليس المقصودُ نفي شيء عن قُدْرَتِهِ تعالى وإثباته لها . فان هذا الأدب في الدعاء مندوب إليه . يُقال : يا ربَّ السماء والأرض . ولا يُقال : يا ربَّ الكِلابِ والخنَازير وإن كان هوربها « وِرَبَّ كُلِّ شيءٍ سبحانه .

(١) أي اكتسب الأوقات ولا تُضيّعها فارغةً من غير أن تملأها باستفادة أو إفادة . وخاصةً إذا كنتَ طالبَ علم . فالوقت هورأس مالك . ولقد كان مؤرِّخُ بغداد ومحدِّثُها الخطيبُ البغدادي يمشي وفي يده جزءٌ يُطالِعُه . كسباً للوقت حتى في أثناء المشي . كما في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٣ : ١١٤١ .

وجاء في سيرة الإمام الشيخ أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي . المولود سنة ٤٣١ . والمتوفى سنة ٥١٣ . وهو أحد الأعلام في الإسلام : أنه كان يقول : إني لا يَحِلُّ لي أن أضيع ساعةً من عمري . حتى إذا تعطلَ لساني عن مذاكرة ومناظرة . وبصري عن مطالعة . أعملتُ فكري في حال راحتي . وأنا منطرح . فلا أنهضُ إلا وقد خطر لي ما أسطره . وإني لأجدُ من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة .

وأنا أقصرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكلي . حتى أختارُ سفَّ الكعك ونحسيه بالماء على الخبز . لأجل ما بينهما من تفاوتِ المَضْغ . توفراً على مطالعة . أو تسطيرِ فائدة لم أدركها فيه . وإنَّ أجلَّ تحصيلٍ عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت . فهو غنيمة تُنتَهزُ فيها الفُرَص . فالتكاليف كثيرة .

قال تلميذه ابنُ الجوزي : كان الإمام ابن عقيل دائمَ الاشتغال بالعلم . وكان له الخاطرُ العاطر . والبحثُ عن الغوامض والدقائق . وجعلَ كتابه المسمَّى بـ « الفنون » متناطاً لخواطره وواقعاته .

= قال الحافظ ابن رجب : وللإمام ابن عقيل تصانيف كثيرة في أنواع العلوم . نحو العشرين تصنيفاً ، وأكبرُ تصانيفه كتابُ « الفنون » ، وهو كتاب كبير جداً ، فيه فوائد كثيرة جليلة . في الوعظ ، والتفسير ، والفقه . وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والنحو ، واللغة ، والشعر ، والتاريخ ، والحكايات . وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له . وخواطره ونتائج فكره . قيدها فيه .

قال الحافظ الذهبي : لم يُصنّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب . حدثني من رأى منه المجلّدَ الفلانيّ بعد الأربعِ مئة . قال ابن رجب : وقال بعضهم : هو ثمانُ مئة مجلّدة .

قال ابن الجوزي : ولما أدركت الوفاةُ الإمامَ ابنَ عقيل واحتضِرَ بكى النساء ! فقال : قد وقعتُ عن الله خمسين سنة - يعني أنه كان يُوقّعُ الفتاوي التي يُبينُ فيها أحكامَ الله في الوقائع والحوادث التي تقع للناس ، فكان يُوقّعُ فيها نيابةً عن الله تعالى - فدعوني أتَهَنّأُ بلفائه . ولم يُخلف سوى كتبه وثياب بدنه ، وكانت بمقدارِ كَفَنِهِ وأداءِ دَيْنِهِ . رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم والدين والإسلام خيراً .

وكان الفقيه عبد الله بن المبارك العُكْبَرِي تفقّه على ابن عقيل ، فأشار عليه شافعُ الحنبلي بشراء كتب ابن عقيل ، فباع ملكاً له واشترى بثمنه كتاب « الفنون » وكتاب « الفصول » . ووقفهما على المسلمين . انتهى ملخصاً من « ذيل طبقات الحنابلة » للحافظ ابن رجب ١ : ١٤٢ - ١٦٢ و ١٨٥ .

فانظر يا أخي - رعاك الله وإياي - كيف يُشمرُ إعمالُ الخاطر ، وحفظُ الوقت ، ودأبُ النفس في الخير والعلم . إنه ليُشمرُ ثمرات لا تكاد تُصدّق وإنها لصِدق ، يُشمرُ (ثمان مئة مجلّدة) للإمام ابن عقيل الحنبلي ، فضلاً عن باقي مؤلفاته التي هي نحو العشرين مؤلفاً . وبعضها في عشر مجلّدات . =

= وما أصدق وأجمل قول الإمام بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي المتوفى سنة ٦٩٨ رحمه الله تعالى إذ يقول :

اليوم شيءٌ وغداً مثلهُ من نخب العلم التي تلتقطُ
يُحصلُ المرءُ بها حكمةً وإنما السيلُ اجتماعُ النقطِ

وسأخني أيها القارئ فقد أطلتُ عليك في هذه التعليقة ، ولكن أرجو أن ينفعك الله بها لتعرفَ قيمةَ الوقت ، فانه أرخصُ ما يكون عند الجهال ، وأغلى ما يكون عند العلماء والعقلاء ، فهو قِوامُ علمهم وِعِمادُ حياتهم . وإذا كنتَ عرفتَ حالَ الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي في محافظته على وقته ، وحرصه على الانتفاع به في كل نفسٍ من أنفاسه ، حتى إنه كان يختارُ سَفَّ الكعك وتحسيتهُ بالماء على مَضْغِ الخبز ، لأجل ما بينهما من التفاوت في الوقت ، ليتوفر على مطالعة ، أو تسطيرِ فائدة ، أو القيامِ بعبادة .

فإليك حالَ الشيخ الإمام ابن الجوزي ، الذي اقتدى به في سيرته حتى كاد أن يكون إياه ، لتشهدَه كيف كان يعرفُ شَرَفَ الوقت وقيمتَه . وكيف كان يكسِبُ الوقت إذا زاره ضيوف أو نزلَ به ثُقَلَاء بطَّالون . قال رحمه الله تعالى في كتابه « صيد الخاطر » ١ : ٤٦ و ٢٠١ - ٢٠٢ و ٢ : ٣١٨ - ٣١٩ :

« ينبغي للإنسان أن يعرفَ شَرَفَ زمانه ، وقَدَرَ وقته ، فلا يضيعَ منه لحظةً في غير قُربة . ويُقدِّمُ الأفضلَ فالأفضل من القول والعمل . ولتكن نيتهُ في الخير قائمةً من غير فتور ، بما لا يعجزُ عنه البدن من العمل ، كما جاء في الحديث : « نيةُ المؤمن خيرٌ من عمله » . وقد كان جماعةٌ من السلف يُبادرون اللحظات ، فنُقِلَ عن عامر بن عبد قيس - أحد التابعين العباد الزهاد - أنَّ رجلاً قال له : (كَلِّمْنِي) ، فقال له عامر : أَمْسِكِ الشمس . وقد رأيتُ عمومَ الخلائق يدفعون الزمانَ دفعاً عجيبياً ! إن طال الليل =

= فبحديث لا ينفع ، أو بقراءة كتاب فيه غزلٌ وسَمَرٌ ، وإن طال النهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق - وكان ابنُ الجوزي يعيش في بغداد - فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم ، وما عندهم خبر ! ورأيتُ النادرين قد فهموا معنى الوجود ، فهم في تعبته الزاد والتأهب للرحيل ، فالله الله في مواسم العمر ، والبدارَ البدارَ قبل الفوات !

وأعوذ بالله من صُحبة البطالين ! لقد رأيتُ خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويسمّون ذلك الترددَ خدمةً ، ويُطيلون الجلوس ، ويُجرون فيه أحاديثَ الناس وما لا يعني ، ويتخللُه غيبة . وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، وربما طلبه المزور ، وتشوّقَ إليه ، واستوحش من الوحدة ، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان !

فلما رأيتُ أنَّ الزمان أشرفُ شيء ، والواجبُ انتهائه بفعل الخير ، كرهتُ ذلك ، وبقيتُ معهم بين أمرين : إن أنكرتُ عليهم وقعتُ وحشةٌ لموضع قطع المألوف ، وإن تقبلتُ منهم ضاع الزمان ! فصرتُ أدافعُ اللقاءَ جهدي ، فاذا غلبتُ قصرتُ في الكلام لأتعبَلُ الفراق . ثم أعددتُ أعمالاً لا تمنع من المحادثة ، لأوقات لقائهم ، لئلا يمضي الزمان فارغاً ، فجعلتُ من الاستعداد للقائهم قطعَ الكاغد - أي قصَّ الورق - وبري الأقلام ، وحزمتُ الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لا بدَّ منها ، ولا تحتاجُ إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم ، لئلا يتضيع شيء من وقتي .

ولقد شاهدتُ خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة ، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله ، فهو يقعدُ في السوق أكثرَ النهار ينظرُ إلى الناس ، =

وَجَدَّدَ فِي كُلِّ وَقْتِ تَوْبَةٍ ، وَاجْعَلْ عُمرَكَ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ .
 سَاعَةً لِلْعِلْمِ ، وَسَاعَةً لِلْعَمَلِ ، وَسَاعَةً لِحُقُوقِ نَفْسِكَ وَمَا
 يَلْزَمُكَ . وَاعْتَبِرْ بِمَنْ مَضَى ، وَتَفَكَّرْ فِي مَنْصَرَفِ الْفَرِيقَيْنِ
 بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى : فَرِيقٍ فِي الْجَنَّةِ بِرِضَاهُ ، وَفَرِيقٍ فِي
 السَّعِيرِ بِسَخَطِهِ ، وَاعْرِفْ قُرْبَ اللَّهِ مِنْكَ ، وَأَكْرِمِ الْحَفَظَةَ
 الْكَاتِبِينَ^(١) .

= وكم تَمَرُّ به من آفة ومنكر. ومنهم من يخلو بلعيب الشَّطْرَتِجِ، ومنهم
 من يَقْطَعُ الزَّمانَ بِحكايةِ الحوادثِ عن السلاطين والغلاء والرُّخصِ إلى غير
 ذلك ، فَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُطْلِعْ عَلَى شَرَفِ الْعَمْرِ وَمَعْرِفَةِ قَدْرِ أَوْقَاتِ
 الْعَافِيَةِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ وَأَلْهَمَهُ اغْتِنَامَ ذَلِكَ ، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ . نَسْأَلُ
 اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعَرِّفَنَا شَرَفَ أَوْقَاتِ الْعَمْرِ ، وَأَنْ يُوفِّقَنَا لِإِغْتِنَامِهِ « آمِينَ .

(١) قلت : نعم وما أحقَّهم بالإكرام ، فإذا كان الرسول الكريم صلى
 الله عليه وسلم قد أوصى بالجار من الناس حتى قال : « ما زال جبريل يُوصيني
 بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه » . وهذا في الجار من الناس الذي بينك وبينه
 جدار وأحجار ، فكيف بالجار الكريم : الملك المستقرُّ على كتفك ، يراك في
 كل تصرف تتصرفه لك أو عليك ، فرعايةُ جواره أحقُّ ، وإكرامُ قُربيه
 أَسْبَقُ وَأَلْصَقُ .

وما أحسنَ ما قاله الشيخ ابن أبي جَمْرَةَ الأندلسي رحمه الله تعالى في
 كتابه « بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة مالها وما عليها » ٤ : ١٦٥ وهو يشرح
 حديث « ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه » قال :
 « تنبيه : إذا كنتَ يُؤكِّدُ عليك في حقِّ جارِ بيتك ، وبينه وبينك جدار ، =

وتناولَ نِعَمَ اللَّهِ بالفهم ، وردّها إِلَيْهِ بحُسنِ الثناء والشكر^(١).

= وتُمنعُ أن يصل إليه منك أذية ، وتؤمرُ بحفظه وإيصال الخير إليه ، فكيف بمراقبة المَلَكَيْنِ الحافظَيْنِ ، اللَّذَيْنِ ليس بينك وبينهما جدار ولا حائل ؟ وأنت تؤذيها مع مُرور الساعات ! بدوام التفريط وإيقاع المخالفات ؟ ! انظر بعقلك : هل يَصُحُّ لك مع ذلك حقيقةُ الإيمان ؟ أم كيف حالك يا مسكين ؟ ! لأنه قد جاء أن الحفظة الكرام يُسَرُّون بحسنات العبد أكثر مما يُسَرُّ العبدُ بها عند رؤية ثوابها ، وأنهما يَحْزنان ويغتمَّان من سيئات العبد ومعصيته أكثر مما يَحْزَن العبد إذا رأى جزاءه عليها .

فإساءتُك لهما : بخيبتُك ، وأنت لا تستحي ولا تتزجر ! فانتبه يا بَطَّال قبل رفع الحجاب : وغلقت الباب : إذا كنتَ نفسك لا تحفظُها ، وجيرانك منك لا يَسلمون . فالهرب منك ثم الهرب ثم الهرب ! » .

(١) وما أحسن موقفَ التابعي الخليل (عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرِ المكي) قاصُّ أهل مكة . المتوفى سنة ٦٨ من الهجرة رحمه الله تعالى : وقد اشتهر بمثانة دينه وصلاحه . وكان فصيحاً بليغاً يَجْلِسُ الصَّحَابِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ في حلقتِه ، ويكي متأثراً بكلامه وصلاحه . فقد جاءته امرأة جميلة معجبةً بجمالها ، تريد أن تفتنه عن دينه وصلاحه : فأخرجها من أن تكون فاتنة من الفاتنات إلى أن تكون عابدة من العابدات ، وردّها إلى الله بالفهم ولنعمه وحسنِ الشكر له سبحانه .

قال العجّلي في كتابه « الثقات » : « حدثني أبي عبدُ الله قال : كانت امرأةٌ جميلة بمكة . وكان لها زوج ، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرأة فقالت لزوجها : أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يُفتنُ به ؟ ! قال : نعم ، قالت : من ؟ قال : عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ . قالت : فأذن لي فيه فلا تُفْتِنَنَّهُ ! قال : = قد أذنتُ لك .

.

فَأَتَتْهُ فَاسْتَفْتَتْهُ ، فَعَلَا مَعَهَا فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، قَالَ :
فَاسْفَرْتُ عَنْ مِثْلِ فَلَقَةِ الْقَمَرِ ! فَقَالَ لَهَا : يَا أُمَّةَ اللَّهِ اتَّقِي اللَّهَ ، قَالَتْ :
إِنِّي قَدْ فُتِنْتُ بِكَ فَانْظُرْ فِي أَمْرِي ! قَالَ : إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ أَنْتِ
صَدَقْتَ نَظَرْتُ فِي أَمْرِكَ ، قَالَتْ : لَا تَسَلَّنِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا صَدَقْتُكَ .

قَالَ : أَخْبِرْنِي لَوْ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ أَتَاكَ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ أَكَانَ يَسْرُكَ
أَنِّي قَضَيْتُ لَكَ هَذِهِ الْحَاجَةَ ؟ قَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا ، قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ :
فَلَوْ أَنَّ النَّاسَ أَعْطَوْا كُتُبَهُمْ وَلَا تَدْرِينَ أَنَا خَذِينَ كِتَابَكَ بِيَمِينِكَ أَمْ بِشِمَالِكَ ؟
أَكَانَ يَسْرُكَ أَنِّي قَضَيْتُ لَكَ هَذِهِ الْحَاجَةَ ؟ قَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا ، قَالَ : صَدَقْتَ .

قَالَ : فَلَوْ أَرَدْتَ الْمَرْءَ عَلَى الصَّرَاطِ وَلَا تَدْرِينَ أَتَنْجِيْنِ أَمْ لَا تَنْجِيْنِ !
أَكَانَ يَسْرُكَ أَنِّي قَضَيْتُ لَكَ هَذِهِ الْحَاجَةَ ؟ قَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا ، قَالَ : صَدَقْتَ .
قَالَ : فَلَوْ جِئْتُ بِالْمُوزَانِ وَجِئْتُ بِكَ لَا تَدْرِينَ تَخْفِيْنِ أَمْ تَثْقَلِيْنِ ! أَكَانَ
يَسْرُكَ أَنِّي قَضَيْتُ لَكَ هَذِهِ الْحَاجَةَ ؟ قَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا ، قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ :
فَلَوْ وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لِلْمُسَائِلَةِ أَكَانَ يَسْرُكَ أَنِّي قَضَيْتُ لَكَ هَذِهِ الْحَاجَةَ ؟
قَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا ، قَالَ : صَدَقْتَ .

قَالَ : اتَّقِي اللَّهَ يَا أُمَّةَ اللَّهِ ، فَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ .
قَالَ : فَرَجَعَتْ إِلَى زَوْجِهَا قَالَ : مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَتْ : أَنْتَ بَطَّالٌ وَنَحْنُ
بَطَّالُونَ ! فَأَقْبَلْتُ عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْعِبَادَةِ ، فَكَانَ زَوْجُهَا يَقُولُ :
مَا لِي وَلِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَفْسَدَ عَلَيَّ أَمْرًا ! كُنْتُ كُلَّ لَيْلَةٍ عَرُوسًا فَصَبَّرَهَا
رَاهِبَةً ! . . انتهى .

وَلَقَدْ صَدَّقَ مِنْ قَالَ :

مَا الْكَيْمَا قَلْبُ الْحَجَارَةِ فِیْضَةً بَلْ أَنْ تُزِيلَ الظُّلْمَةَ الْأَنْوَارَ

واحدَرُ مِنْ اتِّهَامِ النَّفْسِ بِرُؤْيَةِ المَقَامَاتِ^(١) ، وَتَسْفَهُ الحَقِّ بِغَمَطِ النَّاسِ فَإِنَّهُ سُمِّ قَاتِلُ^(٢) ، وَاعْتَزِلَ خَوْفَ السُّقُوطِ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ لَخَوْفِ مَقْتِهِمْ^(٣) ، وَخَوْفِ الْفَقْرِ : بِقَرَبِ الْأَجْلِ . وَأَخْفَ أَثْرَكَ مَا اسْتَطَعَتْ^(٤) .

(١) لعل معناه : إذا أَرَتَكَ نَفْسُكَ أَنَّ لَكَ مَقَاماً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَاتَّهِمِهَا وَاحْدَرُ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تُرِيكَ ، أَوْ بِمَا يَقُولُهُ النَّاسُ فِيكَ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى ، الْخَائِفِينَ مِنْ عِلَاقَةِ الْغُيُوبِ .

جاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ٣ : ٨٩ في ترجمة الإمام (البُهْلُولُ بن راشد القيرواني المالكي) أحد أصحاب الإمام مالك ، المتوفى سنة ١٨١ ، وَهُوَ أَحَدُ الْعِبَادِ الزَّهَادِ الْوَرَعِينَ :

« قَالَ بَعْضُ تَلَامِذَةِ الْبُهْلُولِ : دُفِعَ إِلَى الْبُهْلُولِ كِتَابٌ فَقَضَّاهُ فَإِذَا فِيهِ : مِنْ امْرَأَةٍ مِنْ سَمَرْقَنْدٍ خِرَاسَانِ ، مَجَنَّتْ مُجُوناً لَمْ يَمَجِّنْهُ أَحَدٌ إِلَّا هِيَ ، ثُمَّ أَنْابَتْ إِلَى اللَّهِ ، وَسَأَلَتْ عَنِ الْعِبَادِ فِي أَرْضِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَوُصِفَ لَهَا أَرْبَعَةُ أَحَدُهُمْ بِبُهْلُولٍ بِإِفْرِيقِيَّةٍ ، فَكَتَبَتْ لَهُ تَقُولُ : سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ يَا بُهْلُولُ إِلَّا دَعَوْتَ اللَّهَ أَنْ يُدِيمَ لِي مَا فَتَحَ لِي فِيهِ . قَالَ : فَسَقَطَ الْكِتَابُ مِنْ يَدِهِ وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ ، وَجَعَلَ يَبْكِي حَتَّى لَصِقَ الْكِتَابُ بِطِينِ دُمُوعِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا بُهْلُولُ ! مِمَّنْ سَمَرْقَنْدٍ خِرَاسَانِ ؟! الْوَيْلُ لَكَ مِنَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَسْتُرْ عَلَيْكَ ! » . فزادته رُؤْيَا مَقَامِهِ خَوْفاً وَخَشْيَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَمَا أَعْرَفَهُ وَأَعْقَلَهُ !؟

(٢) فِي النُّسخَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ : (وَتَسْفَهُ الْحَقَّ بِعَتَبِ النَّاسِ فَإِنَّهُ سَهْمٌ قَاتِلٌ) .

(٣) وَقَعَ فِي الْأَصْلَيْنِ (لَخَوْفِ مَقْتِهِ) ، فَأُثْبِتَ كَمَا تَرَى .

(٤) أَيُّ أَخْفَى أَعْمَالَكَ الصَّالِحَةَ مَا اسْتَطَعْتَ . لِتَكُونَ أَوْفَرَ إِخْلَاصاً مِنْكَ ، وَأَوْفَى قَبُولاً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَابْذُلْ الْجَهْدَ عِنْدَ الْمَشُورَةِ ، وَأَحِبَّ فِي اللَّهِ بَعْزَمٍ ،
وَأَقْطَعْ فِي اللَّهِ بِحَزَمٍ ^(١) . وَلَا تُخَالِلْ إِلَّا تَقِيًّا عَالِمًا ^(٢) ، وَلَا
تُخَالِطُ إِلَّا عَاقِلًا بَصِيرًا . وَكُنْ مُقْتَدِيًّا بِمَنْ قَبْلَكَ مِنَ
الْأَثَمَةِ ، وَمُعَلِّمًا لِمَنْ بَعْدَكَ مِنَ الْأُمَّةِ . إِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ ،
كَهْفًا لِلْمُسْتَرْشِدِينَ .

وَلَا تُظْهِرَنَّ إِلَى أَحَدٍ شَكْوَى ، وَلَا تَأْكُلْ بِدِينِكَ الدُّنْيَا ^(٣) ،

(١) الحزم تعجلُ المرءُ فعلًا ما يَخْشَى فواته ، والعزمُ القوةُ وتوجهُ
الإرادة لفعل الشيء .

جاء في « الموطأ » للإمام مالك بشرح الزُّرقاني في (باب الأمر بالوتر)
١ : ٢٣١ بسنده إلى سعيد بن المسيَّب قال : « كان أبو بكر الصديق إذا أراد
أن يأتي فراشه أوتر ، وكان عمر بن الخطاب يُوترُ آخرَ الليل » . قال
الزُّرقاني : « رُوي أنه ذُكرَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فَعِلَ العُمَرَيْنِ ،
فقال : حَدَرَ هذا - أي أبو بكر - ، وَقَوِيَ هذا - يعني عمر - . وجاء أنه
صلى الله عليه وسلم قال : لأبي بكر : أَخَذْتَ بِالْحَزَمِ ، وقال لعمر : أَخَذْتَ
بِالْقُوَّةِ - أي بالعزم - » .

(٢) قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا ،
وَلَا يَأْكُلْ طَعَامُكَ إِلَّا تَقِيًّا » . رواه عن أبي سعيد الخدري أبو داود ٤ : ٢٥٩ ،
والتِّرْمِذِيُّ ٩ : ٢٤٢ وقال : حديث حسن .

(٣) جاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض رحمه الله تعالى في ترجمة
الإمام (البهلول بن راشد القيرواني المالكي) أحد أصحاب الإمام مالك رحمهما =

وَحُذِّ بِحَظِّكَ مِنَ الْعُزْلَةِ ، وَلَا تَأْخُذَنَّ إِلَّا حَلَالًا ۝ ، وَجَانِبِ
الْإِسْرَافِ ، وَاقْنَعْ مِنَ الدُّنْيَا بِالْكَفَافِ .

= الله تعالى ٣ : ٩٨ « قال بعضهم : دَفَعَ بُهْلُولُ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ دِينَارَيْنِ لِيَشْتَرِيَ لَهُ بِهِمَا زَيْتًا يَسْتَعْدِيهِ لَهُ ، فَذُكِرَ لِلرَّجُلِ أَنَّ عِنْدَ نَصْرَانِيٍّ زَيْتًا أَعْدَبَ مَا يَوْجَدُ ، فَاِنْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِالْدِينَارَيْنِ ، فَأَخْبَرَ النَّصْرَانِيَّ أَنَّهُ يَرِيدُ زَيْتًا عَذْبًا لِلْبَهْلُولِ .

فَقَالَ النَّصْرَانِي : نَحْنُ نَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْبَهْلُولِ كَمَا تَتَقَرَّبُونَ أَنْتُمْ بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ بِالْدِينَارَيْنِ مِنْ ذَلِكَ الزَّيْتِ : مَا يُعْطَى بِأَرْبَعَةِ دَنَانِيرٍ مِنْ دَنِيٍّ الزَّيْتِ . ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى بَهْلُولٍ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ لَهُ بَهْلُولُ : قَضَيْتَ حَاجَةً فَأَقْضِ لِي أُخْرَى ، رُدَّ عَلَيَّ الدِينَارَيْنِ ، فَقَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ : ذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . فَخَشِيتُ أَنْ أَكُلَ زَيْتَ النَّصْرَانِي ، فَأَجِدُ لَهُ فِي قَلْبِي مَوَدَّةً ، فَأَكُونُ مِنْ حَادِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى عَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا يَسِيرُ ! » . فَلَلَّهُ دَرَّهُ مَا أَحْرَصَهُ عَلَى دِينِهِ ؟

(١) سَأَلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : بِمِ تَلِينُ الْقُلُوبِ ؟ قَالَ : بِأَكْلِ الْحَلَالِ . كَمَا فِي « طَبَقَاتِ الْحَنَابِلَةِ » لِابْنِ أَبِي يَعْلَى ١ : ٢١٩ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِي : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُكَاشَفَ بَأْيَاتُ الصِّدِّيقِينَ فَلَا يَأْكُلُ إِلَّا الْحَلَالَ ، وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا فِي سُنَّةٍ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ : رَدُّ دَرَاهِمٍ مِنْ شِبْهَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمِئَةِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ . وَكَانَ نِسَاءُ السَّلَفِ يُوصِينَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا خَرَجُوا لِلسَّعْيِ وَالْكَسْبِ فَيَقُلْنَ لَهُمْ : اتَّقُوا اللَّهَ فِينَا وَلَا تَطْعَمُونَا الْحَرَامَ ، فَاِنَّا نَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ وَلَا نَصْبِرُ عَلَى الْحَرَامِ . وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : فَاِنَّا نَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ وَلَا نَصْبِرُ عَلَى النَّارِ .

وَاطْلُبِ الْأَدَبَ فِي بَسَاتِينِ الْعِلْمِ^(١) ، وَالْأُنْسَ فِي مَوَاطِنِ
الْخَلْوَةِ ، وَالْحَيَاءَ فِي شِعَابِ النَّفْسِ ، وَالاعتْبَارَ فِي أَوْدِيَةِ
التَّفَكُّرِ^(٢) ، وَالْحِكْمَةَ فِي رِيَاضِ الْخَوْفِ . وَأَعْرِفْ دَوَامَ
إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْكَ مَعَ مُخَالَفَتِكَ لَأَمْرِهِ ، وَحِلْمَهُ عَنْكَ مَعَ
إِعْرَاضِكَ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَسِتْرَهُ عَلَيْكَ مَعَ قِلَّةِ حَيَاتِكَ مِنْهُ ،
وِغْنَاهُ عَنْكَ مَعَ فَقْرِكَ إِلَيْهِ .

أَيْنَ عَالَمُ بَرَبِهِ ؟ أَيْنَ خَائِفٌ مِنْ ذَنْبِهِ ؟ أَيْنَ مَسْرُورٌ
بِقُرْبِهِ ؟ أَيْنَ مَشْغُولٌ بِذِكْرِهِ ؟ أَيْنَ مُشْفِقٌ مِنْ بُعْدِهِ ؟ هُوَ
ذَا مَغْفُورٌ لَهُ يَا مَغْرُور !! أَلَمْ يَرْكَ الْجَلِيلُ قَدْ هَتَكَتَ
السُّتُورَ ؟!

وَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّ الذُّنُوبَ تُورِثُ الْغَفْلَةَ^(٣) ، وَالْغَفْلَةَ

(١) وَبُسْتَانُ تِلْكَ الْبَسَاتِينِ : الْقُرْآنُ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ : « الْقُرْآنُ
بُسْتَانُ الْعَارِفِينَ ، فَأَيْنَمَا حَلَّتْ مِنْهُ حُلُوتٌ فِي نَزْهَةٍ » . مِنْ « الْحَلِيَّةِ » لِأَبِي
نَعِيمٍ ٢ : ٣٤٧ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : (الْفَكْرُ) . وَالمُثَبِّتُ مِنَ النُّسخَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ .

(٣) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنِّي لِأَحْسَبُ أَنَّ الرَّجُلَ
يَنْسَى الْعِلْمَ قَدْ عَلِمَهُ بِالذَّنْبِ يَعْمَلُهُ . مِنْ « جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ » لِابْنِ
عَبْدِ الْبَرِّ ١ : ١٩٦ .

تُورِثُ الْقَسْوَةَ ، والقسوة تُورِثُ الْبُعْدَ مِنَ اللَّهِ ، والبُعدُ مِنَ اللَّهِ يُورِثُ النَّارَ ! وَإِنَّمَا يَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ : الْأَحْيَاءُ ، وَأَمَّا الْأَمْوَاتُ فَقَدْ أَمَاتُوا أَنْفُسَهُمْ بِحُبِّ الدُّنْيَا ^(١) .

= وجاء في « طبقات الحنفية » لعلي القاري ٢ : ٤٨٧ : « كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه : إذا أَشْكَلَتْ عليه مسألة قال لأصحابه : ما هذا إلا لذنب أحدثته ! وكان يَسْتَغْفِرُ ، وربما قام وصَلَّى ، فتنكشفُ له المسألة . ويقول : رجوتُ أَنِّي تَيْبَ عليَّ . فبلغَ ذلك الفضيلَ بنَ عياض . فبكى بكاءً شديداً ثم قال : ذلك لقلَّةِ ذنبه . فأما غيره فلا يَتَنَبَّهُ لهذا » .

وجاء في « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر ، في ترجمة (وكيع بن الجراح الكوفي) ١١ : ١٢٩ وهو أَحَدُ الْأَثَمَةِ الْأَعْلَامِ الْحَفَاطِ . وقد كان النَّاسُ يَحْفَظُونَ تَكَلُّفًا ، وَيَحْفَظُ هُوَ طَبْعًا . « قال علي بن خَشْرَمَ : رأيتُ وكيعاً وما رأيتُ بيده كتاباً قط ، إنما هو يحفظ ، فسألته عن دواءِ الحفظ ؟ فقال : تَرُكُ المعاصي . ما جَرَّبْتُ مثله للحفظ » .

(١) أشار المؤلفُ هنا إلى بعضِ آثارِ الذنوب ، وقد استوفى الشيخُ ابنُ القيم في كتابه « الفوائد » وكتابه « الجواب الكافي » بيانَ أضرارِ الذنوبِ والمعاصي استيفاءً جامعاً . وقابلَ بينِ آثارِ فعلِ الذنوبِ وآثارِ تركِها مقابلةً صادقةً دقيقةً ، تَدْفَعُ بكلِّ ذي لُبٍّ وَعَقْلٍ إلى تركِ الذنوبِ والبُعدِ عن أسبابِها ، وإلى التحليِّ بالطاعاتِ وما يَبْعَثُ عليها . وها أنا ذا ناقلٌ لك كلامَه - على طوله - لنفاسته واستيفائه وصدقِ واقعه . فراعِهِ سَمْعَكَ ، ووجهَ له قلبَكَ . وَأَعْمِلْ له عقلَكَ ، واللَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ .

قال رحمه الله تعالى في كتابه « الفوائد » ص ٤١ و ٩٧ و ١٣٩ و ١٥٠ - ١٥١ : « الذُّنُوبُ جراحاتٌ ، ورُبَّ جُرْحٍ وَقَعَ في مَقْتَلٍ !! وما ضُرِبَ =

.

=عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قَسْوَةِ القلبِ والبُعْدِ عن الله . وأبعدُ القلوبِ من الله القلبُ القاسي ! وإذا قَسَا القلبُ قَحَطَتِ العينُ ، وقسوةُ القلبِ من أربعة أشياء إذا جاوزَتْ قَدْرَ الحاجة : الأكل ، والنوم ، والكلام ، والمخالطة .

واعلم أن الصَّبْرَ عن الشهوة أسهلُّ من الصبرِ على ما تُوجبه الشهوة ، فإن الشهوة : إما أن توجب ألمًا وعقوبة ، وإما أن تقطع لذةً أكملَ منها ، وإما أن تُضيّع وقتاً وإضاعتهُ حسرةٌ وندامة ، وإما أن تُثْلِمَ عِرْضاً تُوفيرهُ أنفعُ للعبد من ثلمه ، وإما أن تُذهبَ مالاً بقاؤه خيرٌ من ذهابه . وإما أن تُضَعِّقَ قَدْرًا وجاهاً قِيامهُ خيرٌ مِنْ وضعه ، وإما أن تُسَلِّبَ نعمةً بقاؤها ألدُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة .

وإما أن تُطَرِّقَ لَوْضِيعَ إلیك طريقاً لم يكن يجدُّها قبل ذلك ، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يُقَارِبُ لذة الشهوة ، وإما أن تُنْسِيَ عِلماً ذِكره ألدُّ من نِيلِ الشهوة ، وإما أن تُشْمِتَ عدوًّا وتُحْزِنَ وليًّا ، وإما أن تقَطِّعَ الطريقَ على نعمة مقبلة ، وإما أن تُحدِثَ عيباً يَبْقَى صِفَةً لا تزول ، فإن الأعمال تُورِثُ الصِّفَاتِ والأخلاق .

فسبحان الله رب العالمين : لو لم يكن في تَرْكِ الذُّنُوبِ والمعاصي إلا إقامةُ المروءة ، وصونُ العرض ، وحفظُ الجاه ، وصيانةُ المال الذي جعله الله قِواماً لمصالح الدنيا والآخرة ، ومحبةُ الخلق ، وجوازُ القول بينهم ، وصلاحُ المعاش ، وراحةُ البدن ، وقوَّةُ القلب ، وطيبُ النفس ، ونعيمُ القلب ، وانشراحُ الصدر ، والأمنُ من مخاوفِ الفسَّاقِ والفُجَّارِ ، وقلةُ الهمِّ والغمِّ والحزن ، وعِزُّ النفس عن احتمالِ الذُّلِّ ، وصونُ نُورِ القلب أن تُطْفِئَه ظلمةُ المعصية .

.

= وحصولُ المَخْرَجِ لمتقي الذنوب مما ضاق على الفُسَّاقِ والفُجَّارِ ،
وتيسيرُ الرزقِ عليه من حيث لا يحتسب ، وتيسيرُ ما عَسُرَ على أربابِ الفسوقِ
والمعاصي ، وتسهيلُ الطاعاتِ عليه ، وتيسيرُ العلمِ ، والثناءُ الحسنُ في
الناسِ ، وكثرةُ الدعاءِ له ، والحلاوةُ التي يكتسبها وجهه ، والمهابةُ التي
تَلْقَى له في قلوبِ الناسِ ، وانتصارُهم وحميتُهم له إذا أُوذِيَ وظلِمَ ،
وذَبُّهم عن عِرْضِهِ إذا اغتابه مغتاب .

وسُرْعَةُ إجابةِ دُعائه ، وزَوَالُ الوحشةِ التي بينه وبين الله ، وقُرْبُ
الملائكةِ منه ، وبعْدُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ منه ، وتَنَافُسُ الناسِ على
خدمته وقضاءِ حوائجِهِ ، وخطبتُهم لمودَّتِهِ وصُحْبَتِهِ ، وعدمُ خوفِهِ
من الموتِ بل يَقْرَحُ به لقدمه على رَبِّهِ ولقائه له ومصيره إليه ، وصَغُرُ
الدنيا في قلبه ، وكَبُرُ الآخرةِ عنده ، وحِرْصُهُ على المُلْكِ الكبيرِ والفوزِ
العظيمِ فيها .

وذَوُقُ حلاوةِ الطاعةِ ، ووجَدُ حلاوةِ الإيمانِ ، ودُعَاءُ حَمَلَةِ
العرشِ ومَنْ حوله من الملائكةِ ، وفرَحُ الكاتِبِينَ به ، ودُعَاؤُهُم له كلَّ
وقتٍ ، والزيادةُ في عَقْلِهِ وفَهْمِهِ وإيمَانِهِ ومَعْرِفَتِهِ . وحصولُ محبةِ الله له ،
وإقبالُهُ عليه ، وفرَحُهُ بتوبته : لَكَفَى بَاعِثًا لَهُ عَلَى تَرْكِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي ،
وهكذا يجازيه الله بفرَحٍ وسُرورٍ لا نسبةَ له إلى فرَحِهِ وسُروره بالمعصيةِ
بوجهٍ من الوجوه .

فهذه بعضُ آثارِ تَرْكِ المعاصي في الدنيا . فإذا مات تَلَقَّتْهُ الملائكةُ
بالبُشْرَى من رَبِّهِ بالجنةِ ، وبأنه لا خوفٌ عليه ولا حُزْنٌ ، وَيَتَنَقَّلُ من
سِجْنِ الدنيا وضييقِها إلى روضةٍ من رياضِ الجنةِ يَتَنَعَّمُ فيها إلى يومِ
القيامةِ . فإذا كان يومُ القيامةِ كان الناسُ في الحرِّ والعَرَقِ وهو في ظِلٍّ =

.

= العرش ، فاذا انصرفوا من بين يدي الله : أَخَذَ اللهُ بِهِ ذَاتَ الْيَمِينِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . انتهى كلام ابن القيم في كتابه « الفوائد » في بيان آثار ترك الذنوب .

وقد عدّدَ رحمه الله تعالى في كتابه النافع العُجَاب « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » آثارَ فعل الذنوب والمعاصي على فاعلها ، واستوفاهَا أَثَرًا أَثَرًا بالشرح والبيان والدليل والتوجيه ، في أكثر من مئة صفحة من ص ٥٢ - ١٦٦ . وأنا أنقل لك جملةً من عناوين آثارها ، قال رحمه الله تعالى : « والمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المُضِرَّة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة : ما لا يعلمه إلا الله .

منها : حِرمانُ العلم والرزق . وحصولُ الوحشة بين العاصي وبين الله ، وبينه وبين الخلق ، وتعميرُ أموره . وظلمةُ القلب والوجه والقبر ، وَوَهْنُ القلب والبدن . وحِرمانُ الطاعة . ومَحَقُّ العمر ، وأنها تَزَرَعُ أمثالها ، وَيُولَدُ بعضها بعضاً ، وتُضَعِفُ إرادة القلب وإنابته إلى الله ، ويزول بها عن القلب استقباحُ الذنوب !

وهي سببُ لهوانِ العبد على الله ، وتُلْحِقُ ضررهَ غيرهَ من الآدميين والحيوانات ، وتُورِثُ الذل ، وتُفْسِدُ العقل ، وَيُطْبَعُ على قلب صاحبها ، وتُدْخِلُهُ تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتَحْرِمُهُ الدخولَ في أَدْعِيَتِهِ صلى الله عليه وسلم وأدعيةِ الملائكة لمن امْتَثَلَ أمر الله وَاتَّبَعَ كتاب الله وسنة رسوله .

وهي سبب لعقوبات البرزخ المتنوعة . وتُحْدِثُ في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن ، وتُذهِبُ الحياءَ والغيرةَ وتعظيمَ الرب ، وتستدعي نسيانَ الله للعبد ، وهناك الهلاك ! وتُخْرِجُ العبدَ =

.

= من دائرة الإحسان، وتَحَرِّمُهُ ثوابَ المحسنين، وتُزِيلُ النَّعَمَ، وتُحِلُّ النِّقَمَ، وتُوجِبُ خوفَ صاحبها ورُعْبَهُ، ويصير القلبَ مريضاً أو ميتاً بعد أن كان حياً صحيحاً. وتُعْمِي البصيرة !

ولا يزال العاصي في أسر الشيطان . وأسر النفس الأمارة بالسوء وسجن الشهوات ، وتسقطُ منه الجاه والمنزلة . وتسلبه أسماء المدح . وتكسبه أسماء الذم ، وتمحق بركة العلم والعمل والرزق والعمر وكل شيء ! وتَخُونُ العبدَ أحوجَّ ما يكون إلى نفسه ، وتُبَاعِدُ عن العبد وَلِيَّهُ من الملائكة ، وتُقَرِّبُ إليه أعداءَ الشياطين ، وتؤثِّرُ في القلوب الآثارَ القبيحة من الرِّين والطَّبَعِ والخَنَمِ والنفاق وسوء الأخلاق ، وقبول الشكوك والشبه وغيرها من الأمراض القاتلة .

وبالجملة : جميعُ شرورِ الدنيا والآخرة التي على القلوب ، والتي على الأبدان . العامة والخاصة . أسبابُها الذنوب والمعاصي ! . انتهى .

ومعذرةٌ من هذه الإطالة ، فإنها في السعي للنجاة من أكبر داء : (الذنوب) ونحن الضعفاء نُذنبُ كثيراً . ونعصي كثيراً . فنحتاج إلى أن نُشَحِّنَ بالموعظة شحناً ، لعلنا نكفُّ عن الذنوب ، ونَتُوبُ إلى علاّم الغيوب . وهذه كلمة نافعة للإمام ابن الجوزي قالها في كتابه « صيد الخاطر » ، ١ : ١٨٥ و ٢ : ٢٧٢ من أطيب الكلمات وأقواها في الدعوة إلى ترك الذنوب . قال رحمه الله تعالى :

« الحَذَرُ الحَذَرُ من المعاصي ، فإنها سيئة العواقب ، والحَذَرُ الحَذَرُ من الذنوب خصوصاً ذنوبَ الخَلَوَات ، فإن المِبارزةَ لله تعالى تُسْقِطُ العبدَ من عينه سبحانه .

ولا يَنَالُ لَذَّةَ المعاصي إلا دائمُ الغفلة ، فأما المؤمنُ اليقظانُ فإنه لا =

واعْلَمَ أَنَّهُ كَمَا لَا يُغْنِي ضَوْءُ النَّهَارِ : الْأَعْمَى ، كَذَلِكَ لَا يُضِيءُ بِنُورِ الْعِلْمِ إِلَّا أَهْلُ التَّقَى . وَكَمَا أَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَنْفَعُهُ الدَّوَاءُ ، كَذَلِكَ لَا يُفِيدُ الْأَدَبُ فِي أَهْلِ الدَّعْوَى . وَكَمَا لَا يُنْبِتُ الْوَابِلُ الصِّفَا ^(١) ، كَذَلِكَ لَا تُثْمِرُ الْحِكْمَةُ بِقَلْبٍ مُحِبٍّ الدُّنْيَا ^(٢) ، وَمَنْ أَلِفَ هَوَاهُ قَلَّ أَدَبُهُ ، وَمَنْ

= يَلْتَذُّ بِهَا ، لِأَنَّهُ عِنْدَ التَّذَاذِهِ يَقِفُ بِلِزَائِهِ عِلْمُهُ بِتَحْرِيمِهَا ، وَحَذَرُهُ مِنْ عَقُوبَتِهَا ، فَانْ قَوِيَّتْ مَعْرِفَتُهُ رَأَى بَعَيْنُ عِلْمِهِ قُرْبَ النَّاهِي - وَهُوَ اللَّهُ - فَيَتَنَغَّصُ عَيْشُهُ فِي حَالِ التَّذَاذِهِ ، فَانْ غَلَبَتْهُ سُكْرُ الْهَوَى كَانَ الْقَلْبُ مُتَنَغِّصًا بِهَذِهِ الْمُرَاقِبَاتِ ، وَإِنْ كَانَ الطَّبِيعُ فِي شَهْوَتِهِ فَمَا هِيَ إِلَّا لِحِظَةٍ ، ثُمَّ خِزْيٌ دَائِمٌ ، وَنَدَمٌ مُلَازِمٌ ، وَبُكَاءٌ مُتَوَاصِلٌ ، وَأَسْفٌ عَلَى مَا كَانَ ، مَعَ طُولِ الزَّمَانِ ، حَتَّى إِنْ لَوْ تَيَقَّنَ الْعَفْوَ وَقَفَّ بِأَزَاثِهِ حَذَرُ الْعِتَابِ .

فَأَفٍّ لِلذُّنُوبِ ! مَا أَقْبَحَ آثَارُهَا ؟ وَأَسْوَأُ أَخْبَارُهَا ؟ وَلَا كَانَتْ شَهْوَةٌ ! لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَقْدَارِ قُوَّةِ الْغَفْلَةِ ! . انْتَهَى بِتَصْرِفٍ يَسِيرٍ .

وَرَحِمَ اللَّهُ أَخَانَا الْأَسْتَاذَ الْمُجَاهِدَ الدَّاعِيَةَ الْكَبِيرَ الشَّيْخَ مُصْطَفَى السَّبَاعِي إِذْ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ « هَكَذَا عَلَّمَنِي الْحَيَاةَ » ص ٣٢ « إِذَا هَمَّتْ نَفْسُكَ بِالْمَعْصِيَةِ فَذَكِّرْهَا بِاللَّهِ ، فَإِذَا لَمْ تَرْجَعْ فَذَكِّرْهَا بِأَخْلَاقِ الرِّجَالِ ، فَإِذَا لَمْ تَرْجَعْ فَذَكِّرْهَا بِالْفَضِيحَةِ إِذَا عَلِمَ بِهَا النَّاسُ ، فَإِذَا لَمْ تَرْجَعْ فَاعْلَمْ أَنَّكَ تِلْكَ السَّاعَةُ انْقَلَبْتَ إِلَى حَيَوَانٍ ! » . انْتَهَى . فَيَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ .

(١) الْوَابِلُ : الْمَطَرُ الشَّدِيدُ ، وَالصِّفَا جَمْعُ صِفَاةٍ ، وَهِيَ : الْحَجَرُ الصَّلْدُ الصَّخْمُ الَّذِي لَا يُنْبِتُ .

(٢) قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا عَقُوبَةُ الْعَالِمِ =

خَالَفَ دَلَالَةَ عِلْمِهِ كَثُرَ جَهْلُهُ ، وَمَنْ لَمْ يَنْفَعُهُ دَوَائِهِ
كَيْفَ يُدَاوِي غَيْرَهُ ؟ !

وَأَعْلَمَ أَنَّ أَرْوَاحَ النَّاسِ أَبْدَانًا أَهْلُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ^(١) .
وَأَتَعَبَ النَّاسِ قُلُوبًا وَأَكْثَرَهُمْ شُغْلًا أَهْلُ الْإِهْتِمَامِ بِالدُّنْيَا .
وَأَعَوَّنُ الْأَخْلَاقِ عَلَى الزُّهْدِ قِصْرُ الْأَمَلِ ^(٢) ، وَأَقْرَبُ حَالَاتِ
أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ : ذِكْرُ الْقِيَامِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ^(٣) .

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ أَقْرَبُ مِنَ الصَّدَقِ ، وَلَا دَلِيلَ

= إذا أحبب الدنيا ؟ قال : موت القلب فإذا أحبب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ،
فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ، ويبقى عليه رسمه ! من « البداية
والنهاية » لابن كثير ٩ : ٢٦٨ .

(١) أي أكثر الناس راحةً لأبدانهم : أهل الزهد ... قال رجل لمحمد بن
واسع : أوصني ، قال : أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة ، قال :
كيف هذا ؟ قال : ازهد في الدنيا . من « تاريخ الإسلام » للذهبي ٥ : ١٥٩

(٢) وجاء في « نهج البلاغة » ٤ : ١٩٩ منسوباً إلى سيدنا علي رضي الله عنه :
« الزهد كله بين كلمتين من القرآن : قال الله سبحانه : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى
مَا فَاتَكُمْ . وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ . ومن لم يأس - أي يحزن - على
الماضي ، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه .

(٣) من سورة النساء : ١ .

أَنْجَحُ مِنَ الْعِلْمِ ، وَلَا زَادَ أَبْلَغُ مِنَ التَّقْوَى^(١) ، وَمَا رَأَيْتُ
أَنْفَى لِلْوَسْوَاسِ مِنْ تَرْكِ الْفُضُولِ ، وَلَا أَنْوَرَ لِلْقَلْبِ مِنْ
سَلَامَةِ الصَّدْرِ . وَوَجَدْتُ كَرَامَةَ الْمُؤْمِنِ تَقْوَاهُ ، وَحِلْمَهُ
صَبْرَهُ ، وَعَقْلَهُ تَجْمَلُهُ ، وَمَوَدَّتَهُ تَجَاوُزُهُ وَعَفْوُهُ^(٢) ، وَشَرَفَهُ

(١) نَعَمْ . كيف وقد قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾
وانقون يا أولي الألباب ﴿ . وقد أخبر سبحانه أن أمره بالتقوى قائم مستمر
في كل شريعة فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَلِيَاكُم أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

قال العلامة الفيروز آبادي في « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب
العزیز » ٢ : ١١٦ عقب هذه الآية : « يُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ
خَصْلَةٌ هِيَ أَصْلَحُ لِلْعَبْدِ . وَأَجْمَعُ لِلْخَيْرِ . وَأَعْظَمُ لِلأَجْرِ ، وَأَجَلٌّ فِي
الْعِبَادَةِ ، وَأَعْظَمُ فِي الْقَدْرِ . وَأَوَّلُ فِي الْحَالِ ، وَأَنْجَحُ فِي الْمَالِ مِنْ هَذِهِ
الْخَصْلَةِ لَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِهَا عِبَادَهُ ، وَأَوْصَى بِخَوَاصِّهِ بِذَلِكَ ، لِكَمَالِ
حُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ .

فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الأولين والآخرين من
عباده واقتصر عليها : عَلِمْنَا أَنَّهَا الْغَايَةُ الَّتِي لَا مُتَجَاوِزَ عَنْهَا ، وَلَا مُقْتَصَرَ
دُونَهَا . وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ كُلَّ مُحَضَّرٍ نُصَحٍ وَدَلَالَةٍ وَإِرْشَادٍ
وَسُنَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَهْذِيبٍ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْوَاحِدَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ يُشْعِرُ بَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّقْوَى » .

(٢) قال محمد بن واسع : « إِنَّ ذَلِيلَ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ ذَلِيلِ الْآخِرَةِ » .
من « تاريخ الإسلام » للذهبي ٥ : ١٦١ .

تَوَاضَعَهُ وَرَفَّقَهُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ مَحَبَّةَ الْغِنَى - مع اخْتِيَارِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ الْفَقْرَ -
تَسَخُّطٌ ، وَمَحَبَّةَ الْفَقْرِ - مع اخْتِيَارِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ الْغِنَى -
جَوْرٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ هَرَبٌ مِنَ الشُّكْرِ لِقِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ ، وَتَضْيِيعٌ
لِلْأَوْقَاتِ مِنْ قِصَرِ الْعِلْمِ ^(١) .

وَذَلِكَ أَنَّ إِيْمَانَ الْغَنِيِّ لَا يُصْلِحُهُ الْفَقْرُ ، وَإِيْمَانَ الْفَقِيرِ
لَا يُصْلِحُهُ الْغِنَى . كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :
« إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْفَقْرُ ، وَلَوْ
أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ
إِلَّا الْغِنَى ، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ » ^(٢) .

(١) وقع في الأصلين : (وتضييعُ الأوقات من قِصر العلم) . وهو
تحريف عما أثبتته .

(٢) هذا جزء من حديث قدسي ضعيف ، رواه أنس بن مالك عن النبي
ﷺ عن جبريل عن الله تبارك وتعالى قال : « من أهان لي ولياً فقد بارزني
بالمحاربة ... » . رواه أبو يعلى والبزار والطبراني وابن أبي الدنيا في « كتاب
الأولياء » ص ١٠٠ من « مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا » . والحكيم الترمذي
وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في « الأسماء والصفات » ص ١٢١ وابن
عساكر ، كما في « فتح الباري » للحافظ ابن حجر ١١ : ٢٩٣ و « الإتحافات
السنية في الأحاديث القدسية » للعلامة محمد المدني ص ٣٥ - ٣٦ . =

وكذلك في الصِّحَّة والسَّقَم ، فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَمْ يَتَّهَمُهُ^(١) ،
وَمَنْ فَهِمَ عَنِ اللَّهِ رَضِيَ بِقَضَائِهِ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ
إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ لَكَفَّتْهُمْ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ،
مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾^(٢) .

واحذرْ أَخْلَاقَ الْجَاهِلِينَ ، وَمُجَالَسَةَ الْمُذْنِبِينَ^(٣) ،

= قال الحافظ ابن حجر : « في سنده ضعف » . وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي
في « جامع العلوم والحكم » ص ٣١٤ : « في سنده : الحسنُ بن يحيى الخُشَنِي
عن صدقة بن عبد الله الدمشقي ، وهما ضعيفان ، عن هشام الكنايني عن أنس .
وهشام لا يُعرف . وسئل ابنُ مَعِينٍ عن هشامٍ هذا من هو ؟ فقال : لا
أحد . يعني : لا يُعْتَبَرُ به » .

(١) كيف يَتَّهَمُهُ وقد أخبر سبحانه عن نفسه بقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

والإحاطةُ بالشَّيْءِ عِلْمًا هي أن يَعْلَمَ وجودَه ، وجنسَه ، وكيفيته ،
وقدْرَه ، وغرضَه المقصودَ به ، وبإيجاده ، وما يكون هو منه ، وحاجتَه ،
وما يُصلِحُه ، وما يُفسدُه ، وما ينتهي إليه . وليس ذلك إلا لله تعالى وحده .
فمن درى هذا في جناب الله تعالى حقَّ الدَّرَايةِ لم يَتَّهَمُهُ في تصرُّفاته سبحانه
﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

(٢) من سورة القصص : ٦٨ .

(٣) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : جالسوا التَّوَّابِينَ فانهم أرقُّ
أفئدة . من « روضة العقلاء » لابن حبان ص ١٨ .

وَدَعَاوَى الْمُعْجَبِينَ ^(١) ، وَرَجَاءَ الْمُغْتَرِّينَ ، وَيَأْسَ الْقَانِطِينَ .
وَكُنْ بِالْحَقِّ عَامِلًا ، وَبِاللَّهِ وَاثِقًا ، وَبِالْمَعْرُوفِ آمِرًا ، وَعَنِ
الْمُنْكَرِ نَاهِيًا ^(٢) . فَإِنَّ مَنْ صَدَقَ اللَّهُ نَصَحَهُ ، وَمَنْ تَزَيَّنَ
لْغَيْرِهِ فَضَحَهُ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَمَنْ وَثِقَ بِغَيْرِهِ
مَقَتَهُ ، وَمَنْ خَافَهُ أَمَّنَهُ ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ ، وَمَنْ أَطَاعَهُ
أَكْرَمَهُ ، وَمَنْ آثَرَهُ أَحَبَّهُ .

(١) جاء في الأصلين : (ودواعي المعجبين) . وهو تحريف .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » في كتاب المناقب ، في (باب قصة
البيعة والانفاق على عثمان) ٧ : ٥٢ - ٥٣ عن عمرو بن ميمون أن عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه لما طعنته أبو لؤلؤة المجوسي ، وعرفوا أنه ميت ،
قال : « فدخلنا عليه ، وجاء الناس يُثْنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال :
أبشِّر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك ... »

فلما أدبر الشاب إذا إزاره يمسُّ الأرض ، قال عمر : رُدُّوا عليَّ
الغلام ، قال : يا ابن أخي ارفعْ ثوبك ، فانه أنقى لثوبك ، وأتقى لربك
انتهى .

فانظر يا رعاك الله إلى عمر رضي الله عنه ، وهو في النَّزْعِ يَجُودُ بِنَفْسِهِ :
لم يَمْنَعَهُ ما كان فيه من غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْآلَامِ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَى
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَنْصَحَ ذَلِكَ الشَّابَّ بِالْأَتَقَى وَالْأَتَقَى . رضي الله عن عمر ،
ورزقنا الاقتداء بسيرته .

وَاحْذَرْ أَنْ تَدِينَ لِلَّهِ بِالْعَقْلِ (١) ، وَتَعْمَلَ بِالْهَوَى ،
وَتَتْرَكَ الْحَقَّ ، وَتَبُوءَ بِالْبَاطِلِ ، وَتَتَمَنَّى الْمَغْفِرَةَ وَأَنْتَ
نَاسٍ لِلتَّوْبَةِ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُرْضَى مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ إِلَّا مَا ثَبَتَ
بِالْيَقِينِ أَصْلُهُ ، وَعَلَا بِالْصِّدْقِ فَرْعُهُ ، وَأَثْمَرَ بِالْوَرَعِ نَبَاتُهُ ،
وَقَامَ بِالْإِشْفَاقِ بُرْهَانُهُ ، وَحُجِبَ بِالْخَشْيَةِ أَسْتَارُهُ ، فَلَا
تَرْضَى مِنْ نَفْسِكَ بِالتَّوَانِي ، فَإِنَّهُ لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِي التَّفْرِيطِ ،
وَلَا لِأَحَدٍ عَنِ اللَّهِ غِنَى .

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ : حُسْنَ النِّيَّةِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ
تَعَالَى (٢) ، وَالتَّوْفِيقَ لِمَحَابَّتِهِ . وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَهَبَ

(١) الظاهر أن معناه : أن تقوم بطاعته تعالى وعبادته على سبيل المحاسبة والمقابلة . أو المعنى : احذر أن يكون إيمانك بالله تعالى وتدينك له (عقلاً) : لا يتعدى إلا إلى تنفيذ ما قبله عقلك من أوامره ونواهيه ، فالعقل "تَبَعَ" للشرع الصحيح — لا عكسه — في كل ما أمَرَ أو نهى عنه ، عقلته أو لم تعقله ، في حين أن ما صَحَّحَ عن الشرع لا يخالف العقل السليم الحصيف ، ولكن قد يَدِّقُ عنه .

(٢) سبق تعليقا في ص ٤٥-٤٦ ما يرتبط بهذا المعنى فانظره .

لَهُ الْعَقْلَ ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْعِلْمَ^(١) ،

(١) واعلم أن الاشتغال بالنافلة من العلم أفضل من الاشتغال بالنافلة من العبادة ، وعلى ذلك الأئمة الأربعة وغيرهم من أساطين الإسلام ، روى الحافظ ابن عبد البر في « الانتقاء » ص ٨٤ بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي تلميذ الإمام الشافعي قال : « سمعتُ الشافعي يقول : طلبُ العلم أفضل من الصلاة النافلة » .

وقال الإمام الكشميري في « فيض الباري على صحيح البخاري » في شرح (كتاب العلم) ١ : ١٦٢ « لا تُنْكَرُ فَضْلُ الْعِلْمِ ، فَإِنَّ مَالِكاً وَأَبَا حَنِيفَةَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى ذَهَبَا إِلَى أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِالْعِلْمِ خَيْرٌ مِنَ الْإِشْتَغَالَ بِالنَّوَافِلِ ، وَعَنْ أَحْمَدَ رَوَاتَانِ : إِحْدَاهُمَا فِي فَضْلِ الْعِلْمِ . وَالْأُخْرَى فِي فَضْلِ الْجِهَادِ ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي « مِنْهَاجِ السَّنَةِ » . انْتَهَى .

وجاء في « طبقات الحنابلة » للقاضي ابن أبي يَعْلَى ١ : ١٩٩ في ترجمة الإمام أبي زُرْعَةَ الرَّازِي أَحَدِ أئِمَّةِ الْحَدِيثِ ، وَمِنْ شُيُوخِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، وَفِي « مَنَاقِبِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ » لابن الجوزي ص ٢٨٩ : « قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ : لَمَّا قَدِمَ أَبُو زُرْعَةَ - بَغْدَادَ - نَزَلَ عِنْدَ أَبِي ، فَكَانَ كَثِيرَ الْمَذَاكِرَةِ لَهُ ، فَسَمِعْتُ أَبِي يَوْمَ يَقُولُ : مَا صَلَّيْتُ الْيَوْمَ غَيْرَ الْفَرَضِ ، اسْتَأْثَرْتُ بِمَذَاكِرَةِ أَبِي زُرْعَةَ عَلَى نَوَافِلِي » .

ومن لطيف ما وقع لبعض الأئمة أنه انصرف عن نافلة التعليم إلى نافلة العبادة ، فَوَقَعَتْ لِأَحَدٍ مَحَبَّتُهُ رُؤْيَا مَنَامِيَّةٍ دَعَتْ ذَلِكَ الْإِمَامَ أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الْإِنْقِطَاعِ لِلتَّعْبُدِ إِلَى نَشْرِ الْعِلْمِ وَإِذَاعَتِهِ .

جاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ، ٣ : ٢٣٤ - ٢٣٥ و ٢٤٠ و ٣٦١ في ترجمة الإمام المحدث الفقيه العابد الزاهد (عبد الله بن وهب القرشي المصري) صاحب الإمام مالك والليث والثوري وغيرهم ، المتوفى سنة =

.

= ١٩٧ رحمه الله تعالى ،

جاء فيه أن سُحْنُون قال : « كان ابنُ وهب قد قَسَمَ دهره أثلاثاً ، ثلث في الرباط ، وثلث يعلم الناس بمصر ، وثلث بالحج ، وذكر أنه حج ستاً وثلاثين حجة .

قال ابن أخيه : كنتُ معه بالإسكندرية مُرابطاً ، فاجتمع الناسُ عليه يسألونه نَشَرَ العلم ، فقال لي : هذا بلدُ عبادة ، وقلما أمهدُ لنفسي فيه مع شُغْل الناس ، فترك الجلوسَ لهم في الأوقات التي كان يجلس ، وأقبل على العبادة والحراسة .

فبعدَ يومين أتاه إنسان فأخبره أنه رأى نفسه في مسجد عظيم نحو المسجد الحرام ، والنبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وأبو بكر عن يمينه ، وعمر عن شماله ، وأنت بين يديه ، وفي المسجد قناديل تزهر أحسن شيء وأشدَّها ضياءً ، إذ خَفَّتْ منها قنديلٌ فانطفأ ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبد الله أوقده فأوقدته ، ثم آخرُ كذلك ، ثم أقمت أياماً فرأيت القناديل كلها همت أن تطفأ ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أترى هذه القناديل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هذا عملُ عبد الله ، يريد يطفئها !

فبكى ابنُ وهب ، فقال له الرجل : جئتُ لأبشرك ، ولو علمتُ أنه يَغْمُك لم آتيك . فقال : خير ، هذه رؤيا وعُظْتُ بها ، ظننتُ أن العبادة أفضلُ من نشر العلم ، فترك كثيرًا من عمليهِ للعلم ، وحبسَ نفسه لهم يقرأون عليه ويسألونه .

قال ابنُ وهب : كنتُ بين يدي مالك أكتب ، فأقيمت الصلاة - وفي لفظ آخر : فأذن المؤذن - ، وبين يديه كتبُ منشورة ، فبادرتُ إلى جمعها ، فقال لي مالك : على رسلك ، فليس ما تقوم إليه بأفضل مما أنت =

وَحَبَاهُ بِالْإِشْفَاقِ^(١) ، وَاسْتَعْمَلَهُ بِالرَّفْقِ ، وَأَغْنَاهُ بِالْقَنَاعَةِ ،

= فِيهِ إِذَا صَحَّتْ فِيهِ النِّيَّةُ .

قال الإمام يحيى الليثي عالم الأندلس وتلميذ الإمام مالك : من جاءه الموت وهو يطلب العلم ، لم يكن بينه وبين الأنبياء في الجنة إلا درجة .

(١) أي منحه وأعطاه الإشفاق ، وهو الخوف من الله تعالى . وقد كانت صِفَةُ الإشفاق من الله تعالى حَلِيَّةَ السلف الصالح رضوان الله عليهم . « قال رجل لمحمد بن واسع أحد العلماء الصالحين ، والعباد المحدثين ، والغزاة المرابطين : إني أحبك في الله تعالى . فقال له محمد بن واسع : أحبك الله الذي أحببني له ، اللهم إني أعوذ بك أن أحبَّ فيك وأنت لي مُبْغِضٌ » . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ٣٤٩ .

ولنعرف شيئاً عن هذا المشفق (محمد بن واسع) أنقلُ لك كلمات يسيرة من سيرته إلى جانب ما تقدم من كلماته تعليقاً في ص ١٦١ و ١٦٢ وما يأتي في ص ١٧٧ ، قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » ٥ : ١٥٩ - ١٦١ .

« قال جعفر بن سليمان : كنت إذا وجدتُ في قلبي قسوةً غدتُ فنظرتُ إلى وجه محمد بن واسع ، كان كأنه شكَلِي ! قال الأصمعي : لما صَافَ قَتِيْبَةُ بن مُسْلَم التُّرْكَ وهَالَهُ أَمْرُهُمْ . سأل عن محمد بن واسع ؟ فقيل : هو ذاك في الميمنة يَبْصِصُ - أي يُحَرِّكُ - بإصبعه نحو السماء ، قال : تلك الإصبعُ أحبُّ إليَّ من مئة ألف سيفٍ شهير . - أي مشهور مسلول - وشابُّ طَرِير - أي حسن الهيئة - .

ولما توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٣ قال سليمان بن بلال التيمي أحدُ العلماء المحدثين الكبار : ما أحدٌ أحبُّ إليَّ أن ألقى الله تعالى بمثل صحيفته إلا محمد بن واسع .

جَسَدٌ لُفِّفَ فِي أَكْفَانِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى ذَاكَ الْجَسَدِ

وَبَصَرُهُ عَيْبُهُ .

واعلم - رحمك الله - أَنَّ الصِّدْقَ والإِخْلَاصَ : أَصْلُ كُلِّ حَالٍ ، فمن الصِّدْقِ يَتَشَعَّبُ الصَّبْرُ والقَنَاعَةُ والزُّهْدُ والرضا والأُنْسُ . وعن الإِخْلَاصِ يَتَشَعَّبُ اليَقِينُ والخوفُ والمحبةُ والإِجْلَالُ والحَيَاءُ والتعظيمُ .

ولكلِّ مؤمنٍ في هَذِهِ المَقَامَاتِ مَوْطِنٌ يُعْرَفُ بِهِ حَالُهُ ، فيقالُ له : خَائِفٌ ، وفيهِ الرِّجَاءُ ؛ و : رَاجٍ ، وفيهِ الخوفُ ؛ و : صَابِرٌ ، وفيهِ الرِّضَا ؛ و : مُحِبٌّ ، وفيهِ الحَيَاءُ . وَقُوَّةُ كُلِّ حَالٍ وَضْعُهُ : بِحَسَبِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ ومَعْرِفَتِهِ . ولكلِّ أَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ثَلَاثُ عِلَامَاتٍ يُعْرَفُ بِهَا الْحَالُ :

فَالصِّدْقُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهِ : صِدْقُ الْقَلْبِ بالإِيْمَانِ تحْقِيقاً ، و صِدْقُ النِّيَّةِ فِي الْأَعْمَالِ ، و صِدْقُ اللَّفْظِ فِي الْكَلَامِ .

وَالصَّبْرُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهِ : الصَّبْرُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ احْتِسَاباً لِلَّهِ .

والقناعة في ثلاثة أشياء : قلة الغذاء بعد وجوده ،
وصيانة الفقر عند العدم وقلة الأسباب ^(١) ، والسكون
إلى أوقات الله عز وجل مع حلول الفاقة .

وللقناعة أول وآخر ، فأولها : ترك الفضول مع
وجود الاتساع ، وآخرها وجود الغنى مع فقد الأسباب ،
ومن هاهنا قال بعضهم : القناعة أعلى من الرضا . وإنما
أراد قناعة التمام ، لأن الراضي لا يتعرض في المنع
والعطاء ، والقانع غني بربه ، لا يحب الزيادة معه من
حظ هو له إلا منه له .

والزهد في ثلاثة أشياء - لا يسمى زاهداً إلا بها - :
خلع الأيدي من الأملاك ، ونزاهة النفس عن الحلال ،
والسهر عن الدنيا بكثرة الأوقات ^(٢) .

ويكون الرجل متزهداً بثلاثة آخر : حمية النفس عند

(١) أي إبداء الغنى والرضا عند فقدان وقلة الرزق .

(٢) وقال الإمام عبد الله بن المبارك في تعريف الزاهد : « هو الذي إن
أصاب الدنيا لم يفرح ، وإن فاتته لم يحزن . كما في ترجمته في « ترتيب
المدارك » ٣ : ٤٠ للقاضي عياض .

تَرَامِي الإِرَادَاتِ ، وَالْهَرَبُ مِنْ مَوَاطِنِ الْغِنَى ، وَأَخَذُ
الْمَعْلُومِ عِنْدَ الْحَاجَةِ .

وَالْأُنْسُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أُنْسٌ بِالْعِلْمِ وَالذِّكْرِ فِي
الْخُلُوعِ ، وَأُنْسٌ بِالْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ مَعَ الْخُلُوعِ ، وَأُنْسٌ بِاللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ حَالٍ ^(١) .

وَالرِّضَا : نِظَامُ الْمَحَبَّةِ . وَنَفْسُ التَّوَكُّلِ : رُوحُ
الْيَقِينِ . وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ وَالْفُضَيْلِ بْنِ
عِيَّاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ : الرِّضَا :
التَّوَكُّلُ .

فَهَذِهِ شُعْبُ الصَّدَقِ الْمَأْخُودَةِ بِأَوْصَافِ الْعِلْمِ . وَكَانَ
سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ : إِذَا كَمَلَ صِدْقُ الصَّادِقِ
لَمْ يَمْلِكْ مَا فِي يَدَيْهِ .

وَأَمَّا شُعْبُ الْإِخْلَاصِ فَلَا يُسَمَّى الْمُخْلِصُ مُخْلِصًا حَتَّى
يُفَرِّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَشْبَاهِ وَالْأَنْدَادِ ، وَالصَّاحِبَةِ

(١) وسبق تعليقا ص ١٠٣ كلمات من سيرة الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى تنصل بهذا المعنى ، فعُدَّ إليها .

والأولاد (١) .

(١) إليك هذه الوقائع الثلاث تشهّد فيها حقيقة الإخلاص ، وتزداد بها خيراً وفهماً لإفراد الله تعالى بالعمل والعبادة :

١ - قال الإمام ابن جرير الطبري في تاريخه : « تاريخ الأمم والملوك » . في حوادث سنة ١٦ من الهجرة ٤ : ١٧٦ : « لما هبط المسلمون المدائن ، وجمعوا الأقباض - الغنائم - أقبل رجلٌ بحقٍّ معه - وعاءٌ كبيرٌ مملوء من الجوهر والتُّحف - فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال - والذين معه : ما رأينا مثلاً هذا قط ! ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أنّ للرجل شأنًا فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليُقرّظوني ، ولكني أحمدُ الله وأرضى بثوابه .

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه ؟ فاذا هو عامرُ بن عبد قيس . القيسي الحضرمي أحدُ عبّاد التابعين الزهّاد ، وهو أوّل من عرّف منهم بالنسك بالبصرة . رضي الله عنه .

٢ - وقال ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » ١ : ١٧٢ : « حاصر مسلمةُ بن عبد الملك حصنًا ، وكان في ذلك الحصن نقبٌ - أي ثقب في الحائط - فندب الناس إلى دخوله ، فما دخله أحد ! فجاء رجلٌ من عرّض الجيش - أي من عامته غير معروف - فدخله ففتح الله عليهم الحصن ، فنادى مسلمةُ : أين صاحبُ النقب ؟ فما جاءه أحد ، فنادى : إني قد أمرتُ الآذنَ بإدخاله ساعةً يأتي ، فعزّمتُ عليه إلا جاء .

فجاء رجل إلى الآذن فقال : استأذن لي على الأمير ، فقال له : أنت صاحبُ النقب ؟ قال : أنا أخبركم عنه ، فأتى الآذن إلى مسلمة فأخبره عنه ، فأذن له ، فقال الرجل لمسلمة : إنّ صاحب النقب =

= يأخذُ عليكم ثلاثاً : ألا تُسَوِّدُوا اسمَهُ - أي ألا تكتبوه - في صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولا تسألوه ممن هو ؟ - أي من أي قبيلة هو - قال مَسْلَمَةٌ : فذاك له . قال الرجل : أنا هو .

فكان مَسْلَمَةٌ بعد هذه الحادثة لا يُصَلِّي صلاةً إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحبِ الثَّقَبِ .

(٣) « وحكى الصُّولي قال : حدثنا العلاء . قال : حدثني يعقوب بن جعفر بن سليمان قال : غزوتُ مع المعتصم عَمُورِيَّةَ ، فاحتاج الناسُ إلى الماء ، فمدَّ لهم المعتصمُ حِيَاضاً من أدُم - أي جلود - عشرة أميال ، وساق منها الماءَ إلى سُوْر عَمُورِيَّة . ويقال : كان في خيله ثمانون ألفاً أبلق وثمانون ألفاً أدهم .

وكان رجل من الروم يقوم كلَّ يوم على السُّور . ويَشْتَمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالعَرَبِيَّةِ باسمه ونَسَبِهِ ! فاشتدَّ ذلك على المسلمين ، ولم يكن يصل إليه النَّشَاب . قال يعقوب : وكنتُ أرمي رمياً جيداً ، فاعتمدته بنُشَابَةٍ فأصبتُ نَحْرَهُ . فهَوَى وكَبَّرَ المسلمون ، وسُرَّ المعتصم وقال : عليٌّ بالذي رماه . فأُدخلتُ عليه فقال : من أنت ؟ فانتسبتُ ، فقال : الحمد لله الذي جعلَ ثوابَ هذا السهم لرجلٍ من أهلي - يعني من بني العباس .

ثم قال : بِعَني هذا الثوابَ . فقلت : يا أمير المؤمنين ليس الثوابُ مما يباعُ ، فقال : إني أَرَغْبُكَ ، فأعطاني مئة ألف درهم ، فقلت : ما أبيعُ ثوابي ، فبلَّغَهَا إلى خمس مئة ألف درهم ، فقلت : لا أبيعُ ثوابي بالدنيا وما فيها . ولكن قد جعلتُ لك - أي وهبتُ لك - نصفَ ثوابي - أي ثوابِ هذا السهم - واللهُ يَشْهَدُ عليَّ بذلك ، قال : جزاك الله خيراً قد رَضِيتُ .

ثم قال : فأين تعلَّمتَ الرمي ؟ قلت : بالبصرة في داري ، فقال : بِعَنيها .

ثُمَّ إِرَادَتُهُ اللَّهُ بِإِقَامَةِ التَّوْحِيدِ ، وَجَمْعُ الِهَمِّ لَهُ وَبِهِ
فِي النَّفْلِ وَالْفَرَضِ .

وَصِحَّةُ الْيَقِينِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : سَكُونُ الْقَلْبِ إِلَى الثِّقَةِ
بِاللَّهِ ، وَالانْقِيَادُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالإِشْفَاقُ وَالْوَجَلُ مِنْ سَابِقِ
الْعِلْمِ .

وَلِلْيَقِينِ أَوَّلٌ وَآخِرٌ ، فَأَوَّلُهُ : الطَّمَأْنِينَةُ ، وَآخِرُهُ :
إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْكَفَايَةِ . لِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ
اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، وَالْحَسْبُ هُوَ : الْكَافِي ،
وَالْمُكْتَفِي هُوَ : الْعَبْدُ الرَّاضِي بِمَا قَضَى .

وَإِنَّمَا قُلْنَا : آخِرُ الْيَقِينِ مِنْ وَجُودِ أَوْصَافِ الْعَبْدِ فِي
مَقَامِ الْإِيمَانِ لَا فِي آخِرِ الْيَقِينِ مِنَ الْعِلْمِ ، وَلَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ

فَقُلْتُ : وَهِيَ وَقْفٌ عَلَى مَنْ يَتَعَلَّمُ الرَّمِي . فَوَصَّلَنِي بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (١) .
فَلَهُ دَرُّ ذَلِكَ الْمَلِكِ الَّذِي يَجْهَدُ كُلَّ جَهْدِهِ لِشُرَاءِ ثَوَابِ هَذَا السَّهْمِ ، وَلِلَّهِ
دَرُّ ذَلِكَ الرَّامِي الَّذِي لَا يَبِيعُ ثَوَابَ سَهْمِهِ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ — لَا أَبَا لِأَبْيَكُم — مِنَ اللَّتُومِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
(١) مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ : ٦٤ .

١ - انتهى نقلاً من «رسالة في الصيد والرمية والحيل» مخطوطة في مكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة .
برقم ٣٤ في فهرس الأدب ، لإبراهيم بن ولي الحنفى السباهي بغزة والمفتي بها ، فرغ من تأليفها سنة
٩٥٩ رحمه الله تعالى .

أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ مِنْ اللَّهِ كُنْهًا » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بَلَّغْنَا أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ؟ قَالَ : « لَوْ أَزْدَادَ يَقِينًا وَخَوْفًا لَمْشَى فِي الْهَوَاءِ » (١) .

ولا يكونُ الخوفُ إلا بعد اليقين ، وهل رأيت خائفًا لِمَا لَمْ يَسْتَيْقِنْهُ ؟ .

(١) هذا حديث موضوع ، وإسناده إلى رسول الله ﷺ باطل . وقد وَقَعَ ذكره كذلك في « الإحياء » ١٢ : ٩٤ ! وقال الحافظ العراقي في « تحريجه » : « المعروف أنه من قول بكر بن عبد الله المزني ، رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب اليقين » قال : فَقَدَ الْخَوَارِثُونَ نَبِيَّهِمْ ، فَقِيلَ لَهُمْ : تَوَجَّهْ نَحْوَ الْبَحْرِ . فَانْطَلَقُوا يَطْلُبُونَهُ فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى الْبَحْرِ ، إِذَا هُوَ قَدْ أَقْبَلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ، فَذَكَرَ حَدِيثًا فِيهِ أَنَّ عِيسَى قَالَ : لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ مِنَ الْيَقِينِ قَدَرَ شَعْرَةٍ مَشَى عَلَى الْمَاءِ » . انتهى .

ورواه الإمام أحمد في « كتاب الزهد » ص ٥٦ — ٥٧ قال : « حدثنا بهز ، حدثنا أبو هلال ، حدثنا بكر بن عبد الله قال : فَقَدَ الْخَوَارِثُونَ نَبِيَّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهُ فَوَجَدُوهُ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَمْشِي إِلَيْكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَوَضَعَ رِجْلَهُ ثُمَّ ذَهَبَ يَضَعُ الْأُخْرَى فَاغْمَسَ ! فَقَالَ : هَاتِ يَدَكَ يَا قَصِيرَ الْإِيمَانِ ، لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ أَوْ ذَرَّةٍ مِنَ الْيَقِينِ إِذَا لَمْشَى عَلَى الْمَاءِ » . انتهى .

قلتُ : وهذا من الأخبار الإسرائيلية التي لم نُؤْمَرْ بتصديقها ولا بتكذيبها وتجاوزُ حكايتها للعبرة والموعظة بها .

والخوفُ في ثلاثة أشياء : خوفُ الإيمان ، وعلامتهُ مُفارقةُ المعاصي والذنوب^(١) ، وهو خوفُ المرِدين . وخوفُ السَّلف ، وعلامتهُ الخشيةُ والإشفاقُ والورعُ ، وهو خوفُ العلماء . وخوفُ القوَّة ، وعلامتهُ بذلُ الجهد في طلبِ مَرْضَاةِ الله بوجودِ الهيبةِ والإجلالِ لله عزَّ وجلَّ ، وهو خوفُ الصَّديقين .

ومقامُ رابعٌ في الخوفِ خصَّ اللهُ بهِ الملائكةَ والأنبياءَ عليهم السلام ، وهو خوفُ الإِعْظَامِ ، لأنَّهم آمِنُونَ في أَنْفُسِهِمْ بِأَمَانِ اللهِ لَهُمْ ، فَخَوْفُهُمْ تَعَبُّدُهُمْ لِلَّهِ إِجْلَالًا وَإِعْظَامًا .

والمحبةُ في ثلاثة أشياء - لا يُسمَّى مُحِبًّا اللهُ عزَّ وجلَّ إلا بها - محبةُ المؤمنين في الله عزَّ وجلَّ^(٢) ، وعلامةُ ذلك :

(١) أي مفارقة الذنوب الحسية والمعنوية ، قال محمد بن واسع : « لو كان للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا مني ، من نَتْنِ ريحي ! » . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ٣٤٩ . وتقدم تعليقاً شرحُ آثار الذنوب في ص ١٥٥ فعد إليه .

(٢) ومن أجمل ما تُفسَّرُ به المحبةُ في الله عزَّ وجلَّ : قولُ التابعي الجليل مسروق بن الأجدع رحمه الله تعالى ، وقد قال له رجل : إني لأُحِبُّكَ في الله ، قال مسروق : إنك أُحِببتَ الله تعالى ، فأُحِببتَ من أحبَّ الله تعالى . كما في كتاب « العِلَل » للإمام أحمد ١ : ٧٣ .

كَفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ ، وَجَلْبُ الْمَنْفَعَةِ إِلَيْهِمْ .
وَمَحَبَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(١) ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ اتِّبَاعُ سُنَّتِهِ^(٢) ،

(١) أي أن تُحِبَّ الرَّسُولَ ﷺ لِأَمْرِ اللَّهِ بِمَحَبَّتِهِ .

(٢) وَاتِّبَاعُ السَّنَةِ لَهُ صُورٌ كَثِيرَةٌ . وَمِنْهَا : أَنْ تَبْدُلَ مِنْ نَفْسِكَ أَوْ مِنْ مَالِكَ ، لِتُحَرِّزَ اتِّبَاعَ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَوْ تَحَمَّلْتَ فِيمَا تَبَدَّلُهُ مِنْ نَفْسِكَ تَعَبًا وَنَصَبًا ، أَوْ تَحَمَّلْتَ فِيمَا تَبَدَّلُهُ مِنْ ذَاتِ يَدِكَ : مَالًا كَثِيرًا وَنَشَبًا ، فَأَنْتَ غَانِمٌ بِتَحْصِيلِ السَّنَةِ أَضْعَافَ مَا تَبَدَّلُهُ فِي سَبِيلِهَا وَلَا رَيْبَ .

وإليك هذا الخبر لتشهد صُورَةً مِنْ صُورِ الْبَدْلِ الَّتِي لَعَلَّهَا لَا تَخْطُرُ بِالْبَالِ .
مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِ سُنَّةٍ مَدْنُوبَةٍ دَعَا إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

جاء في « المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية » للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ١ : ٣٧٦ « قال عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين : إنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه ابتاع حائطاً — أي اشترى بُسْتَانًا — مِنْ رَجُلٍ . فساوَمَهُ حَتَّى قَامَ عَلَى الثَّمَنِ — أي حَتَّى تَمَّ الْإِتِّفَاقُ عَلَى الثَّمَنِ — ، ثُمَّ قَالَ عثمان للبائع : أَعْطِنِي يَدَكَ ، وَكَانُوا لَا يَسْتَوْجِبُونَ إِلَّا بِصَفْقَةٍ — أي لَا يُشْبِتُونَ الْبَيْعَ إِلَّا بِصَفْقِ يَدِ الْبَائِعِ عَلَى يَدِ الْمُشْتَرِي — .

فلما رأى البائع — يَدَ عثمان رضي الله عنه — ، قَالَ : وَاللَّهِ لَا أُبِيعُهُ حَتَّى تَزِيدَنِي عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ . فَالْتَفَتَ عثمانُ إِلَى عبد الرحمن بن عوف فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ رَجُلًا كَانَ سَمْحًا : بَائِعًا ، وَمُبْتَاعًا ، وَقَاضِيًا ، وَمَقْتَضِيًا .

— ثُمَّ قَالَ عثمان للرجل البائع — : دُونَكَ — أي خُذْ — هَذِهِ الْعَشْرَةُ آلَافَ ، لِأَسْتَوْجِبَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
رضي الله عن عثمان ومن تَبِعَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١) .

وَمَحَبَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِثَارِ الطَّاعَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ،
وَيُقَالُ : ذَكَرُ النِّعْمَةِ يُورِثُ الْمَحَبَّةَ (٢) .

(١) من سورة آل عمران : ٣١ .

(٢) قال العلامة الفيروز آبادي رحمه الله تعالى في « بصائر ذوي التمييز »
٢ : ٤٢١ - ٤٢٢ : « والأسبابُ الجالبةُ لمحبة الله تعالى عشرة :

الأول : قراءة القرآن بالتدبرِ والفهمِ لمعانيه والتفطنِ لمرادِ الله منه .
الثاني : التقربُ إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ، فانها تُوصِّلُ إلى
درجة المحبوبة بعد المحبة .

الثالث : دوامُ ذكره سبحانه على كل حال باللسان والقلب والعمل
والحال ، فنصيبُ المحبِّ من المحبة على قدرِ نصيبه من هذا الذكر .

الرابع : إيثارُ محابته سبحانه على محابَّتكَ عند غَلَبَاتِ الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه سبحانه وصفاته ، ومشاهدتها ،
وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة ومبايها ، فمن عَرَفَ الله بأسمائه وصفاته
وأفعاله : أحبه لا محالة .

السادس : مشاهدة بَرِّهِ وإحسانِهِ ونِعَمِهِ الظاهرة والباطنة .

السابع : وهو مِن أعجبِها : انكسارُ القلب بكليته بين يديه .

الثامن : الخلوة به سبحانه وقت النزولِ الإلهي - أي وقت التجلي
الإلهي وهو في الأسحار قبل الفجر - لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف
بالقلب والقلب بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .
=

وَلِلْمَحَبَّةِ أَوَّلٌ وَآخِرٌ ، فَأَوَّلُهَا : مَحَبَّةُ اللَّهِ بِالْأَيْدِي
وَالْمِنْ « ١ » ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : جُبِلَتْ
الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا .

وَأَعْلَاهَا الْمَحَبَّةُ لَوْجُوبِ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ عَلِيٌّ بْنُ
الْفُضَيْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ : إِنَّمَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ .
وَقَالَ رَجُلٌ لَطَاوُوسٍ : أَوْصِنِي . قَالَ : أَوْصِيكَ أَنْ
تُحِبَّ اللَّهَ حُبًّا حَتَّى لَا يَكُونَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْهُ ،
وَخَفَهُ خَوْفًا حَتَّى لَا يَكُونَ شَيْءٌ أَخَوْفَ إِلَيْكَ مِنْهُ ، وَارْجُ
اللَّهَ رَجَاءً يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْخَوْفِ ، وَارْضَ لِلنَّاسِ
مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ ، قُمْ فَقَدْ جَمَعْتَ لَكَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَالزُّبُورَ وَالْفُرْقَانَ .

وَالْإِجْلَالُ وَالتَّعْظِيمُ مِنَ الْحَيَاءِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ،

= التاسع : مَجَالِسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ وَالتَّقَاتُ أَطْيَابُ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ ،
وَأَنْ لَا يَتَكَلَّمُوا - أَيِ الْمُحِبِّ - إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الْكَلَامِ ، وَعَلِمَ
أَنْ فِيهِ مَزِيدٌ لِحَالِهِ .

العاشر : مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
فَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَى مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ .

(١) الْأَيْدِي : النَّعَم .

الذي لا غنى لأحدهما عن صاحبه ، وإذا استَحْيَا الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ أَجَلَهُ . وَأَفْضَلُ الْحَيَاءِ الْمُرَاقَبَةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١) .

وَالْمُرَاقَبَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : مُرَاقَبَةُ اللَّهِ فِي طَاعَتِهِ بِالْعَمَلِ ، وَمُرَاقَبَةُ اللَّهِ فِي مَعْصِيَتِهِ بِالتَّوَكُّلِ ، وَمُرَاقَبَةُ اللَّهِ فِي الْهَمِّ وَالْخَوَاطِرِ^(٢) ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « أَعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »^(٣) .

وَمُرَاقَبَةُ الْقَلْبِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَشَدُّ تَعَبًا عَلَى الْبَدَنِ مِنْ مُكَابَدَةِ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَصِيَامِ النَّهَارِ ، وَإِنْفَاقِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(١) قَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ : كَانُوا يَقُولُونَ : مَا رَفَعَ قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْذُ كَذَا وَكَذَا ، تَعْظِيمًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « الْعِلَالِ » ١ : ٣٤٠ . وَفِيهِ أَيْضًا ١ : ٢١٤ أَنَّ التَّابِعِيَّ الْجَلِيلَ (سَعِيدَ بْنِ الْمُسَيَّبِ) قَالَ : « مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ » .

انتهى .

قُلْتُ : هَذَا فِي غَايَةِ الْمُرَاقَبَةِ ، إِذْ مِنْ الْحَقِّ عَلَى الْمَمْلُوكِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكِهِ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوهُ ، لَا أَنْ يَدْعُوهُ فَيَحْضُرُ .

(٢) وَتَقْدِمُ تَعْلِيقًا ص ٤٦ - ٤٨ كَلَامُ تَقْيِيسٍ لِلْغَايَةِ فِي الْخَوَاطِرِ لِلشَّيْخِ ابْنِ الْقَيْمِ ، فَعُدَّ إِلَيْهِ .

(٣) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ تَعْلِيقًا فِي ص ١٠٦ .

وقَدْ ذَكَرَ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ
كَانَ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ فِي أَرْضِهِ آيَةٌ ، وَإِنَّ مِنْ آيَتِهِ فِيهَا
الْقُلُوبَ ، فَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا إِلَّا مَا صُفِّي وَصَلَّبَ وَرَقَّ ^(١) .

وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَنْ يُصَفِّي ^(٢) الْقَلْبَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِاتِّبَاعِ
أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَمُشَاهَدَةِ الصِّدْقِ وَالْإِشْفَاقِ ، وَصَفَّاهُ لِرَسُولِ
اللَّهِ ﷺ بِقَبُولِ مَا أَتَى بِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً . وَصَفَّاهُ لِلْمُؤْمِنِينَ
بِكُفِّ الْأَذَى وَإِيصَالِ النِّفَعِ .

وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ : « وَصَلَّبَ » فَمَعْنَاهُ : قَوِيَ فِي إِقَامَةِ
الْحُدُودِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ .
وَقَوْلِهِ : « وَرَقَّ » فَالرِّقَّةُ عَلَى وَجْهَيْنِ : رِقَّةٌ بِالْبُكَاءِ ،

(١) رواه الإمام أحمد في « كتاب الزهد » ص ٣٨٤ من كلام خالد بن
معدان بنحو هذا اللفظ . وجاء نحوه من حديث أبي عنبَةَ الخولاني مرفوعاً إلى
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ آيَةٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَآيَةُ رَبِّكُمْ
قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ، وَأَحْبَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْبِينُهَا وَأَرْقُهَا » . رواه الطبراني ، وفي سنده :
بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ الْحَمَصِيُّ ، وَهُوَ مَدْلُوسٌ ، لَكِنَّهُ صَرَّحَ بِالتَّحْدِيثِ ، كَمَا فِي
« الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ » ص ٣٤٧ لِلْسَّخَاوِيِّ ، وَ « فَيْضُ الْقَدِيرِ » لِلْمَنَاوِيِّ ٢ : ٤٩٦ .

(٢) أي العبدُ .

وَرِقَّةٌ بِالرَّأْفَةِ . وبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ ، وهو حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ^(١) .

(١) جاء في خاتمة الأصلين : « تَمَّتْ رسالة المسترشدين بحمد الله وعونه وحسن توفيقه » . وجاء بعد هذا صلاة على النبي — عليه الصلاة والسلام — وعلى آله وأصحابه بعبارات متغايرة . وهي لا شك من عمل النساخ . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

يقول الفقير إليه تعالى عبد الفتاح بن محمد أبو غدة — تاب الله عليه ، وغفر له ولوالديه — : فَرَعْتُ من خدمة هذا الكتاب والتعليق عليه للمرة الأولى في ١ / جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ بمدينة حلب ، ثم ألحقتُ به زيادات كثيرة في التعليق ، لاحظتُ فيها ما يحتاجه شبابنا وبناتنا اليوم ، من توجيه وتعبئة للروح والسلوك في هذا المجتمع الفاسد ، وقانا الله وإياهم كلَّ سوء ووفقنا إلى الخير والرشاد .

ومن الله تعالى أبتغي كريمةَ الأجر ، ومن المتفعين به أرجو الدعاء وحسنَ الذكر ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أُنِيب .

وفرغتُ من التعليق عليه للمرة الثانية صباح يوم الاثنين ٥ / من جمادى الأولى سنة ١٣٩١ في مدينة بيروت ، والحمد لله رب العالمين .



من أدب الإسلام
بقلم
عبد الفتاح أبو غدة

رأيت أن ألحق في ختام هذه الرسالة النافعة « رسالة المسترشدين » ، كلمة كنت كتبتها في مناسبة توجيهية ، فأوردتها هنا رجاء النفع بها ، والله سبحانه ولي الهدى والرشاد .

إن للإسلام الحنيف آداباً وفضائل كثيرة ، تدخل في كل شأن من شؤون الحياة ، وقد دعا الإسلامُ إليها ، وحضَّ عليها ، لتكامل الشخصية المؤمنة ، وتحقق الانسجام بين الناس . ولا ريب أن التحلي بتلك الآداب والفضائل : مما يزيد في جمال سلوك المسلم ، ويعززُ محاسنه ، ويحجبُ شخصيته ، ويُدنيه من القلوب والنفوس .

وهذا أمر من لباب الشريعة ومقاصدها ، فليس معنى تسميتها (آداباً) أنها على طرف الحياة والسلوك . وقد أوصى بعضُ السلف ولده بقوله : « يا بُنيَّ اجعل عمَلَك ملحاً ، وأدَبَك دقيقاً » . يشير إلى أن الإكثار من الأدب في العمل القليل ، خيرٌ من العمل الكثير الخاوي من الأدب .

وإذا رُوي في بعض هذه الآداب شيء من البساطة أو البداهة ، فلا غرابة في التنبيه إليها ، فإن نَفراً غير قليل منا ، يقع منه الخطأ في مثل تلك البداهيات ،

فَيَغْمِزُ بذلك من شخصيته المسلمة ، التي ينبغي أن تكون متميزةً بجمالها وكمالها وسماتها ، كما أرشد إلى ذلك قولُ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحْسِنُوا لِبَاسِكُمْ ، وَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ ، حَتَّى تَكُونُوا كَأَنْكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ » . والله الهادي إلى سواء السبيل .

١ - إذا دَخَلْتَ دارَكَ أو خَرَجْتَ مِنْهَا ، فلا تدفع بالباب دفعاً عنيفاً ، أو تدعه ينغلق لذاته بشدة وعنف ، فإن هذا منافٍ للطف الإسلام الذي تتشرف بالانتساب إليه ، بل أغلقه بيدك إغلاقاً رقيقاً ، ولعلك سمعت ما روته عائشة رضي الله عنها من قول رسول الله ﷺ : « إِنْ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ » . رواه مسلم .

٢ - إذا دَخَلْتَ بيتَكَ أو خَرَجْتَ مِنْهُ ، فسلِّمْ على من فيه من أهلك من ذكر أو أنثى ، بتحية المسلمين وعنوان الإسلام : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ، ولا تعدل عن هذه التحية الإسلامية إلى غيرها من (صباح الخير) أو (مرحباً) أو نحوها ، فإنَّ عدولك عنها إلى غيرها إماتة لها ، وهي شعار الإسلام وعنوان المسلمين الذي رسمه لهم رسول الله ﷺ بقوله وفعله : قال أنس رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ « يَا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ ، يَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ » . رواه الترمذي .

وقال قتادة أحد أعلام التابعين الفضلاء : إذا دخلت بيتك فسلِّمْ على أهلك ، فهم أحقُّ من سلَّمتَ عليهم . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيَسْلَمْ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيَسْلَمْ ، فَلَيْسَتْ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ » . رواه الترمذي .

٣ - إذا دخلت مجلساً فلا تجلس بين جلسيين ، ولكن خُذْ ناحيتهما يميناً أو يساراً ، فقد قال رسول الله ﷺ : « لَا يُجْلَسُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا » . رواه أبو داود . وإذا جلست إليهما فلا تُلِقْ بِسَمْعِكَ إلى حديثهما ، إلا إذا كان غير سِرٍّ ولا خاصٍّ بهما ، فإنَّ تطلُّعَكَ إلى ذلك عيب في أخلاقك ،

وسنة تركبها ، قال سيدنا رسول الله ﷺ : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة ». أي الرصاص المذاب ، رواه البخاري وغيره .

واعلم أنه لا يسوغ لك أن تُسارَّ جليستك بحديث إذا كنتم ثلاثة ، فانك بهذا توقع على ثالثكما إيحاشاً وانقطاعاً عنكما ، فتَمَرَّ بذهنه الخواطر البعيدة والقرية ، وهذا غير لائق بالمسلمين ، ولهذا نفى رسول الله ﷺ هذا الخلق عن المسلمين نفياً فقال : « لا يتناجى اثنان بينهما ثالث » . ولم يقل : (لا يتناج) بصيغة النهي ، إيداناً منه بأنه غير متصور أن يقع هذا الخطأ من المسلم حتى يُنهي عنه لأنه خطأ يُدرَك بالفطرة . وهذا الحديث رواه مالك وأبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه . وقد سئل ابن عمر فقيلاً له : فاذا كانوا أربعة ؟ قال : لا يضرُّك ، أي لا بأس حينئذ بالمسارَّة والمناجاة .

٤ - إذا طرقت باب أخيك فدقّه دقاً رفيقاً يُعرِّفه وجود طارق بالباب ، ولا تدقّ بعنف كدق الظلمة والزبانية فتروعه وتُخِلَّ بالأدب ، جاءت امرأة إلى أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، لتسأله عن شيء من أمور الدين ، ودقَّت عليه الباب دقاً فيه بعضُ العنف ، فخرج وهو يقول : هذا دقُّ الشرط - جمع شرطي - . وقد كان الصحابة يقرعون باب رسول الله ﷺ بالأظافر . رواه البخاري في « الأدب المفرد » أدباً منهم مع رسول الله ﷺ .

وهذا مطلوب فيمن كان جلوسه قريباً من بابه ، وأما من بُعد عن الباب فيقرع عليه قرعاً يسمعه في مكانه من غير عنف ، وسبق ذكر الحديث الشريف : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » . وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « من يُحرِّم الرفق يُحرِّم الخير كله » . رواه مسلم .

وينبغي أن تجعل بين الدفتين زمناً غير قليل ، ليفرغ المتوضئ من وضوئه في مهل ، ولينتهي المصلي من صلاته في مهل ، ليفرغ الآكل من لقمته

في مهل . وإذا طرقت ثلاث مرات متباعدة ، ووقع في نفسك أنه لو كان غير مشغول عنك لخرج إليك ، فانصرف فقد قال رسول الله ﷺ : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليصرف » . رواه البخاري ومسلم .

ولا تقف عند استئذانك تلقاء فتحة الباب ، ولكن خذ يَمَنَةً أو يَسْرَةً ، فقد « كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبله من تلقاء وجهه ، ولكن من رُكْنِهِ الأيمن أو الأيسر » . رواه أبو داود .

٥ - إذا طرقت باب أحد من إخوانك ، فقل لك : من هذا ؟ فقل : فلان باسمك الصريح الذي تُعرِّف به ، ولا تقل : واحد ، أو أنا ، أو شخص ، فإن هذه الألفاظ لا تفيد السائل من خلف الباب معرفة بالشخص الطارق ، ولا يصح لك أن تعتمد على أن صوتك معروف عند من تطرق عليه ، فان الأصوات تلتبس وتشتبه ، وليس كل من في الدار التي تطرق بابها يعرف صوتك وحسبك .

وقد كره النبي ﷺ قول الطارق : (أنا) ، لأنها لا تفيد شيئاً ، روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فدققت الباب ، فقال : « من هذا ؟ فقلت أنا ، فقال النبي ﷺ : أنا أنا ؟ ! لأنه كرهها » .

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسمون أنفسهم إذا قيل لهم : من هذا ؟ روى البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : خرجت ليلة من الليالي ، فاذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ، فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني ، فقال : « من هذا ؟ فقلت : أبو ذر » . وروى البخاري ومسلم أيضاً عن أم هانئ أخت سيدنا علي وابنة عم النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها قالت : أتيت النبي ﷺ وهو يغتسل وفاطمة تستره ، فقال : من هذه ؟ فقلت : « أنا أم هانئ » .

٦ - إذا زرت أحد إخوانك دون موعد ، أو على موعد سابق منه ، فاعتذر لك عن قبول زيارتك له ، فاعذره ، فانه أدرى بحال بيته وملابسات

شأنه ، فقد يكون جَدًّا لديه من الموانع الخاصة ، أو حصل عنده من الحرج : ما لا يسمح له باستقبالك وقتئذ ، فله أن يعتذر لك دون تخرج . ولذا كان من أدب السلف عند زيارتهم ، أن يقول الزائر للمزور : (لعله بدا لك مانع) ، تمهيداً لبسط العذر من المزور فيما لو اعتذر .

ولأهمية هذا الأدب ، واقتلاع ما قد يعلق ببعض النفوس من جراء الاعتذار ، نصَّ الله تعالى عليه في كتابه الكريم ، فقال في معرض الزيارة والاستئذان والدخول : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ .

وفي هذا الأدب القرآني العظيم مندوحة مما يقع فيه بعضهم ، حين يُحرج بزيارة من لا يرغب بلقائه ، فيُضطرُّ إلى الإخبار بعدم وجوده في البيت ، ويكون هو فيه ، فيقع منه الكذب ، ويتعلَّم صغاره منه ذلك أيضاً، وقد ينجم عن سلوكه هذا الإحْنُ في الصدور .

والهَدْيُ القرآني الكريم جنَّبنا الوقوع في ذلك كله ، إذ جعل بوسع المزور أن يتلطف بالاعتذار لأخيه ، وطلبَ من أخيه أن يقبل عذره .

٧ - عندما تزور بيت أخيك - أو تدخل بيتك - كن لطيفاً في مدخلك ومخرجك ، غاضباً طرفك وصوتك ، واخلف حذاءك في محله ، وصُفِّ نعليك أثناء خلعهما ، ولا تدعهما هكذا وهكذا ؟ ولا تنسَ آدابَ لبس الحذاء وخلعه : تلبس اليمنى أولاً ، وتخلع اليسرى أولاً ، قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا انتعل أحدُكم فليبدأ باليمين ، وإذا انتزع فليبدأ بالشمال ، ولتكن اليمنى أولهما تُنعل وآخرهما تُنزع » . رواه مسلم وغيره .

وقبل الدخول إلى بيت أخيك انظر في نعليك ، فاذا رأيت فيها شيئاً من آثار الطريق فأمِطْهُ عنهما ، وأدلكهما في الأرض ليتزاح ذلك الشيء منهما ، فإن الإسلام دين النظافة واللطافة .

٨ - لا تنازعْ أخاك في المكان الذي يجلسك فيه في منزله ، بل لا تجلس إلا حيث يجلسك ، فاعلك - إن جلست كما تريد - تجلس إلى مكان فيه

إطلال على عورة من عورات الدار ، أو فيه إحراج لساكنيها ، فعليك بامتنال ما يأمرك به مُضَيِّفُكَ ، واقبل ما يكرمك به ، دخل خارجة بن زيد على ابن سيرين زائراً له ، فوجده جالساً على الأرض إلى وسادة ، فأراد أن يجلس معه وقال له : قد رضيتُ لنفسِي ما رضيتُ لنفسك ، فقال ابنُ سيرين : إني لا أرضى لك في بيتي بما أرضى به لنفسِي ، فاجلس حيث تؤمر .

ولا تجلس في مكان صاحب المنزل إلا إذا دعاك إلى الجلوس فيه ، فقد قال سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يَؤُمِّنُ الرجلُ الرجلَ في سلطانه - أي منزله ومكانِ سُلْطَتِهِ - ، ولا يَقْعُدُ في بيته على تَكْرِمَتِهِ إلا بإذنه » . رواه مسلم . والتكرمة : الموضعُ الخاصُّ لجلوس صاحب البيت من فراش أو سرير أو نحوهما .

٩ - اعرف للكبير قَدْرَهُ وَحَقَّهُ ، فإذا ماشيته فَقَدَّمَهُ عليك في الدخول والخروج ، وإذا التقيتَ به فأعطه حقَّه من السلام والاحترام ، وإذا اشتركتَ معه في حديثٍ فمكِّنه من الكلام قَبْلَكَ ، واستمع إليه بإصغاء وإجلال ، وإذا كان في الحديث ما يدعو للمناقشة فناقشه بأدب وسكينة ولُطْفٍ ، وغَضٍّ من صوتك في حديثك إليه ، وإذا خاطبته أو ناديته فلا تَنَسَّ تَكْرِيمَهُ في الخطاب والنداء .

وإليك بعض الأحاديث التي تدعو لهذا الأدب : جاء أخوان إلى رسول الله ﷺ ليُحَدِّثَاهُ بِحَادِثَةٍ وَقَعَتْ لهُمَا ، وكان أحدهما أَكْبَرَ من أخيه ، فأراد أن يتكلم الصغير ، فقال له النبي ﷺ : « كَبِّرْ كَبِّرْ » . - أي أعطِ الكبيرَ حقَّه ، ودَعْ لِأَخِيكَ الأَكْبَرَ الكلام - . رواه البخاري ومسلم . وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « ليس مِنَّا من لم يُجِلِّ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ » . رواه الإمام أحمد والحاكم .

واستمع إلى سيدنا رسول الله ﷺ يُعَلِّمُ الشَّابَّ آدَابَ الصَّحْبَةِ والاجتماع ، قال الصحابيُّ الجليل مالك بن الحُوَيْرِث رضي الله عنه : « أتينا رسولَ الله ﷺ

ونحن شَبَبَةٌ متقاربون — أي شباب متقاربون في السن — ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً ، فظنَّ أننا قد اشتقنا أهلنا ، فسألنا عن من تركنا مِن أهلنا ؟ فأخبرناه ، فقال : ارجعوا إلى أهليكم ، فأقيموا فيهم ، وعلموهم ومروهم ، فإذا حَضَرَت الصلاةُ فليؤذِّنْ لكم أحدُكم ، وليؤمِّكم أكبرُكم » . رواه البخاري ومسلم .

١٠ — إذا دخلت مكاناً فيه نيام — بالليل أو النهار — فراعهم ، وتلطف في حركتك وصوتك عندهم ، ولا تكن ثقيلاً في ضجيجك أو دخولك أو خروجك ، بل كن رقيقاً لطيفاً ، فقد سمعت قول رسول الله ﷺ : « من يُحرِّم الرفقَ يُحرِّم الحِرْمَ كله » . وقال المقداد بن الأسود رضي الله عنه : « كنا نرفع لرسول الله ﷺ نصيبه من اللَّبَن ، فيجِيء من الليل ، فيُسَلِّمُ تسليمًا لا يُوقِظُ النَّائم ، ويُسمع اليقظان » . رواه مسلم والترمذي . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قام يتهجد بالليل ، قرأ بصوتٍ يُؤنس اليقظان ، ولا يُوقِظُ الوَسنان .

هذه طائفة من آداب الاسلام ، قدَّمتها لك بعبارة واضحة مفهومة ، لتعمل بها وتسير عليها ، وخيرُ ميدان للعمل بها هو بيتك وبيتُ أخيك . وشخصُك وشخصُ أخيك ، فلا تتساهل في القيام بها فيما بينك وبين إخوانك ، زاعماً أنه لا كلفة بين الأهل والإخوان ، فأحقُّ الناس بالبرِّ واللطف منك أهلُك وأصحابُك . فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله من أحقُّ الناس بحُسن الصحبة مني ؟ قال : أمُّك ثم أمُّك ثم أمُّك ، ثم أبوك ، ثم أَدْنَاكَ أدْنَاكَ » . أي الأقرب فالأقرب . رواه البخاري ومسلم .

فحذارِ أيها الأخ أن تتساهل مع أحقَّ الناس بحُسن الصحبة منك ، وتتكاسب — أي تتطارف — مع غيرهم ، فانك إن فعلتَ ذلك غَبِنتَ نفسَكَ ، وظلَّمتَ الحقَّ الذي عليك ، وجانبتَ هَدْيَ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاستعين بالله على مرضاته وآدابِ شريعته ، وهو الذي يتولى الصالحين .

المحتوى

١ - الآيات القرآنية

٢ - الأحاديث النبوية

٣ - الآثار

٤ - الأعلام

٥ - المصادر

٦ - الأبحاث

١ - الآيات القرآنية

٩٤	إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ	٩٥ ، ٩٦
٩٥	إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ	٧١
٧٤	إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ	٩٥
١٦٤	إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ	٩٦
٩٤	إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ	٩٦
٦٧	إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ	٣٨
٣٨	إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ	١٦٤
٨٧ ، ٨٦	إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ	٩٥
٩٤	أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ	١٠٨
٩٥	أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا	٩٥
١٣٥	أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ	٥٤
٩٩	إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ	١٣٦ ، ١٣٧
١٢٨	ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا	٩٥
٩٤	الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ	٦٣
٩٥	رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِمْ الصَّلَاةَ	١١٤
١٠٥	فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ	٧٧
١٦١	فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ	٩٥
٩٦ ، ٩٥	فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ	١٠٢
٦٧	فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ	٧٠
٣٦	فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ	١٠٤
	اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ	
	اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ	
	إِذَا وَاتَمَّ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا	
	أَلَّا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ	
	الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ	
	اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ	
	اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ	
	أَمِنْ يَحْيَى الْمَضْطَرُ إِذَا دَعَاهُ	
	إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا	
	إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ	
	إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا	
	إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ	
	إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا	
	إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا	
	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ	
	إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ	
	إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا	
	إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا	
	إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ	
	إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ	

١٦٤	وربك يخلق ما يشاء ويختار	١١٤	ففرؤا إلى الله إني لكم
٣	وكلا نقص عليك من أنباء الرسل	٩٦	فمن اتقى وأصلح
١٦٢	ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب	١٧٩	قل إن كنتم تحبون الله
٩٦	والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة	٥٨	كبر مقتاً عند الله أن تقولوا
٣٠	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا	١٥٣	لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
٩٥	ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر	٤	لقد كان في قصصهم عبرة
٩٦	وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات	١٦١	لكيلا تأسوا على ما فاتكم
٩٥	ولكن يناله التقوى منكم	٣٨	لو أنزلنا هذا القرآن على جبل
٣	ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر	٣٥	ليهلك من هلك عن بينة
١٤٨	وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم	٧٨	ما ضربوه لك إلا جدلاً
٩٤	ومن يتق الله يجعل له مخرجاً	٣٨	هو الذي بعث في الأميين رسولا
٩٤	ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً	٩٥	واتقوا الله لعلكم تفلحون
٩٤	ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته	٧٩	وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً
٥١	والله يعلم وأنتم لا تعلمون	٦٨	وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول
٥٢	ونبلوكم بالشر والخير فتنة	١٣٥	وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى
٩٥	وينجي الله الذين اتقوا بمغازتهم	١٣٤	وأقم الصلاة طرفي النهار
٩٥	ويرزقه من حيث لا يحتسب	١٣٤	وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها
١٣٤	يا أيها الذين آمنوا استعينوا	١٦٤	وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً
١١٢	يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله	٣٦	وأن هذا صراطي مستقيماً
١٧٥	يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك	١٨٩	وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا
٦	يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم	٧٤ ، ٦٧	وبشر المخبتين
٦	يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا	١٦٢	وتزودوا فإن خير الزاد التقوى
١٥	يوم لا ينفع مال ولا بنون	٦٧	وتطمئن قلوبهم بذكر الله



٢ - الأحاديث

٥٢	إن الله ليحرب أحدكم بالبلاء	٤٢	اجعلوا بينكم وبين الحلال ستره
١٧٨	إن الله يدخل الجنة رجلاً كان سمحاً	١٨٦	أحسنوا لباسكم وأصلحوا رجالكم
٨٦	إن الله ينزل العبد من نفسه	١٨٨	إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له
٤٥	إنما الأعمال بالنيات	١٨٩	إذا انتمل أحدكم فليبدأ باليمين
١٦٣	إن من عبادي من لا يصلح إيمانه	١٨٦	إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم
١١٤	إن من المؤمنين من يلين له قلبي	٦٩	إذا مررت برياض الجنة فارتعوا
٩٢	إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم	١٨٩	ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعاموهم
١٣٢	أهد لمن لا يهدي لك وعد من لا يمودك	٨٤ ، ٢٠	استفت قلبك وإن أفتاك المفتون
٣٧	أوصيكم بتمقوى الله والسمع والطاعة	١٨١ ، ١٠٦	اعبد الله كأنك تراه ...
٣٩	تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما	٨٢	أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك
١٤١	تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار	١٣١	اعقلها وتوكل .
٩٦	تعلموا اليقين فاني أتعلمه .	١٠٥	اغتنم خمساً قبل خمس
٧٦	تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم	١١٠	ألا وإن في الجسد مضغة
٦٩	جلساء الله يوم القيامة الخاضعون	٨٥	أمرنا رسول الله أن ننزل الناس منازلهم
١٥٢	حذر هذا وقوي هذا	١٩١	أملك ثم أملك ثم أملك ثم أبوك ثم أدناك
٤١ ، ٢٥	الحلال بين والحرام بين	١١٧	أنذركم فضول الكلام حسب أحدكم
١٣٦	الحلف حنث أو ندم	١١٤	إن الحق يأتي وعليه نور
٥٩	خياركم من ذكركم بالله رؤيته	١٨٦	إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه
٨٩ ، ٨٨	دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	١٠٧	إن لله ملائكة سيارة يطوفون في الأرض
٧١	الدين النصيحة .	١١٧	إن الله عند لسان كل قائل

- زر القبور تذكر بها الآخرة ٧٣
 سبعة يظلمهم الله ... ٩٠
 سلوني لا تسألوني عن شيء إلا ٦٨
 طلب العلم فريضة على كل مسلم ٧٠
 عليكم بسني وسنة الخلفاء الراشدين ٣٧ . ٣٩
 فمن رغب عن سنتي فليس مني ٣٩
 قل آمنت بالله ثم استقم ١٢٨
 قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه ١٢٨
 كان إذا أتى باب قوم لم يستقبله ١٨٨
 كان إذا قرأ بالليل يؤنس اليقظان ولا ١٩١
 كان يسلم تسليماً لا يوقظ النائم ١٩١
 كانوا يقرعون باب رسول الله بالأطافر ١٨٧
 كبير كبير ١٩٠
 لا تصاحب إلا مؤمناً ... ١٥٢
 لا تمار أخاك ٧٨
 لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك ٧٨
 لا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ١٩٠
 لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ٢٥
 لا يتناجى اثنان بينهما ثالث ١٨٧
 لا يجلس بين رجلين إلا باذنها ١٨٦
 لبيك وسعديك واخير كله في يدك ١٤٣
 لن يبلغ أحد من الله كنهها ١٧٦
 ليس منا من لم يجل كبيرنا ... ١٩٠
 ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر ... ١٢١
 ما زال جبريل يوصيني بالجار ١٤٨
 ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا ٧٨
- المسلم من سلم الناس من يده ٤٦
 من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ١٨٧
 من أهان لي ولياً فقد أبارزني بالمحاربة ١٦٣
 من ترك المراء وهو محق ٧٨
 من ذكركم بالله الله رؤيته ... ٥٩
 من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ١٤٢
 من ضمن لي ما بين لحييه ١١٦
 من عمل بما علم ورثه الله ١٠٠
 من هذا فقلت أبو ذر ١٨٨
 من هذا قلت أنا قال أنا أنا ! ١٨٨
 من هذه فقلت أنا أم هانيء ١٨٨
 من وعظ ولم يتعظ وزجر ٥٩
 من يحرم الرفق يحرم الخير كله ١٨٧
 من يضمن لي ما بين لحييه ١١٦
 نزل القرآن على سبعة أحرف ٧٨
 النظر سهم من سهام إبليس ١١٩
 نية المؤمن خير من عمله ١٤٦
 وزاد في علمكم منطقته ٦١
 وهل يكب الناس في النار ... ١١٦
 يا أبا أمامة إن من المؤمنين ١١٤
 يا أيها الناس إن الله سزايا ٨٧
 يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ... ١١٢
 يا أيها الناس توبوا إلى الله ... ١١٣
 يا بني إذا دخلت بيتك فسلم ... ١٨٦
 يا علي لا تتبع النظرة النظرة ١٢٠



٣ - الآثار^(١)

١٨٠	إنما يحب الله لأنه هو الله	١١١	ابن آدم إنما أنت أيام
٧٢	إن أشرف خصال الرجال صدق اللسان	٤٦	اتق الله بطاعته وأطع الله بتقواه
١٦٢	إن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة	١٥٣	اتقوا الله فينا ولا تطعمونا الحرام
١٤٠	إن الرجل ليخرج من بيته ومع دينه	١٢٤	إذا تكلمت فلا تشر يشمالك
٨٠	إن الله لم يجعل للمؤمن راحة دون الجنة	١٨٦	إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك
١٨٢	إن لله في أرضه آنية وإن منها القلوب	١٢٧	إذا طال المجلس كان للشيطان فيه مطيع
٤٨	إن المؤمن قوام على نفسه ...	١٧٢	إذا كل صدق الصادق لم يملك
١٩٠	إني لا أرضى لك في بيتي بما أرضى به	١١١	إذا كنت في إديار والموت في
١٧٧	إني لأحبك في الله قال إنك أحببت الله	١٦٠	إذا همت نفسك بمصيبة فذكرها بالله
١٥٤	إني لأحسب الرجل ينسى العلم بالذنوب	١٢٠	أردد بصرك فانه بلغني أن الرجل
١٨٠	أوصيك أن تحب الله حباً حتى لا	٥٣	أرض بما قسم الله لك تكن
١٦١	أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة	٥٥	أظهر اليأس مما في أيدي الناس
٧٥	إياكم وما شغل من الدنيا ...	٧٥	اعمل كأنك ترى وعد نفسك في الموتى
٨٩	إياك وما يسبق إلى العقول إنكاره	٩٧	أفضل ما أعطي العباد في الدنيا ...
٥٢	بلغنا بالضرأ فصبرنا وبلغنا بالسراء فلم نصبر	١١٨	اللهم اجعل صمتي فكراً ونطقي ذكراً
١٦٤	جالسوا التوايين فانهم أرق أفئدة	١٦٩	اللهم إني أعوذ بك أن أحب فيك

(١) الآثار جمع أثر ، والمراد به هنا ما أثر ونقل عن الصحابي أو التابعي أو غيرهما من سلف هذه الأمة الصالحين رضوان الله عليهم. وأكثر الآثار اكتفيت بذكر طرف منها لظولها . فتتظر بتمامها في مواضعها .

- ١٨٠ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها
١٢٩ الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك
٤٨ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ...
١٤٢ الحر من راعي وداد لحظة ...
١٣٢ الحزن في الدنيا تلقى العمل الصالح
الحكايات جند من جنود الله
٣ الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب ...
٥٩ الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء
دوروا مع الشرع كيف كان لا مع الكشف
٨٣ ذكر النعمة يورث المحبة.
١٧٩ الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل
١٥٥ رد درهم من شبهة أحب إلي من
١٥٣ رحم الله امرأاً أهدى إلى عمر عيوبه
٧١ الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح
١٧١ الزهد بين كلمتين من القرآن ...
١٦١ الساكت عن الحق شيطان أخرس .
١١٧ السكوت في وقته صفة الرجال
١١٧ الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على
٨١ طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة
١٦٧ ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب
٨٤ عرس المتقين يوم القيامة .
٨٠ عز الرجل استغناؤه عن الناس .
١٣٠ عقوبة العالم إذا أحب الدنيا موت القلب
١٦٠ العلم حياة القلوب من الجهل ...
٩٨ عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة .
٤ فضح الموت الدنيا فلم يترك ...
٨٠ القرآن بستان العارفين فأينما حلوا منه
١٥٤ القلب مثل المرأة إذا طالت في اليد ...
١١٥ كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس
١٤٢ كل طريق لم يمش فيه الشارع فهو ظلام
٨٢ كل واحد خفته هربت منه إلا الله
١١٣ كل يوم يقال مات فلان وفلان ولا بد
١١١ كيف وفيهم فلان العابد فقال به فابداً
٥٥ لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي
٦٢ لأن يكون لي مجلس من عبيد الله
٦١ لا تخف إلا ذنبك ولا ترجع إلا ربك
٤٩ لا تتكلم فيما لا يعنيك ...
٧٣ لا خير في قوم ليسوا بناصحين ...
٧١ لا يكون العبد تقياً حتى يحاسب ...
٤٨ لعله بدا لك مانع ؟
١٨٩ للقلوب شرّة وإقبال وفرة وإدبار ...
١١٤ لمجلس كنت أجالس عبد الله بن مسعود
٦١ لم زينب بعدك وأنت شريفة قومك ؟
١١٩ لن تجد فقد شيء تركته لله.
٨٩ لو عقل ابن آدم عن ربه كان
٧٦ لو كان للذنوب ريح ما قدرتم أن
١٧٧ لو كان للعلم صورة لكانت صورته
٩٨ لو كنتم تشترون الورق للحفظة لسكنتم
١١٧ لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه
٦٥ لو وضع الصدق على جرح لبرأ
٧٢ لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء
٥ المأسور من أسره هواء
١٠٤ ما أبالي على أي حال أصبحت ...
٥١ ما بيني وبين الحق من عداوة
٦٢ ما خطا العبد خطوة إلا كتبت
١٢٢ ما ضعف بدن قط عن نية .
٤٥ ما كثرت النعم على قوم إلا كثرت أعداؤها
٧٥ المحبوس من حبس قلبه عن ربه
١٠٤ مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام ...
٧٠ مذهبا - التصوف - مقيد بالكتاب والسنة
٨٠ من أحب أن يكشف بآيات الصديقين
١٥٣ من أعطى أسباب الفتنة من نفسه أولاً
١١٨ من جاءه الموت وهو يطلب العلم
١٦٩ من خاف الله لم يشف غيظه ...
٥٠

- من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها ٥٣ والله لأن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى ٧١
 من عدم فضيلة الصدق فقد فجع ٧٢ والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين من ٩١
 من عمل على غير علم كان ما يفسد ٨٦ يا ابن آدم كن وصي نفسك... ٧٦
 من غص بصره عن النظر الحرام ١١٩ يا ابن آدم لا تفرح بالفتى... ٥١
 من وسع عليه في دنياه فلم يعلم ٥٢ يا ابن أخي ارفع ثوبك فانه أنقى ١٦٥
 نهينا عن الغيبة والاستماع إليها... ١٢١ يا أحمد إن يقتلك الحق مت شهيداً ٩٢
 هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ١٤١ يا بني اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً ١٨٥، ١٣١
 هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا... ١٤١ يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان ٥٦



٤ - الأعلام

- ابن أبي جمرة ١٤٨ .
 ابن أبي الدنيا ٤٦ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١١٧ ،
 ١٦٣ ، ١٧٦ .
 ابن أبي ذئب ٢٢ .
 ابن أبي شيبة ٢٥ .
 ابن أبي يعلى ١٢٥ ، ١٥٣ ، ١٦٧ .
 ابن الأثير ٦٠ ، ٧٦ ، ١٤٣ .
 ابن بطلال ١١٦ .
 ابن تيمية ١٢ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ١٠٣ ،
 ١٦٧ ، ١٧٢ .
 ابن جرير الطبري ١٧٣ .
 ابن الجوزي ٧٢ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ١٠١ ،
 ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ .
 ابن حامد الوراق الحنبلي ١٣٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .
 ابن حبان ٤٢ ، ٤٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ١١٢ ، ١١٤ ، ١٦٤ .
 ابن حجر ٤ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٠ ،
 ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ١٠٢ ،
 ١١٢ ، ١١٦ ، ١٣٨ ، ١٥٥ ،
 ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٨ .
 ابن حجر الهيتمي ٨٥ ، ١٠٨ .
 ابن حزم ٥٧ ، ٥٨ .
 ابن خلدون ٩ .
 ابن خلكان ٢٧ ، ٥٨ ، ٦١ .
 ابن رجب الحنبلي ٢٤ ، ٢٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٠ ،
 ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٦ ،
 ١٤٥ ، ١٦٤ .
 ابن سحمان ٦٥ .
 ابن سعد ٨٧ ، ٨٩ .
 ابن الصلاح ٢٢ .
 ابن ظفر المغربي ٢٧ .
 ابن عابدين ١٢٥ .
 ابن عباد النفري ١٨ ، ٣٩ .
 ابن عبد البر ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ١١٣ ،
 ١٥٤ ، ١٦٧ .
 ابن عدي ١٤١ .
 ابن العربي ٢٥ .
 ابن عربي (محي الدين) ٢١ ، ٢٩ ، ٤٩ .
 ابن عساكر ٨٦ ، ١٦٣ .
 ابن عطاء الله الإسكندري ١١ ، ١٨ ، ٢٩ .

- ابن العماد الحنبلي ٨٣ ، ١٠٩ .
 ابن عقدة ٤٤ .
 ابن عقيل (أبو الوفاء) ٥ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .
 ابن علي ١١٧ .
 ابن عينية ١١٨ .
 ابن فروخ ١٣٨ .
 ابن قتيبة ٩٠ ، ٩١ ، ١٧٣ .
 ابن القيم ١١ ، ١٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٨١ .
 ابن كثير ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٢ ، ١٦١ ، ٨٦ .
 ابن ماجه ٣٧ ، ٤٢ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٣ .
 ابن مردويه ١٦٣ .
 ابن معين ٨٧ ، ١٦٤ .
 ابن مفلح الحنبلي ٤ ، ٢٣ ، ١١٨ .
 ابن المقفع ٧٩ .
 ابن منصور القباري ٤٢ .
 ابن منظور ١١٩ .
 ابن وهب : عبد الله بن وهب .
 ابنة سليمان بن عبد الملك ١٢٢ .
 أبو إسحاق السبيعي ٦٠ .
 أبو إسحاق الشاطبي ٣٩ .
 أبو إسحاق الشيرازي ٤٤ .
 أبو أمامة ٥٢ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١١٤ .
 أبو بكر الصديق ٤٦ ، ٦٦ ، ١٥٢ ، ١٦٨ .
 أبو بكر بن هارون المجدد ٢٩ .
 أبو الحسن الشاذلي ١١ .
 أبو حنيفة ٣ ، ٢٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٦٧ .
 أبو حمزة الصوفي ٢٩ .
 أبو الحسين ٢٣ .
 أبو داود ٣٧ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ١٢٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٨٨ ، ١٨٧ .
 أبو الدرداء ٧٧ ، ١١٩ .
 أبو ذر ٧٣ ، ٧٥ ، ١٨٨ .
 أبو ذر الخزاز ٤٤ .
 أبو راشد الخبزي ١١٤ .
 أبو زرعة الرازي ٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٧٢ ، ١٦٧ ، ٢٠٠ .
 أبو سعيد الخدري ١٥٢ .
 أبو السوار العدوي ٧٠ .
 أبو شامة ١٢٨ .
 أبو صفوان ٤٥ .
 أبو طالب المكي ٢٦ ، ٤٠ .
 أبو العالية الرياحي ١٢٨ .
 أبو العباس القرطبي ٦٦ .
 أبو العباس بن مسروق ١٦ .
 أبو عبد الله بن خفيف ٢٣ .
 أبو علي الدقاق ١١٤ .
 أبو القاسم النصر آبادي ٢١ .
 أبو لؤلؤة المجوسي ١٦٥ .
 أبو مالك الأشعري ١٢١ .
 أبو محمد التميمي ٤ .
 أبو محمد الحريري ٨ ، ١٠ .
 أبو محمد رويم ٢٩ .
 أبو منصور البغدادي ١٦ .
 أبو موسى الأشعري ٦١ .
 أبو نعيم ١٨ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٨٩ .

- أحمد بن محمد بن سهل ١٠ .
 أحمد الدردير ١١ .
 أخت بشر الحافي ٤٣ ، ٤٤ .
 إسماعيل السراج ١٦ ، ٢٢ .
 أشعث بن عبد الله ٦٠ .
 الأصمعي ١٦٩ .
 الأعمش ١٢٧ .
 الأغر بن يسار المزني ١١٣ .
 أم هانيء ١٨٨ .
 أنس ٥٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٨ ،
 ١٠٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٦ .
 الأوزاعي ٢٠ ، ٢٤ .
 إياس بن معاوية المزني ٥٠ ، ٧٢ .
 أيوب السخيتاني ١٧٢ .
 البخاري ٢٥ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٦٦ ، ٨٨ ،
 ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٦ ،
 ١٣٦ ، ١٦٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١
 بدية الإيجية ٤٤ .
 بريدة بن الحبيب ١٢٠ .
 البزار ٥٧ ، ٨٧ ، ١٦٣ .
 بشر الحافي ١٠ ، ٢٧ .
 بشر بن عبد الله ٩١ .
 بشير القزعي الحلبي ١٠٧ .
 البقاعي ١٣٩ .
 بقية بن الوليد الحمصي ٩٦ .
 بكر بن عبد الله المزني ١٧٦ .
 بهاء الدين ابن النحاس ١٤٦ .
 بهز ١٧٦ .
 البهلول بن راشد القيرواني ١٣٨ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ ، ١٥٣ .
 البيهقي ٢٣ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١٢٩ ، ١٦٣ .
 الترمذي ٢٥ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
 ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ١١٦ ،
 ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ،
 ١٨٦ ، ١٩١ .
 ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٥٤ ،
 ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٧ .
 أبو نصر السراج ٩ ، ٢٩ .
 أبو هريرة ٤٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٧ ، ١٤١ ، ١٨٦ .
 أبو هلال ١٧٦ .
 أبو الهيثم الخداد ٩٢ ، ٩٣ .
 أبو يعلى ٨٧ ، ١٦٣ .
 أبو يوسف ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ .
 إبراهيم عليه السلام ١٣٤ .
 إبراهيم بن أدهم ١٠ ، ٤٣ .
 إبراهيم بن طهمان ٥ .
 إبراهيم النخعي ٤٥ .
 إبراهيم بن ولي الحنفي السباهي ١٧٥ .
 أحمد بن الحاج إسماعيل ١٤ .
 أحمد بن الحسن الصوفي ١٦ .
 أحمد بن حنبل ٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
 ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ،
 ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ،
 ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
 ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ،
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
 ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٠ .
 أحمد بن رسلان ١١٠ .
 أحمد بن سعيد بن حزم ٥٧ .
 أحمد بن صالح ٢٢ .
 أحمد بن عبد الله ١٦ .
 أحمد بن عمر المرسي ١١ .
 أحمد بن عيسى الخراز ١٠ .
 أحمد بن القاسم ١٦ .

- تقي الدين الفتوحى ٢٠ .
 تميم الداري ٧١ .
 تميم الرازي ٧٢ .
 التميمي ١٨ .
 التميمي ٦٧ .
 ثور بن يزيد ٩٦ ، ٩٧ .
 جابر بن عبد الله ٨٧ ، ١١٢ ، ١٨٨ .
 الجاحظ ٢٧ .
 جعفر بن أخى أبي ثور ٢٩ .
 جعفر بن سليمان الضبيعي ٧٢ ، ١٦٩ .
 جعفر بن محمد ٦١ .
 الجعيد ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٢٨ .
 ٢٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١١ .
 حاتم الأصم ٢٠ .
 الحاكم ٤٦ ، ٥٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٧ .
 ٨٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٦ ، ١٩٠ .
 حذيفة ١١٨ ، ١١٩ .
 الحسن البصري ١٠ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .
 ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١١١ .
 ١٣٢ ، ١٦٠ .
 الحسن بن علي ٨٨ ، ٨٩ .
 الحسن بن يحيى الحنفي ١٦٤ .
 حسنين محمد مخلوف ٧ ، ١٢ .
 الحسين بن إسماعيل المحاملي ٢٩ .
 الحسين بن خيران ١٦ .
 حماد شيخ أبي حنيفة ١٤١ ، ١٤٢ .
 الحميدي ٥٧ .
 خالد بن معدان ٩٧ ، ١٢٣ ، ١٨٢ .
 خباب ٩٢ .
 الخطيب البغدادي ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ١٤٢ ، ١٤٤ .
 الدارمي ٤٢ .
 داود الطائي ١٢٠ .
 داود بن نصير ١٠ .
 الديلمي ١٢٤ .
 الذهبي ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٠ ،
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ،
 ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١١٩ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ،
 ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٩ .
 ذو النون المصري ١٠ .
 الربيع بن سليمان المرادي ١٤١ ، ١٦٧ .
 الربيع بن خثيم ٧٤ ، ٧٦ .
 رويم بن أحمد ١٠ ، ١٣١ .
 زائدة بن قدامة ٥٥ .
 الزبيدي (شارح القاموس) ٨٢ ، ١١٧ ،
 ١٢٤ .
 الزرقاني ١٥٢ .
 زكريا (القاضي) ١١٧ .
 زيد بن أرقم ١٠٦ .
 زيد بن ثابت ١٤١ .
 زين الدين ابن المنير ٤٢ .
 السبكي (التاج) ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ،
 ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .
 السبكي (تقي الدين) ١٢٥ ، ١٢٦ .
 سحنون ١٦٨ .
 السري السقطي ١٠ ، ٢٧ ، ٨٣ .
 سعيد بن جبير ٧٢ .
 سعيد بن سنان ٥٧ .
 سعيد بن المسيب ٦٥ ، ١٥٢ ، ١٨١ .
 سعيد بن عمر البرذعي ١٩ .
 سفيان الثوري ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٦ ، ٥١ ،
 ٥٥ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٨١ .
 سفيان بن حسين الواسطي ٥٠ .
 سفيان بن عبد الله الثقفى ١٢٨ .
 سفيان بن عيينة ٤ ، ٦٢ .

- سليمان بن بلال التيمي ١٦٩ .
 سهل بن سعد الساعدي ١١٦ .
 سليمان بن عبد الملك ١٢٢ .
 الحلبي ١٤١ .
 سهل التستري ١٥٣ .
 السيوطي ٣٢ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٤١ ، ١١٨ ، ١٠٦ ، ٨٩ ، ٨٤ .
 الشافعي ١٦ ، ١٩ ، ١٠٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٦٧ .
 الشرنبلالي ٨٩ .
 شريح (القاضي) ٨٩ .
 الشمراني ٢٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٩ .
 شقيق البلخي ٣٠ .
 صدقة بن عبد الله ١٦٤ .
 الصولي ١٧٤ .
 طاووس ١٢٢ ، ١٨٠ .
 الطبراني ٧٧ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٤١ .
 عائشة ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ١٨٦ .
 عارف التكددي ١٢٥ .
 عامر بن عبد قيس ١٤٦ ، ١٧٣ .
 عبادة بن الصامت ٥٦ .
 العباس بن الأخنس ٩٦ .
 عبد الرحمن بن عوف ١٧٨ .
 عبد الرحمن بن غنم ١٢١ .
 عبد الرحمن بن مهدي ٩٢ .
 عبد الرحمن بن يزيد ٤٥ .
 عبد الرحيم الديلمي ٢٠ .
 عبد الستار أبو غدة ١٥ .
 عبد العزيز الأهواني ٤ .
 عبد الفتاح أبو غدة ٧ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٦٩ ، ١٣٨ ، ١٨٣ .
 عبد القادر الجيلاني ١٠ .
 عبد الله بن أحمد ٩٢ ، ١٤٢ ، ١٦٧ .
 عبد الله بن عباس ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٣ ، ٨٧ .
 ٨٢ ، ١١٨ ، ١٤١ .
 عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين ١٧٨ .
 عبد الله بن علوي الحداد ١١ .
 عبد الله بن عمر ٨٨ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٨٧ .
 عبد الله بن عمرو بن العاص ٥٩ .
 عبد الله بن المبارك ١١٥ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ١٧١ .
 عبد الله بن المبارك العكبري ١٤٥ .
 عبد الله بن محمد العدوي ١١٢ ، ١١٣ .
 عبد الله بن مسعود ٥٣ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٤ .
 ٧٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٩ .
 ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٨٠ .
 عبد الله بن وهب ٥١ ، ٧٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .
 عبد الله العجلي ١٤٩ .
 عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ١٢٤ .
 عبد الهادي أبو غدة ١٥ .
 عبدة بنت خالد بن معدان ١٢٢ و ١٢٣ .
 العجلي ١٤٩ .
 عبيد الله بن الحسن العنبري ٦٢ .
 عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ٦١ .
 عبيد بن عمير المكي ١٤٩ ، ١٥٠ .
 عثمان بن عفان ١٦٥ ، ١٧٨ .
 العجلوني ٨٢ .
 العراقي ٨٢ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٧٦ .
 العرياض بن سارية ٣٧ ، ٦٨ .
 عروة بن الزبير ٩٧ .
 عز الدين بن عبد السلام ٢٢ .
 العسكري ٥٩ .
 عطاء الله الحراساني ٧٠ .
 عطية السعدي ٢٥ .

- علي أرسلان ٣١ .
 علي بن أبي طالب ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ،
 ٨٩ ، ١١١ ، ١٦١ ، ١٨٢ ، ١٨٨ .
 علي بن خشرم ١٥٥ .
 علي بن زيد بن جدعان ١١٢ .
 علي بن الفضيل ١٨٠ .
 علي القاري ١٥٥ .
 العللاء ١٧٤ .
 عمر بن الخطاب ٥ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ،
 ٥١ ، ٥٢ ، ٧١ ، ١١١ ، ١٢٨ ،
 ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ .
 عمر بن عبد العزيز ٦١ ، ٨٦ ، ١٢٢ ،
 ١٢٤ ، ١٢٦ .
 عمر بن عبد الله المدني ٨٧ ، ٨٨ .
 عمر بن محمد السهرودي ١١ .
 عمرو بن عبيد ٦٢ .
 عمرو بن عثمان المكي ٢٩ .
 عمرو بن ميمون الأودي ٦٠ ، ١٢٩ ، ١٦٥ .
 عياض (القاضي) ٤ ، ٢٦ ، ٥١ ، ٦٠ ،
 ٦٧ ، ٧٤ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ ، ١٦٧ ، ١٧١ .
 عيسى بن مريم عليه السلام ١٠٠ ، ١٧٦ .
 الغزالي ٨ ، ١٠ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٤١ ،
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١١٧ .
 الفيروز آبادي ٥٢ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٣١ ،
 ١٦٢ ، ١٧٩ .
 الفضيل بن عياض ١٠ ، ١٥٥ ، ١٧٢ .
 القاسم بن محمد ١٢١ .
 القباري الإسكندراني ٤٢ .
 قتادة ٧٥ ، ١٨٦ .
 قتيبة بن مسلم ١٦٩ .
 القراني ١٣١ .
 القرطبي ٦٧ .
- القشيري ٩ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١١٧ .
 القسطلاني ٤٣ .
 قيس بن مسلم ١٨١ .
 كحالة ١١٩ .
 الكشميري ١٦٧ .
 الكوثري ١٧ .
 الكنوي ٢١ ، ٦٥ .
 الليث ٢٤ ، ٥١ ، ١١٧ ، ١٦٧ .
 مالك بن أنس (الإمام) ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
 ٢٦ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٨٨ ،
 ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٧ ،
 ١٦٩ ، ١٨٧ .
 مالك بن الحويرث ١٩٠ .
 مالك بن دينار ١٤ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ١٦٠ .
 مالك بن مغول ٦٢ .
 المحاسبي (الحارث بن أسد) ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
 ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
 ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٨٣ ،
 ١٣٦ .
 محمد إقبال ١١٥ .
 محمد بن سالم الحفني ١١ .
 محمد بن سعيد المصلوب ٧٧ .
 محمد بن سعيد عقدة ٤٤ .
 محمد بن سيرين ٦٠ ، ١٣٥ ، ١٩٠ .
 محمد بن منصور ١٠٢ .
 محمد بن عبد الرحمن بن غزوان ٨٢ .
 محمد بن عبد الرحيم المقدسي ١٠٩ .
 محمد المدني ١٦٣ .
 محمد بن المنكدر ٦١ ، ١٣٢ .
 محمد بن واسع ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
 ١٦٩ ، ١٧٧ .
 مسلم بن الحجاج ٤٢ ، ٤٥ ، ٦٨ ، ٧١ ،
 ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .
 مسلمة بن عبد الملك ١٧٣ ، ١٧٤ .

- مسروق بن الأجدع ١٧٧ .
 مصعب بن عبد الله ٦٠ .
 مصعب الزبيري ١٩ .
 مصطفى السباعي ١٦٠ .
 معاذ بن جبل ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٩٨ ، ١١٦ ، ١٢٩ .
 المصم ٧٢ ، ١٧٤ .
 معروف الكرخي ١٠ ، ٢٧ .
 المقداد بن الأسود ١٩١ .
 مكحول ٧٨ .
 المناوي ١٨ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٩ .
 ١٠٦ ، ١١٨ ، ١٤١ .
 موفق الخوارزمي ١٤١ .
 المنذري ٧٧ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٦ .
 منصور أبو عامر ٥٧ .
 منصور بن عمار ٢٣ .
 منصور بن المعتمر السلمي ٥٥ .
 منصور بن زاذان الثقفي ٥٥ .
 ميمون بن مهران ٤٨ .
 نافع ٨٨ .
 نافع بن جبير ٤٦ .
 النسائي ٢٢ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١١٦ ، ١٤٢ .
 نصير الدين الطوسي ٩٨ .
 النعمان بن بشير ٤٢ ، ١١٠ .
 نعم بن حماد ١٢٩ .
 نور الدين الإيجي ٤٤ .
 النووي ٤ ، ٤٤ ، ٨٤ ، ١١٧ ، ١٢٨ .
 هارون الرشيد ١٢٥ ، ١٢٧ .
 هذيل ١٩ .
 هشام بن حسان ١٣٥ .
 هشام الكنافي ١٦٤ .
 هشيم بن بشير ٥٥ ، ١٤٠ .
 هند بنت الحس ١١٩ .
 الهيثمي ٥٧ ، ٧٧ ، ١١٤ .
 وابصة بن معبد ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩ .
 الوراق ٧٢ .
 واصل بن عطاء ٦٢ .
 وكيع بن الجراح ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٥٥ .
 ياقوت ١٩ .
 يحيى بن معاذ الرازي ١٠ ، ٥٤ .
 يحيى الليثي ١٦٩ .
 يزيد بن هارون ١٦ .
 يهثوب بن جعفر ١٧٤ .
 يوسف بن أسباط ٤٦ .
 يونس ٧٤ .
 يونس بن عبيد ٦٠ .

٥ - المصادر ^(١)

- ١ - آداب المتعلمين لنصير الدين الطوسي ضمن مجموعة رسائل . دار الفتوح دون تاريخ
- ٢ - الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية للمدني . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٨ .
- ٣ - الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي . الطبعة الثانية ١٣٥٤
- ٤ - الإحياء في علوم الدين للقرطبي . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦
- ٥ - الانتقاء لابن عبد البر . طبعة حسام الدين القدسي . المعاهد ١٣٥٠
- ٦ - إرشاد الساري للقسطلاني . البولاقية الخامسة ١٢٩٣
- ٧ - الأربعمون النووية للنووي . مع « الفتح المبين » الآتي ذكره
- ٨ - الأسماء والصفات للبيهقي . السعادة ١٣٥٨ .
- ٩ - أصول الدين لأبي منصور البغدادي ، الآستانة ١٣٤٦
- ١٠ - أعلام النساء لعمر رضا كحالة . الهاشمية بدمشق ١٣٧٩ .
- ١١ - إعلام الموقعين لابن القيم . السعادة ١٣٧٤
- ١٢ - إغاثة اللهفان لابن القيم . مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧
- ١٣ - أنباء نجباء الأبناء لابن ظفر المغربي . الققدم دون تاريخ
- ١٤ - البداية والنهاية لابن كثير . السعادة ١٣٥١
- ١٥ - بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي . شركة الإعلانات الشرقية ١٩٦٤ م
- ١٦ - بهجة النفوس وتحليلها لابن أبي جمرة الأندلسي . الصدوق الخيرية ١٣٤٨
- ١٧ - تاريخ الإسلام للذهبي . السعادة ١٣٦٧
- ١٨ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . السعادة ١٣٤٩

(١) اقتصرنا فيها على ما عزوت إليه في التعليقات . وما طبع منها بمصر أغفلت ذكر بلده .

- ١٩ - تاريخ الأمم والملوك للطبري . الحسينية ١٣٢٦ .
- ٢٠ - تذكرة الحفاظ للذهبي . الطبعة الثالثة حيدر آباد الدكن ١٣٥٧
- ٢١ - تهذيب التهذيب للذهبي مخطوط .
- ٢٢ - ترتيب المدارك للقاضي عياض . الرباط بالمغرب ١٣٨٤
- ٢٣ - الترغيب والترهيب للسندري . مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٢
- ٢٤ - تفسير ابن كثير . مصطفى محمد ١٣٥٦
- ٢٥ - تقريب التهذيب لابن حجر . دار الكتاب ١٣٨٠
- ٢٦ - تخريج أحاديث الإحياء للمراقي . مع « الإحياء » المتقدم ذكره .
- ٢٧ - تلخيص المستدرک للذهبي . مع « المستدرک » الآتي ذكره .
- ٢٨ - تهذيب الأسماء واللغات النووي . الطبعة المنيرية
- ٢٩ - تهذيب التهذيب لابن حجر . حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ .
- ٣٠ - التيسير بشرح الجامع الصغير للناوي . بولاق ١٢٨٦
- ٣١ - ثقات المجلي . مخطوط .
- ٣٢ - جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر . المنيرية ١٣٤٦
- ٣٣ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي . مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٩
- ٣٤ - الجامع الصغير للسيوطي . مع « فيض القدير » الآتي ذكره .
- ٣٥ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . دار الكتب المصرية ١٣٥٤
- ٣٦ - جذوة المقتبس للحميدي . مكتب نشر الثقافة الإسلامية ١٣٧٢
- ٣٧ - الجواب الكافي لابن القيم . أمين عبد الرحمن ١٣٤٦
- ٣٨ - الحاروي للفتاوي للسيوطي . السعادة ١٣٧٨
- ٣٩ - الحلية لأبي نعيم . السعادة ١٣٥١
- ٤٠ - اخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان لابن حجر الهيتمي . الخيرية ١٣٠٤
- ٤١ - ديوان الأسرار والرموز للشاعر محمد إقبال . دار المعارف ١٩٥٦ م
- ٤٢ - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي . السنة المحمدية ١٣٧٢
- ٤٣ - الرسائل الصغرى لابن عباد النفري . الكاثوليكية في بيروت ١٩٥٧ م
- ٤٤ - الرسالة القشيرية للقشيري . بولاق ١٢٨٤
- ٤٥ - رساله في الصيد والروايه والخيل لإبراهيم الحنفي . مخطوط .
- ٤٦ - الرفع والتكميل في الإخراج والتعديل للكنوي . دار لبنان في بيروت ١٣٨٩
- ٤٧ - الروح لابن القيم . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٧
- ٤٨ - روضه العقلاء لابن حبان . الخانجي ١٣٢٨
- ٤٩ - زاد المعاد لابن القيم . السنة المحمدية ١٣٧٠
- ٥٠ - الزهد للإمام أحمد ، أم القرى بمكة المكرمة ١٣٥٧
- ٥١ - سباحة الفكر في الجهر بالذكر للكنوي . لكنو ١٣٠٣

- ٥٢ - سر الروح البقاعي . السعادة ١٣٢٦
- ٥٣ - سنن ابن ماجه . عيسى البايي الحلبي ١٣٧٢
- ٥٤ - سنن أبي داود . مصطفى محمد ١٣٥٤
- ٥٥ - سنن الترمذي ، المصرية بشرح ابن العربي ١٣٥٠
- ٥٦ - شذوات الذهب لابن العماد الحنبلي . مكتبة القدسي ١٣٥٠
- ٥٧ - شرح الإحياء (إتحاف السادة المتقين) للزبيدي . الميمنية ١٣١١
- ٥٨ - شرح الأربعين النووية المنسوب للنووي . مصطفى محمد .
- ٥٩ - شرح الباجوري على السنوسية بحاشية الأنباي . الاستقامة ١٣٥٢
- ٦٠ - شرح حديث العلم لابن رجب الحنبلي . السلفية بمكة المكرمة ١٣٤٧
- ٦١ - شرح الحكم لابن عباد النفزي . الميمنية ١٣٠٤
- ٦٢ - شرح صحيح مسلم للنووي . المطبعة المصرية ١٣٤٧
- ٦٣ - شرح الكوكب المنير للفتوسي الحنبلي . السنة المحمدية ١٣٧٢
- ٦٤ - شرح الموطأ للزرقاني . الكستلية ١٢٧٩
- ٦٥ - صحيح البخاري مع « فتح الباري » الآتي ذكره .
- ٦٦ - صيد الخاطر لابن الجوزي . مطابع دار الفكر بدمشق ١٣٨٠
- ٦٧ - طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الحنبلي . السنة المحمدية دون تاريخ .
- ٦٨ - طبقات الحنفية لعلي القاري . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢
- ٦٩ - طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي . الحسينية ١٣٢٤
- ٧٠ - عارضة الأحوزي شرح سنن الترمذي لابن العربي . المطبعة المصرية ١٣٥٠
- ٧١ - المعبر في خبر من غير للذهبي . الكويت ١٣٨٠
- ٧٢ - العقل وفضله لابن أبي الدنيا . عزت العطار ١٣٦٥
- ٧٣ - العلل للإمام أحمد بن حنبل . جامعة أنقرة في تركيا ١٣٨٢
- ٧٤ - عيون الأخبار لابن قتيبة . دار الكتب المصرية ١٣٤٣
- ٧٥ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر بولاق ١٣٠٠
- ٧٦ - الفتح المبين بشرح الأربعين لابن حجر الهيتمي . الميمنية ١٣١٧
- ٧٧ - الفروع لابن مفلح الحنبلي . دار مصر للطباعة ١٣٧٩
- ٧٨ - الفروق للقرافي . دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦
- ٧٩ - الفوائد لابن القيم . المنيرة ١٣٤٤
- ٨٠ - فيض الباري بشرح صحيح البخاري للكشميري . حجازي ١٣٥٧
- ٨١ - فيض القدير بشرح الجامع الصغير للناوي . مصطفى محمد ١٣٥٦
- ٨٢ - قاعدة في الجرح والتعديل للتاج السبكي . دار لبنان في بيروت ١٣٨٨
- ٨٣ - القاموس المحيط للفيروز آبادي . الحسينية ١٣٣٠
- ٨٤ - القضاء في الإسلام . محاضرة لعارف النكدي . الترقى بدمشق ١٣٤٠

- ٨٥ - كتاب الأولياء لابن أبي الدنيا . جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٤
- ٨٦ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس للمجلوني . مكتبة القدسي ١٣٥١
- ٨٧ - كشف الغمة عن جميع الأمة للشمراني . الكستلية ١٢٨١
- ٨٨ - كلية ودمنة لابن المقفع مطبعة الخازندار ١٩٣٤ م
- ٨٩ - الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ١٣٥٧
- ٩٠ - لسان العرب لابن منظور . بولاق ١٣٠٠
- ٩١ - متن الزيد لابن رسلان الشافعي . ضمن « مجموعة الماتون » .
- ٩٢ - مجمع الزوائد للهيثمي . مكتبة القدسي ١٣٥٢
- ٩٣ - مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا . جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٤
- ٩٤ - مجموعة الرسائل الست للكنوي . مطبع دبدبه أحمد في لكنو بالهند ١٣٠٣
- ٩٥ - مجموع الفتاوى للشيخ ابن تيمية . مطابع الرياض في الرياض ١٣٨١
- ٩٦ - مراقي الفلاح للشرنبلاني بحاشية الطحطاوي . بولاق ١٢٦٩
- ٩٧ - مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين لأبو غدة . دار القلم ببيروت ١٣٩١
- ٩٨ - المستدرك على الصحيحين للحاكم . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٤
- ٩٩ - مسند الإمام أحمد بن حنبل . الميمنية ١٣١٣
- ١٠٠ - مسند الدارمي . المطبع النظامي في كافور بالهند ١٢٩٣
- ١٠١ - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر . العصرية في الكويت ١٣٩٠
- ١٠٢ - معجم الأدباء لياقوت الحموي . دار المأمون ١٣٥٥
- ١٠٣ - مناقب الإمام أبي حنيفة للموفق الخوارزمي . حيدر آباد الدكن ١٣٣٢
- ١٠٤ - مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي السعادة ١٣٤٩
- ١٠٥ - الموطن للإمام مالك . عيسى البابي الحلبي دون تاريخ .
- ١٠٦ - ميزان الاعتدال للذهبي . السعادة ١٣٢٥
- ١٠٧ - النهاية لابن الأثير في غريب الحديث . العثمانية ١٣١١
- ١٠٨ - نهج البلاغة للرضي . طبعة بيروت من ثلاثة أجزاء
- ١٠٩ - هدي الساري إلى فتح الباري لابن حجر . المنيرية ١٣٤٧
- ١١٠ - هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي . دمشق ١٣٨٢
- ١١١ - الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم . المنيرية ١٣٥٧
- ١١٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠

٦ - الأبحاث

الصفحة	
٣	تقدمة الطبعة الثانية ، وفيها بيان ما تميزت به عن الطبعة الأولى
٣	قول أبي حنيفة وغيره في فضل إيراد الحكايات عن الصالحين وذكر آثارها
٤	قول سفيان الثوري : عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة
٤	قول أبي محمد التميمي : يقيح بكم أن تستفيدوا منا ولا تترحموا علينا
٤	تأدب الإمام أحمد في جلوسه إذا ذكر الصالحين
	بيان ما يستحب من التعظيم والإجلال عند ذكر الله تعالى ، أو ذكر رسوله ،
٤	أو ذكر العلماء أو الصالحين
٥	سبب إكثاري في التعليق من الحكايات والأخبار عن السلف والصالحين
٥	مجالسة الصالحين من مقاصد الحياة عند العقلاء ، وقول سيدنا عمر في ذلك
٥ - ٦	حاجة الشباب إلى الغذاء الروحي السليم في هذا المجتمع الفاسد
٧	تقريظ إمام من أئمة العصر لـ « رسالة المسترشدين » في طبعتها الأولى
٨	وفيه بيان التصوف النقي وذكر أثره في السلوك والأخلاق
٩	تعريف التصوف عند الجريري ، والأدب عند القشيري والسراج
٩	قول السيد الجنيد في لزوم حفظ الكتاب والسنة للسالكين
٩	تسمية (التصوف) باسم (علم الحقيقة) ، والفقه باسم (علم الشريعة)
١٠	بيان ترابط الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة لزماً
١٠ - ١١	ذكر طائفة من السادة الصوفية القدامى والمتأخرين المشهود لهم بالفضل والعلم
١١ - ١٢	التصوف المنتحل ومقاصد أهله الخبيثة ، وكشف خباياهم

- ١٢ التصوف المحترف ، وانحرافات أهله الأدعياء المتوارثة
- ١٢ تصوف المحاسبي وكتابه « رسالة المسترشدين » من التصوف النقي
- ١٣ مقدمة الطبعة الأولى ، وفيها إلماعة لحاجة الناس إلى الروح والدين
- ١٣ من أطيب ما ترك الأول للآخر : آثار المحاسبي ومنها رسالة المسترشدين
- ١٤ - ١٣ إلماعة إلى زهد المحاسبي وصلاحه وإخلاصه في نصحه وتأليفه
- ١٥ - ١٤ وصف مخطوطة « رسالة المسترشدين » التي طبعت عنها ، وخدمتي لها
- ١٦ ترجمة المؤلف المحاسبي : شيوخه وتلامذته وأسلوبه
- كثرة مؤلفاته ، وردوده على المعتزلة والرافضة والقدرية ، وكتبه في
- ١٧ التصوف أصول لمن صنف بعده ، وقول الكوثري في تقديرها
- ١٨ ثناء الأئمة على المحاسبي ، وبيان طريقته في التأليف عن تلميذه الجنيد
- ١٨ سبق المحاسبي في التأليف عن أحوال النفس وتركيتها وما لحقه بذلك
- ١٩ ضيق صدر الرواة والمحدثين من كل من سلك غير طريقتهم
- ١٩ استكتام الشافعي للزيري ما تناشده من الشعر عن المحدثين ، إذ لا يهتمون ذلك
- ١٩ المنافرة بين المحدثين والصوفية قديمة ، ويجب تفقدها عند الجرح
- ١٩ انتقاد أبي زرعة الرازي المحدث لتأليف المحاسبي الصوفي
- ٢٠ تحليل ابن رجب لموقف أبي زرعة وأحمد وغيرهما من المحاسبي
- ٢٠ قول ابن تيمية في سبب تحذير أحمد من المحاسبي ، وثناؤه عليه
- ٢٠ - ٢١ كراهة أحمد من المحاسبي نظره وتأليفه في (الكلام)
- ٢١ نقل التاج السبكي بأن أحمد هجر المحاسبي بسبب دخوله في (الكلام)
- ٢١ علم الكلام مع شرفه لا يحتاج إليه أكثر الناس بخلاف علم الفقه
- نصيحة التاج السبكي لطالب العلم بالتزام الأدب مع الأئمة الماضيين ، وأن
- ٢٢ لا ينظر إلى كلام بعضهم في بعض ... وهي نصيحة غالية نفيسة فقف عليها
- حكاية أن الإمام أحمد شاهد مجلس المحاسبي وأصحابه معه ، وأثنى عليهم خيراً
- ولم يشر بصحتهم ، وتحليل ذلك عن السبكي وابن حجر وابن مفلح
- ٢٢ - ٢٤ والبيهقي وابن كثير وغيرهم
- ٢٥ تساهل المحاسبي باستدلاله بالأحاديث الضعيفة ونقد ابن العربي لصنيعه
- ٢٦ سريان تساهله إلى من بعده ممن كتبوا في التصوف كأبي طالب المكي والغزالي
- ٢٦ تصوف المحاسبي تصوف عملي لا فلسفي ، إذ لا يكتب إلا فيما تحته عمل
- ٢٦ قول الإمام مالك : أهل بلدنا ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل
- ٢٦ فصاحة بيان المحاسبي وفصاحة أسلوبه في كتبه تحتل المرتبة العليا
- ٢٧ طرف من أحواله وأقواله . وحكاية تحفظه من المشبه في صغره
- ٢٧ حكاية تركه ميراثه من والده مع كثرتهم ومع فقر المحاسبي ورعاً منه
- ٢٨ حكاية حفظ الله تعالى له من أكل المال المشبوه أو الحرام

- ٢٨ تأليفه (كتاب المعرفة) وإعجابه به ثم إتلافه إياه لمحاورة شاب له
 ٢٩ شدة إنكاره على من شتم منه رابطة دعوى وحدة الوجود
 ٢٩ ثناء الشيخ ابن خفيف عليه في جملة خمسة من كبار أهل الحقائق
 ٢٩ استبشاره عند موته بحسن الخاتمة رحمه الله تعالى
 ٣٠ طائفة من أقواله وفيها الحكمة البالغة والحقائق الناصحة
 ٣١ - ٣٢ ذكر مؤلفاته ما طبع منها ، وما عرف وجوده أو اسمه في كتب العلماء
 ٣٥ - ٣٦ فاتحة (رسالة المسترشدين) وفيها بيان منهاج ذوي الألباب
 ٣٨ فريضة كتاب الله العمل به ، وذكر أثره الخير على العامل به
 ذكر أن الاهتداء إلى الله تعالى لا يتوقف على التزام (شيخ وبيعة) ،
 وإنما يتوقف على التزام العلم والعمل الذي أمر الله به
 ٣٨ بيان أن القرآن والحديث كل منهما هاد بذاته لمن تدبره وعمل به
 ٣٨ تختلطة من زعم أن القرآن والحديث لا ينتفع المرء بهما ما لم يكن له شيخ يطببه
 سؤال الإمام الشاطبي الفقيه للإمام ابن عباد الصوفي عما يحتاجه السالك من
 شيخ الطريقة أو شيخ العلم ، وجوابه عن ذلك جواب العالم المنصف بلزوم
 ٣٩ - ٤١ شيخ العلم ، وأن شيخ الطريقة ليس بضروري ... وهو جواب نفيس جداً
 ٤١ قول الغزالي إن الحلال والحرام والمشتبهات بينهما موجود دائماً ...
 المشتبهات قنطرة الحرام ، والتوسع بالمباح قنطرة الوقوع في المكروه ، والمكروه باب
 ٤٢ إلى الوقوع في الحرام
 شرح الحافظ ابن حجر لحديث « اجملوا بينكم وبين الحرام ستره من
 ٤٢ - ٤٣ الحلال » شرحاً نفيساً ينبغي الوقوف عليه للعالم وغيره
 ٤٣ حفض العلامة القسطلاني على لزوم التيقن من حل ما يفعله المرء
 ٤٤ - ٤٥ واقعة من ورع أخت بشر الحافي ، وواقعة من ورع بديعة الإيجية وورع أبيها
 ٤٤ واقعة من ورع محمد بن سعيد عقدة . وورع أبي إسحاق الشيرازي .
 بيان ابن القيم لموقع النية من الأعمال ، وشمول دخولها في كل فعل أو ترك ،
 والأجر عليها أو المؤاخذة بها
 ٤٥ نماذج من اهتمام السلف بفحص النية وتخليصها من الشوائب
 ٤٦ كلام نفيس للغاية للشيخ ابن القيم في الخطرة والفكرة ومرآتها في النفس
 حتى تكون فعلاً وعادة وسلوكاً مع بيان علاجها
 ٤٦ - ٤٨ خفة الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا
 ٤٨ حال المؤمن عندما يعترضه ما يشتبهه من المحظورات
 ٤٩ عادة الشيوخ محاسبتهم لأنفسهم كل ليلة على الأعمال والحواطر
 ٤٩ حق على من لا يعلم إذا سئل أن يقول : لا أعلم ، ومقبة مخالفته لذلك
 ٥٠ تنفير إياس القاضي من الغيبة لمن وقع فيها بأحسن محاكمة عقلية

- التزم ابن وهب بصيام يوم إذا اغتاب فلم يترك الغيبة ، فالتزم بصدقة درهم فتركها
 ٥١
 ٥١
 ٥١
 ٥٢
 ٥٢
 ٥٢
 قول ابن القيم : من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره ...
 ٥٢
 قول ابن القيم : لله عبودية خاصة على كل أحد بحسب مرتبته ... وفيه أن كثيراً
 من الخلق عطلوا العبوديات التي عليهم بالزهد والانقطاع لعبادة أسر وحوا لها عن
 النهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ! وقد بلوا بأعظم بلية : موت القلوب
 وهو مبحث نفيس جداً فقف عليه
 ٥٣ - ٥٥
 كان بعض السلف على تعبد لا يستطاع المزيد عليه ، ومنهم : منصور بن زاذان
 الثقفى ، ومنصور بن المعتز السلمي ، وذكر خبرهما في ذلك
 ٥٥ - ٥٦
 حقيقة الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، وأن ما أصابك لم يكن
 ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ...
 ٥٦
 ٥٧
 دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم - تعليماً لنا - بأن يرزقه الله ذلك الإيمان ...
 واقعة عجيبة مدهشة لأحد ملوك المغرب تثبت أن من أراد الله حياته لا تقدر الملوك
 على قتله ، فقف عليها
 ٥٧ - ٥٨
 واقعة عجيبة أخرى تثبت أن من قدر الله هلاكه لا تحمية الحصون الموانع من الموت
 ٥٨
 بيان خير من نجاه من النام على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ٥٩
 قول الحسن البصري : الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء
 ٥٩
 ذكر طائفة من السلف كانوا إذا رؤوا ذكر الله تعالى ، منهم : عمرو بن ميمون
 الأودي ، ومحمد بن سيرين ، والحسن البصري ، ومحمد بن المنكدر ، فانظر
 أخبارهم في ذلك ، وأبيات لطيفة في هذا المعنى
 ٦٠ - ٦١
 تفضيل أبي موسى الأشعري مجلس (عبد الله بن مسعود) على عمل سنة
 ٦١
 تفضيل الخليفة عمر بن عبد العزيز مجلس (عبيد الله ... بن مسعود) على الدنيا
 وما فيها وأنه يشترى مجلسه ليلة واحدة بألف دينار من بيت المال ، وذكره فضائل
 مجلس أمثاله على العقل والقلب والسلوك
 ٦١ - ٦٢
 التواضع للحق شأن المؤمنين الصالحين ، وذكر تواضع (عمرو بن عبيد) للحق
 ٦٢
 وقوله : ما بيني وبين الحق من عداوة
 خضوع (عبيد الله العنبري) للحق وقوله : لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي من
 أن أكون رأساً في الباطل
 ٦٢
 استيفاء الإمام ابن القيم فوائد ذكر الله وآثار الذكر الحيرة على الذاكر في دينه
 وعقله وسلوكه ، ومع الله ومع نفسه ومع الناس ، بما يحجب الذكر للفاقل والذاكر

- ٦٢ - ٦٤ جميعاً ، فقف عليه تزدد خوياً وذكر الله تعالى
- ٦٥ الإشارة إلى جواز الجهر بالذكر جماعة أو بانفراد ، مع ذكر كتب فيه بيان تحريم العلماء للقفر والوثب ... أثناء الذكر ، ونقل نصوص تحريمه عن الإمام القرطبي المحدث والحافظ ابن حجر والقاضي عياض والإمام مالك والقرطبي المفسر
- ٦٩ - ٦٥ تفسير الصحابة : ابن مسعود وأنس ومعاذ لمعني (خلق الذكر) الواردة في الحديث
- ٦٩ تفسير عطاء الخراساني وأبي السوار العدوي لمعني (مجالس الذكر)
- ٧٠ بيان الحافظ ابن رجب معنى (مجالس الذكر) وأنها لا تختص بالتسبيح بل تشملها وتشمل الذكر الذي هو بيان الحلال والحرام ، وتفضيله على الذكر باللسان
- ٧٠ قول أحمد في أثر الصدق على الناس وقول إياس في أثر فقده
- ٧٢ كلمة مالك بن دينار في تمارك الصدق والكذب في القلب ، وكيف ينمو الصدق في القلب ، وبيان تأثير الصادقين في غيرهم
- ٧٢ غشية الربيع بن خيثم بعض يوم عند سماعه بعض آيات الوعيد
- ٧٤ انصداع قلب ابن وهب لما قرئت عليه صفة الجنة والنار فكانت سبب وفاته
- ٧٤ ثناء على كتاب التوهم للإمام المحاسبي وبيان موضوع الكتاب
- ٧٧ التحذير من المراء في القرآن الكريم وذكر ما ورد في ذلك
- ٧٨ التحذير من الهدال في الدين وذكر ما ورد في ذلك
- ٧٩ تصوير الأديب ابن المقفع لحال غفلة الإنسان عن آخرته بأصدق تمثيل
- ٨١ كلمة في الدعوة للتغلب على الشهوة وحسن عاقبة الغلب عليها
- ٨١ كلمة رائمة لابن القيم في بيان آثار الشهوة ومساوئها
- ٨٢ قول الجنيد بتقيد التصوف بالكتاب والسنة وترك من لم يتقيد بهما
- ٨٢ قول الشمراني : كل طريق لم يمش فيه الشارع فهو غلام ... وتقريعه للمتصوفة الذين لا يطالعون كتب الفقه أو يمتنعون منها بدعوى أنها حجاب !
- ٨٣ ثناء السري السقطي على المحاسبي ودعاؤه للجنيد بالعلم ثم التصوف
- ٨٣ نقد الحافظ ابن رجب لمن يدعي العلم الباطن ، ويذم العلم الذي هو معرفة الحلال والحرام ، ويقول عن أهله : محجوبون وأصحاب قشور ! وأن ذلك قدح في الشريعة !
- ٨٣ بيانه لحال هؤلاء المتصوفة المدعين ، ولحكم الشرع فيهم
- ٨٣ نقده لمن يزعم أن علم الباطن لا يتلقى من الكتاب والسنة ، وأن الشريعة لم تأت بما
- ٨٤ يوجب صلاح القلوب وقررها من علام الغيوب
- ٨٤ تقبل الفطر السليمة للحق ورفضها للباطل بطبيعتها الفطرية ، وبيان الإمام أحمد متى يحكم الباطل بالظهور على الحق ؟
- ٨٤ الاستفتاء من القلب لمن يكون ؟ ومتى يكون ؟ وكلام نفيس فيه للأئمة : الغزالي
- ٨٤ - ٨٥ والمنادي وابن رجب وابن حجر الهيتمي

- واقعة عجيبة لرجل أراد غادر قتله، فلبأ إلى الله وصلى فلم يحضره للقراءة سوى قوله تعالى (أمن يحيب المضطر إذا دعاه ...) فأغاثة الله بفارس وقتل مغيثه الغادر ٨٦
- دخول ابن قتيبة مجلس القضاء لمصومة ثم عدوله عنها إكراماً لنفسه وتقديراً لنصيحة من أبان له مساوىء المصومة على النفس والدين والقلوب ٩٠
- لا يعدم المحق العون والتثبيت على الحق ، وقد يأتيه من لا يظن به العون كما وقع للإمام أحمد أيام المحنة ، وذكر ما ثبت به أحمد وفيه العجيب المدهش ، وذكر صبر الإمام أحمد على الشياطين الشداد في جنب الحق ٩١ - ٩٣
- تعداد الفيروز آبادي لأثار التقوى لله وبشائرها ، وقد بلغت ٢٧ بشارة ٩٤ - ٩٦
- علامة العقل النافع ، وعلامة العلم النافع ٩٧
- أفضل زينة للإنسان العقل ، وأجمل لباس له : العلم ٩٧ - ٩٨
- كلام نفيس للحسن البصري ومعاذ الصحابي في موقع العلم وأثره ٩٨
- كلمات عن الفيروز آبادي والطوسي في شرف العلم ٩٨
- محاورة شعرية لطيفة بين العقل والعلم وأيهما أفضل من الآخر ٩٩
- شعر للإمام الشافعي في الفرق بين خوف الجاهل والعالم من الله تعالى ١٠٠
- طرف من ترجمة ابن الجوزي ، وفيها جوابه المدهش لمن تعلق بدرسه ١٠١
- نموذج من بصيرة الإمام البخاري في عمله وورعه وتقواه ١٠١ - ١٠٢
- ذكر المحاسبي لعلامات الأدب والعلم واليقين في العاقل بأبلغ عبارة ١٠٢ - ١٠٣
- طرف من سيرة الإمام ابن تيمية وصبره على المحنة والسجن حتى مات فيه ، وقلبه المحنة فيه منحة ، وأقواله في ذلك مما ينبغي حفظه لدعاة الحق الصادقين العاملين ١٠٣ - ١٠٤
- علامات العاقل في سلوكه ، وشعاره في حياته ومع الناس ١٠٥ - ١٠٦
- ذكر الحديث الوارد في أثر صحبة الصالحين ونفعها لمن جالسهم ولو ساعة ١٠٧
- أبيات لطيفة في اكتساب التراب الشرف من الورد لما خالطه ١٠٧
- كل بلاء يدخل على القلب فمشأء من الفضول ! ١٠٨
- نموذج من ورع الإمام أبي حنيفة وورع شمس الدين المقدسي ١٠٨ - ١٠٩
- عند الاشتباه بين الحلال والحرام ينبغي الاحتكام للشرع لا للعقل وحده ، وأبيات لطيفة فيها الدعوة إلى ذلك ١٠٩
- فساد القلب ناشئ من فساد الدين ، وبيان علاجه ١١٠
- قول الفقيه ابن رسلان في وزن الخواطر بميزان الشرع وكذلك الخنيد ١١١
- كلمات لسيدنا عمر وسيدنا علي والحسن في انقراض العمر كل يوم ١١١
- المواضع التي يظهر فيها الفضول ، وآثار الفضول في تلك المواضع ١١١ - ١١٢
- بيان شروط صحة التوبة وهي أربعة أحدها حفظ الجوارح السبع ١١٣
- فرض القلب ، وبيان منافذ الخطر إليه ١١٣
- من لطيف رحمة الله أنك إذا خفت منه هربت إليه بخلاف خوفك من غيره ١١٣

- تشبيه ابن المبارك للقلب بالمرآة وبالذابة ، وتشبيهه ببيت له ستة أبواب ١١٥
- التحذير من غفلة القلب فكلم غفلة أورثت حسرات كما أوضحه شعر إقبال ١١٥
- فرض اللسان ، وبيان مأتاه وهلاك صاحبه من فضوله ١١٦
- حضر أبي علي الدقاق على الابتعاد عن فضول اللسان والاحتراس منه ١١٧
- فرض البصر ، وأنه يرى المنوع جميلاً والمباح دميماً تليساً من الشيطان للإيقاع ١١٩-١١٨
- في الفتنة ، وقصة هند بنت الحنظل شريفة العرب التي زنت بعبد لها ! وسبب زناها ١٢٠
- عقاب إطلاق البصر ، وثواب حفظه ، وما يباح منه ١٢٠
- فرض السمع ، وبيان ما يجب حفظ السمع منه ١٢٠
- حرمة استماع الغناء والآلات ، وما تجره من مفسدات وويلات ١٢١
- فرض الشم ، وموضع حله أو منعه ١٢٢
- فرض اليدين والرجلين ، وموضع بسطهما أو قبضهما ١٢٢
- رسم الطريق الموصلة إلى حفظ الجوارح السبع ، وبيان ١٢٨-١٢٣
- ذكر خمس وقائع مدهشة لخمس من الأئمة فيها التيقظ للحاسبة ١٢٧-١٢٤
- واقعة الخليفة عمر بن عبد العزيز وواقعة الإمام عبد العظيم المنذري ١٢٤
- واقعة التاج السبكي وواقعة القاضي أبي يوسف وواقعة ابن حامد الوراق ١٢٥
- بيان مواضع اليقظة والحاسبة في تلك الوقائع ١٢٧-١٢٦
- تفسير قوله تعالى (ثم استقاموا) من السنة وكلام التابعين ١٢٨
- المراد بلزوم الجماعة لزوم الحق واتباعه وإن كنت وحدك فقف عليه ١٢٨
- بيان أنجي طريق العبد من سخط الله تعالى وعذاب الآخرة ١٣٠
- بيان حقيقة التوكل وأنه لا يتنافى الأخذ بالأسباب ١٣١
- ينبغي أن يكون الأدب في السلوك كثيراً بنسبة الدقيق إلى الملح في المعين ١٣١
- إقامة الصلاة على وجهها وثمراتها الكريمة على السلوك وآثارها المباركة ١٣٣
- صورة من وقائع السلف في التنزه عن الشبهات في المال ١٣٥
- تنزه المسلم عن الخلف ولو صادقاً ، وبيان أن الخلف حنث أو ندم ١٣٦
- على العاقل أن يعلم حكم ما يقوله أو يفعله قبل الدخول فيه ، وذكر الشروط ١٣٨-١٣٦
- اللازم تحقيقها لنجاح كل عمل أو مقصد ، وهو مبحث مهم جداً ١٣٨
- صورة من توقف بعض السلف عن العمل حتى علم حكمه ففعله ١٣٨
- بيان معنى المداراة أو المداينة والفرق بينهما وحكمهما ١٣٩-١٣٨
- نماذج من توقير العلماء ومجالسهم من ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وابن المسيب ١٤٢-١٤٠
- وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، والشافعي ، والربيع ، وأحمد رضي الله عنهم ١٤٢
- حق الصنعة إليك أن تكافئ عليها ، ومن المكافأة عليها الدعاء لصانعها ١٤٢
- طلب تنزيه الله تعالى عن إضافة المكافأة إليه سبحانه ١٤٣
- لزوم حفظ الأوقات وملئها بالنافع من العلم أو العمل ١٤٤

- ١٤٤ محافظة الخطيب البغدادي على وقته جعلته يطالع كتابه وهو يمشي في الطريق
أبو الوفاء ابن عقيل وقوله في غلاء الوقت عند العقلاء ، ومحافظةه العجيبة على الوقت
١٤٥-١٤٤ حتى ألف كتباً كثيرة منها كتاب « الفنون » في ثمان مئة مجلدة
١٤٥ استبشاره عند موته بأنه كان يوقع عن الله ، وتركته الزهيدة وآملها
١٤٦ شعر لطيف للبهاء بن النحاس يصور فيه اتساع العلم بتحصيله جملة جملة كل يوم
محافظة ابن الجوزي على وقته ، وتعريفه بشرف الوقت ، وتشبيهه حال المتحدثين
١٤٨-١٤٦ الغافلين بالسفينة تجري بهم ، وبيان كيف كان يحفظ وقته من البطالين ...
١٤٨ الوصية بالجوار ، ومن الجار الملكان الحافظان ، فاستوص بهما خيراً
تناول نعم الله بالفهم إنما يكون للصالحين البصراء ، وذكر واقعة عجيبة لعبيد المكي
١٥٠-١٤٩ الواعظ مع المرأة الجميلة التي أرادت فتنته فصيهرها من العابدات
التحذير من أن يرى الإنسان نفسه : صاحب مقامات عند الله ، وذكر حال
١٥١ البهلول القير واني العابد لما جاءته رسالة امرأة بني من خراسان تطلب منه الدعاء
١٥٢ تفسير العزم والحزم ، وعمل أبي بكر بالحزم وعمر بالعزم في صلاة الوتر
التحذير من أكل الدنيا بالدين ، وواقعة البهلول القير واني في تخوفه أن يأكل بدينه
من مال نصراني أكرمه به
١٥٣-١٥٢ النهي عن أكل الحرام والمشبو ، وآثار أكل الحلال على القلب والسلوك
١٥٣ قول نساء السلف لأزواجهن : اتقوا الله فينا ولا تطعمونا الحرام ...
١٥٣ بستان العارفين : القرآن ، فأينما حلوا منه حلوا في نزهة
١٥٤ ذكر آثار الذنوب وما تورثه من مساوي وعقوبات حسية ومعنوية
١٥٥-١٥٤ كلام نفيس للغاية للإمام ابن القيم في بيان آثار الذنوب وأضرارها ، وفي بيان
١٥٩-١٥٥ فوائد تركها وآثاره الخيرة العظيمة ، يكتب بماء الذهب فقف عليه لزماً
كلام حسن للإمام ابن الجوزي في التحذير من المعاصي والذنوب ، مع بيان منقصات
اللذة الحرام وسوء عاقبتها
١٦٠-١٥٩ كلمة صادقة طيبة للداعية مصطفى السباعي في مدافعة الشهوة والمعصية
١٦٠ منافع الزهد في الدنيا ، وذكر ما يعين عليه
١٦١ أعلى الخصال الكريمة خصلة التقوى ، وإيضاح فضلها
١٦٢ تصرفات الله في عبادته غنى وفقر صحة وسقماً فيها الحكمة البالغة
١٦٣ عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر
١٦٥ الاشتغال بالنافلة من العلم أفضل من الاشتغال بالنافلة من العبادة ، ونصوص أئمة
علماء الإسلام وشواهد من سيرتهم في ذلك
١٦٩-١٦٧ الإشفاق من الله : حلية السلف الصالح وصورة ناطقة منهم فيه
١٦٩ أصالة الصدق والإخلاص في صلاح كل حال ، ويتشعب منهما : الصبر ،
١٧٠ والقناعة ، والزهد ، والرضا ، والأنس ؛ ويتشعب عنهما أخلاق ...

- قوام الصدق في ثلاثة أشياء ، وكذلك قوام الصبر وقوام القناعة
 للقناعة أول وآخر ، وقوام الزهد في ثلاثة ، وكذلك قوام الأنس
 قوام الإخلاص في ثلاثة أشياء أيضاً
 ذكر ثلاث وقائع من أروع ما يتجلى فيه الإخلاص لله تعالى : واقعة صاحب
 الحق - بضم الحاء - ، وواقعة صاحب النقب ، وواقعة صاحب السهم
 صحة اليقين في ثلاثة أشياء ، وبيان أول اليقين وآخره
 قيام الخوف في ثلاثة أشياء ، وذكر مقام رابع له أيضاً
 قيام المحبة في ثلاثة أشياء ، وبيان أول المحبة وآخرها
 من أجل ما تفسر به المحبة في الله قول مسروق التابلي ...
 صورة من حياة سيدنا عثمان وفيها بذله الألوف لتحصيل مندوب
 الأسباب الجالبة لمحبة الله عشرة ، وبيانها تفصيلاً عن الفيروز آبادي
 للمحبة أول وآخر ، وذكر سببها وأعلامها ...
 وصية طاووس لرجل وقد جمع له فيها التوراة والإنجيل والزبور والقرآن
 قيام المراقبة لله تعالى في ثلاثة أشياء ، وبيانها تفصيلاً
 صورتان من صور المراقبة لله لقيس بن مسلم وسعيد بن المسيب
 قول سيدنا علي : إن الله في أرضه آية وإن منها القلوب ...
 ختام الكتاب وختام التعليق عليه للطبعة الأولى والثانية

ويليه :

- جملة من آداب الإسلام وتوجيهاته بقلم عبد الفتاح أبو غدة
 أهمية الأدب في سلوك المسلم واهتمام السلف به وشدة حاجتنا إليه
 ١ - أدب المسلم في أثناء دخوله داره أو دار أخيه
 ٢ - أدب المسلم في سلامه على أهله أو سواهم عند دخوله عليهم
 ٣ - أدب المسلم في مجالسته إخوانه ومخالطتهم ومخادنتهم
 ٤ - أدب المسلم في طرقة الباب على أخيه ، وتمهله وموضع وقوفه آنئذ
 ٥ - أدب المسلم في تعريفه بنفسه إذا طرق باب أخيه
 ٦ - أدب المسلم عند اعتذار أخيه من قبول زيارته ، وهدى القرآن في ذلك
 ٧ - أدب المسلم عند دخوله بيته أو بيت أخيه ، وعند خروجه منه
 ٨ - أدب المسلم في موضع جلوسه عند زيارته لبيت أخيه
 ٩ - أدب المسلم في مباحثاته لأخيه الكبير أو محادثته له أو ندائه
 ١٠ - أدب المسلم إذا دخل بيتاً فيه نيام أو صلى بالليل فيه
 لزوم المحافظة على الآداب ورعايتها مع الأهل والإخوة والأقارب

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

- ١ - الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام للكنوي الطبعة الثالثة مزيدة ومحقة .
 - ٢ - الأجوبة الفاضلة للأئلة العشرة الكاملة . في علوم الحديث للإمام للكنوي أيضاً .
 - ٣ - إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للإمام عبدالحى للكنوي أيضاً .
 - ٤ - رسالة المسترشدين للإمام الحارث بن أسد المحامى في الأخلاق والتصوف النقي . نفذت الطبعة الثالثة ، وستصدر الرابعة محقة ومزيدة جداً عما قبلها .
 - ٥ - التصريح بما تواتر في نزول المسيح للإمام محمد أنور شاه الكشميري . الطبعة الرابعة
 - ٦ - الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام للقراني .
 - ٧ - فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية في الفقه الحنفي للإمام علي القاري المكي .
 - ٨ - المنار النيف في الصحيح والضعيف للإمام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية .
 - ٩ - المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري أيضاً ، الطبعة الثانية .
 - ١٠ - فقه أهل العراق وحديثهم للعلامة المحقق الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثري .
 - ١١ - مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . وهو بحث جديد في بابهم كل محدث .
 - ١٢ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ الخرجي خير كتب الرجال المختصرة بتقدمة واسعة للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . الطبعة الثانية .
 - ١٣ - صفحات من صبر العلماء للأستاذ أبو غدة تصدر الطبعة الثالثة مزيدة ومحقة .
 - ١٤ - قواعد في علوم الحديث للعلامة المحدث الفقيه ظفر أحمد العثماني التهانوي .
 - ١٥ - كلمات في كشف أباطيل وافتراءات بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً .
 - ١٦ - قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين لتاج الدين السبكي الطبعة الثالثة .
 - ١٧ - المتكلمون في الرجال للحافظ المؤرخ شمس الدين عبد الرحمن السخاوي .
 - ١٨ - ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي .
- وسيصدر بعون الله تعالى قريباً بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

- ١ - نخبة الأخيار في إحياء سنة سيد الأبرار للإمام محمد عبد الحى للكنوي أيضاً .
- ٢ - ترتيب ثقات العجلي الإمام نقي الدين السبكي والحافظ نور الدين الميمني .
- ٣ - نماذج من رسائل الأئمة وأدبهم العلمي . جمعها وحققها الأستاذ أبو غدة .
- ٤ - الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم للأستاذ أبو غدة أيضاً .
- ٥ - فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية للإمام علي القاري المكي : الجزء الثاني .

• • •

تطلب هذه الكتب جميعها من البلدان التالية : حلب : مكتبة النهضة ، من دار السلام ، دار الأصمعي . ومن حماة : مكتبة الغزالي . بيروت : الشركة المتحدة للتوزيع ، دار الفكر ، دار الكتاب الجديد . دار النفائس . دمشق : دار القلم ، دار الفكر . بغداد : مكتبة المثنى . الكويت : دار القلم . مكة المكرمة : المكتبة الإمدادية بباب العمرة . المدينة المنورة : المكتبة العلمية . الرياض : مكتبة الحرمين ، مكتبة اللواء . طرابلس الغرب : مكتبة النور ، ومن غيرها من المكتبات .